التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق



عدد خاص عن:

الجاحظ

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد : ٦١ ـ جمادى الأولى ١٤١٦ هـ تشرين الأول «اكتوبر» ١٩٩٥ م السنة السادسة عشرة

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول ـ اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص ب ٣٢٣٠ ـ ☎ ٢١٢٦٢٩٩ ـ ٢١٢٦٣٢٩

تنـويـه :

١ ـ المواد الواردة إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .
٢ ـ يخضع ترتيب المـواد لاعتبـارات فنيـة وطبـاعيـة .
٣ ـ يرجى من كتـاب المجـلة التقيـد بما يلي :

أ ـ كتـابـة دراساتهم بخط واضح ومقروء ، أو طباعتها على الآلـة الكـاتبـة .
ب ـ يجب ألا يتجـاوز البحث أو الموضـوع عـن /٢٠/ صفحة مـن صفحـات المجـلة .
ج ـ يجب أن يكون البحث أو الموضوع خاصـا بمجلة التراث العـربي . وغير منشور في كتـاب أو دوريـة أخرى .
د ـ كتـابـة تعريف وجيز بكاتب الدراسـة ، يتضمن أبرز نشاطاته الأدبيـة والعلميـة والمهنيـة .
هـ ـ إرسـال عنـوان البـاحث مع البحث أو الدراسـة .

الاشـتراك السنوي

داخـل القطـر	للأفراد	:	١٥٠ ل.س
في الأقطـار العربيـة	»	:	٣٠٠ ل.س أو (١٥) دولار أميركي
خارج الوطـن العـربي	»	:	٤٥٠ ل.س أو (٢٠) دولار أميركي
الدوائر الرسمية داخل القطر		:	٣٠٠ ل.س
الدوائر الرسمية في الوطن العربي		:	٥٠٠ ل.س أو (٢٥) دولار أميركي
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي		:	٦٥٠ ل.س أو (٤٠) دولار أميركي
أعضـاء اتحـاد الكتّـاب		:	٧٥ ل.س

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية او شيكا او يدفع نقدا الى : (محاسب مجلة التراث العربي) ■

الاخراج الفني : أكـرم أفـدار

المدقق اللغوي : ممدوح فاخوري

المحتوى

كتاب «الحيوان» لأبي عثمان الجاحظ وعلم الجمال الحيواني

د. عبدالكريم اليافي

« قيل لابي العيناء محمد بن القاسم الاخباري : ليت شعري اي شيء كان الجاحظ يحسن ؟

فقال : ليت شعري اي شيء كان الجاحظ لا يحسن !(١) . »

والحق ان الجاحظ كان موسوعة علوم متعددة، وصورة بارزة متالقة لثقافة العصر العباسي المستبحرة ، وابلغ اصحاب الاقلام البليغة . بل كان الرائد الجريء في مختلف العلوم والفنون في ذلك العصر الذهبي ، والفارس المجلّي في متباين الميادين الفكرية .

عاش حر التفكير ، بعيد الغور ، لامع الابتسامة ، قريباً من عامة الشعب وسوادهم ، معزّزاً ، نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء الذين أقروا له باتساع العلم ، وتالق المعرفة ، وبلاغة البيان . كان واعياً لمكانته في مجتمعه وفي خارج مجتمعه ، يقصده الباحثون والأدباء من أقاصي البلاد التي امتدت إليها الحضارة العربية الاسلامية نهلاً من أدبه ، وتزوّداً من ثقافته .

« قيل للجاحظ : كيف حالك ؟ قال : يتكلم الوزير برأيي ، وصلات الخليفة متواترة إليّ ، وآكل من الطير أسمنها ، والبس من الثياب ألينها ، وأنا صابر حتى يأتي الله بالفرج . قيل : بل الفرج ما أنت فيه . قال : بل أحبُّ أن الي الخلافة ، ويختلف إليّ محمد بن عبدالملك ، يعني الوزير »(٢) .

ونظن أن الجاحظ كان يبتسم حين قال : بل أحب أن ألي الخلافة ، مشيراً إلى أنه وصل من حسن الحال إلى أعلى ما يطمح إليه ٠

ولقد راجت كتبه ورسائله أيّ رواج ، حتى إن بعضها كان « ينادى عليها (للشراء) بعرفات والبيت الحرام »[٣]٠ على أن أبرز ما اشتهر بـه أبو عثمان « البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة »[٤] ٠ ونحن نزيد العلم والذكاء ٠

من الطبيعي أن يفوق الشعر النثر في التأثير والشهرة ، أما بيان الجاحظ وحُسن تأتّيه للأفكار وصفاء إعرابه عن المشاعر فقد فاق شعر الشعراء ٠ والرواية المشهورة أنه « قيل لأبي هِفّان: لم لا تهجو الجاحظ ، وقد نَدَّدَ بك ، وأخذ بمخنّقك ؟ فقال : أمثلي يخدع عن عقله ! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت في ألف سنة »[٥] ٠

من أهم كتب الجاحظ كتاب « الحيوان » ٠ وقد كتبه على اتساعه في أخريات حياته ٠

لقد رافق الحيوان الانسان منذ أن وجد الانسان في حله وترحاله وفي جميع أحواله ٠ ومن الطبيعي في كل حضارة ناشئة أو متوطدة أن تتكلم في هذا الموضوع وتتناول في ثقافتها ومعارفها أنواع الحيوان وخصائص كل نوع وصفاته ٠ وقد جرت محاولات شتّى قبل الجاحظ في تأليف كتب ورسائل صغيرة تتعلق ببعض أنواع الحيوان كالخيل والابل والطير والنحل والحشرات ، ولكنها كانت إلى جمع الألفاظ اللغوية التي تفيد تلك الأنواع وتصف أفرادها أقرب منها إلى الكلام على طباع الحيوان وخصائصه وصفاته وأخباره ٠ وقد كانت تلك الرسائل مادة مهمة دخلت في معجمات اللغة وصبّت في مياهها ولججها ٠ ولا شك أن أول كتاب جامع لخصائص الحيوان وأهم سِفْر لتشعب الكلام فيها هو كتاب الجاحظ ٠ وهو عندنا كالمنجم الكثير الفلزّات المتنوع الركاز وكالخزانة العامرة بجواهر المعارف ودرر الحكايات ٠ مصادر الجاحظ فيه متنوعة يمكن إجمالها في خمسة كما ذكرها محقق الكتاب عبدالسلام محمد هارون وهي :

١ ـ القرآن الكريم والحديث الشريف ·

٢ ـ الشعر العربي ولا سيما البدوي يحمل في طياته اوصافا متنوعة للابل والخيل والوحوش والطيور · ومن القدر من الجاحظ في الاطلاع على تلك الاوصاف وتحرّيه لها ، وايرادها في الموضع المناسب وتقريب ما فيها من المعاني مما ورد مثله في كتب الأطباء والمتكلمين والفلاسفة؟!

٣ ـ كانت ترجمة الكتب اليونانية وغيرها الى العربية سيلاً غدقا نافعا فتح العقول العربية على تراث الاقوام العلمي · ومن تلك الكتب كتاب الحيوان لارسطو الذي اكب الجاحظ على قراءته واستيعابه وذكر ما رآه مناسبا ، ومناقشة ما وجده صالحا للمناقشة ، ورد ما الفاه باطلاً على الرغم من مكانة المعلم الاول ·

٤ ـ كلام كثير من علماء الكلام والفلاسفة من معاصريه الذين اهتموا بشؤون الحيوان·

٥ ـ الانتباه لما يتحدث التجار من زيادة الغلة لبعض الحيوان الذي كانوا يتخذونه للتجارة كالدجاج والبيض ولما يتحدث عنه الملاحون وصيادو الطيور والاعراب في صروف حياتهم ·

وقد عكفنا في هذا البحث على بعض ما وجدناه في كتاب « الحيوان » من آراء لأبي عثمان تدخل في علم الجمال ولكنها تخص مختلف الحيوان دون استقصاء ولا مبالغة ولكن ما نذكره كاف لأن ننعت مؤلف « الحيوان » بأنه الرائد في علم الجمال الحيواني نظراً لتناوله في أحاديثه وبيانه مواطن الجمال والقبح في حياة الحيوان من بناء البيوت والأعشاش ومن حلاوة الأصوات وسماجتها ومن القدرة في ذلك على نصيب من البيان لدى الحيوان ومن الصور الحسنة المستحبة والصور المجتواة المستكرهة ومن أعاجيب ما يستطيعه الحيوان من التعلم والتقليد والمحاكاة ومن الهراش والتنازع وأمثال ذلك ·

ولرب قائل يقول : كيف نستطيع أن نبحث مثل هذه الأمور لدى الحيوان وحواسه تختلف عن حواسنا في قوتها وضعفها ، ومداركه تتباين مع مداركنا · وقد يكون الشيء جميلاً في نظرنا ومستقبحاً لدى الحيوان كما تكون الرائحة الكريهة عندنا مستطابة عند الخنفساء والجعل والذباب ؟

والجواب : أننا نستطيع ذلك بالمشاهدة والتتبع وبالمقايسة والمقارنة وبالتشبث ما استطعنا بما هو متعارف ومستقرأ بين الناس ومتداول بالنسبة

إليهم ، وإن كان يصعب الجزم ، ولكن لا بد من الجرأة في العلم ومن اقتحام العقبات .

وربما يشفع لنا في مثل هذه البحوث ما وردت حكايته على لسان فيلسوف صيني قديم ـ وكم في أخبار الصين وحكاياتهم من حكمة وعلم ! ذكر تلك الحكاية العالم الألماني هامبلمان Hampelmann في كتابه « علم النفس الحيواني Tierpsychologie » ونقلها عنه بول غيوم Paul Guillaume في كتابه علم النفس الحيواني La psychologie animale » :

« كان تشوانغ تسي وهوي تسي على جسر هاو . فقال الأول للثاني : انظر إلى سمك البوري كيف يسرع في كل جهة . هذا هو فرح السمك .
قال الثاني : لست أنت سمكاً .كيف تعرف ما فرح السمك ؟
فأجابه الأول : أنت لست إياي .كيف تعرف أني لا أعرف ما فرح السمك؟
فأجابه الثاني : أنا لست إياك ، ولست أعرفك . ولكني أعرف أنك لست بسمك . وإذن لست تستطيع أن تعرف فرح السمك .

فقال الأول : لنرجع إلى سؤالك :كيف أعرف فرح السمك . إنك تعرف أني أعرف ما فرح السمك . ومع ذلك سألتنيه . أعرف ذلك بالفرح الذي أشعر به أنا نفسي حين أكون في الماء . »هذه المحاورة توضح المشكلة في تأويل أعمال الحيوان وتحاول أن تجد لها حلاً .

من المناسب عند دراسة الحيوان أن نبحث أعماله وتصرّفه على أنها كلّ مرتبط الأجزاء وأن ندرسها دراسة موضوعية فنتحامى مبدئياً أن نخلع عليها ما يجول في خواطرنا ومداركنا ونفوسنا. وإذا أمكن هذا بالنظر إلى الحيوانات الفقرية فمن الصعب بل من المتعذّر أن نؤوّل أعمال الحيوانات غير الفقرية تأويلاً إنسانياً لبعد جهازها العصبي عن الجهاز العصبي الانساني . ولكن ليس من المستغرب ولا من البعيد أن نجد بعض المشابه في الجذور أحياناً وإن بقي الشبه ضئيلاً . ولا بد عند ذلك من المقابلة والمقايسة ولو ضمنياً بين المشاعر والحالات النفسية إذا تشابهت الصروف والملابسات الخارجية على الرغم من تفاوت المجالات والمستويات لمعرفة ما هو متفق وما هو مختلف في السلوك والتصرف .

نفحص أول الأمر أماكن بعض الحيوان والطير ، ولا سيما اذا كان الطير والحيوان هما اللذين يصنعان البيوت التي يأويان اليها • انهما يعمدان الى مثل هذا البناء رغبة منهما في العيش المشترك بين الذكر والأنثى ورأما للنسل • من الطبيعي أن نفكر في أعشاش الطير وأوكاره ومحاضنه وكناس الوحش ومكو الأرنب والثعلب وكور الزنابير وخلايا النحل وقرى النمل وجحور الضباب والحيات وأدحي النعامة، وأفحوص القطا وأمثال ذلك ، وأن نقابلها بفن العمارة عند الانسان وان كانت الفروق كبيرة والمقاييس متفاوتة ولكن بعضها في الاحكام والتمام والملاءمة تفوق هندسة المهندسين ومهارة البنائين • على أن بعضها الآخر يصنعه الانسان للحيوان كاصطبل الدواب ومراح الابل وزرب الغنم وبعضها يصنعه الحيوان بنفسه لنفسه • ولا يغيب عن ذهن الجاحظ هذه الأمور وهو يشير الى خلايا النحل وقرى النمل وبيت العنكبوت ولكنه يعمد الى أطرفها وهو عش الحمام فيصف صنعه أبدع وصف وأدقه وألطفه • يقول : « والحمام أكثر معانيه الذرء وطلب الولد • فاذا علم الذكر أنه قد أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد تقدما في اعداد العش ونقل القصب وشقق الخوص وأشباه ذلك من العيدان الخوارة الدقاق حتى يعملا أفحوصة وينسجاها نسجاً متداخلاً ، وفي الموضع الذي قد رضياه واتخذاه واصطنعاه بقدر جثمان الحمامة ، ثم أشخصا لتلك الأفحوصة حروفاً غير مرتفعة ، لتحفظ البيض وتمنعه من التدحرج ، لتلتزم كنفي الجؤجؤ[٦] ، ولتكون رفداً لصاحب الحضن وسنداً للبيض • ثم يتعاوران ذلك المكان، ويتعاقبان ذلك القرموص[٧] وتلك الأفحوصة ، يسخّنانها ويدفيانها ويطيّبانها ، وينفيان عنها طباعها[٨] الأول ، ويُحدثان لها طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما ومستخرجة من رائحة أبدانهما وقواهما الفاصلة منها ، لكي تقع البيضة اذا وقعت ، في موضع أشبه المواضع طباعاً بأرحام الحمام ، مع الحضانة والوثارة : لكيلا تنكسر البيضة بيبس الموضع ، ولئلا ينكر طباعها طباع المكان ، وليكون على مقدار من البرد والسخانة والرخاوة والصلابة، ثم ان ضَرَبها المخاض وطرّقت ببيضتها بَدرَت الى الموضع الذي قد أعدّته ، وتحاملت الى المكان الذي اتخذته وصنعته ، الا أن يُفزّعها رعد قاصف أو ريح عاصف ، فانها ربما رمت بها

دون كنّها وظل عشها وبغير موضعها الذي اختارته . والرعد ربما مَرِق عنده البيض وفسد، كالمرأة التي تسقط من الفزع ويموت جنينها من الروع[٩] .

ثم يصف مؤلف الحيوان عناية ذكر الحمام وأنثاه بالبيض فيقول :

« واذا وضعت البيضة في ذلك المكان فلا يزالان يتعاقبان الحضن ويتعاورانه ، حتى اذا بلغ ذلك البيض مداه وانتهت أيامه وتم ميقاته الذي وظّفه خالقه ودبّره صاحبه انصدع القيض[١٠] عن الفرخ فخرج عاري الجلد صغير الجناح قليل الحيلة منسد الحلقوم، فيعينانه على خلاصه من قيضه وترويحه من ضيق هَوَّتِه »[١١] .

لقد حسب بعض الباحثين أن غريزة الحب هي الأساس الأول للتجمع والحياة الاجتماعية على أن مثل هذا الحسبان يحتاج الى فحص وتدقيق. ذلك أن ثمة درجات في التجمع المستند الى هذه الغريزة تختلف من اجتماع وقتي يقع فيه الاقتران الى اجتماع يستمر طول الحياة أحياناً . بل قد تقع أحوال يصبح الذكر فيها كالطفيلي على الأنثى وكأنه عضو عندها زائد .

ولكن فريقاً من الباحثين في منابع الفن الأصلية يجدون أن الحب هو منبع مهم من تلك المنابع . وقد رأينا في نص الجاحظ السالف شيئاً من تلك العناية الكبيرة بصنع عش الزوجية . لكن دراسات واسعة حديثة أبانت عند بعض الطير عادات طريفة .

ففي اوقيانوسية طيور من نوع الفردوسيات (طيور الجنة) تبني وكناتها على شكلين : أعشاش للبيض والتفريخ . ويقال لها في العربية تماريد ، وأخرى يبنيها الفحول من الطير تتخذها للرقص والاجتماعات . فهي للانشراح والزينة . على أنه لم يتفق العلماء على بناء هذه الأعشاش كيف حصل ؟ هل تعاونت طائفة من الفحول على بنائها ؟ وعندئذٍ يكون هذا البنيان ظاهرة اجتماعية وفنية واضحة . أم هل بنى كلّ عش فحل اتخذه موعداً للاناث من نوعه كما يرى الآخرون ؟

وأيا كان الأمر فقد ثبت أنه صيد عدة فحول في العش الواحد أو في العش وحول العش .

ومن هذا الطير ضرب[١٢] يزيّن أعشاشه والفسح التي أقامها وينسقها ويصفن فيها الحشيش والأشياء البراقة كالعظام الصغيرة المبيّضة والودع وبقايا قطع القماش وما إلى ذلك • وضرب آخر[١٣] يزوّق وكونه بالأزهار الغضّة البيض يغطي سقوفها ويفرش أرضها بها • وضرب ثالث[١٤] لا يختار إلا الهنوات ذات اللون الأزرق من زهر أو بقايا ورق أو قماش أو حطام خزف صيني • والغريب أن علماء الحيوان يعتبرون الطيور لا تدرك اللون الأزرق •

وبنيان الأعشاش على هذا الطراز للزينة والانشراح مما لا ينفع لحماية النفس ولا للبيض عند هذا الطير ربما كان نسيج وحده فذّ المثال فني الصناعة.

يورد الجاحظ ما ذكره أرسطو صاحب المنطق من « أن الطير الكبير الذي يسمى باليونانية أغتيولس يحكم عشه ويتقنه ويجعله مستديراً مداخلاً كأنه كرة معمولة • وروى أنهم يزعمون أن هذا الطائر يجلب الدارصيني (خشب القرفة) من موضعه ، فيفرش به عشه • ولا يعشش إلا في أعالي الشجر المرتفعة المواضع • قال : وربما عمد الناس إلى سهام يشدون عليها رصاصاً ، ثم يرمون بها أعشتها فيسقط عليهم الدارصيني، فيلتقطونه ويأخذونه »[١٥] •

ثم يعلق أبو عثمان على قول أرسطو مشككاً : « ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدارصيني، وإن كنت لا أعرف الوجه في أن طائراً ينهض من وكره في الجبال أو بفارس أو باليمن فيؤمّ ويعمد نحو بلاد الدارصيني، وهو لم يجاور موضعه ولا قرب منه • وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد أو من القواطع ، وإن كان من القواطع فكيف يقطع الصحصحان الأملس ويطوف الأودية وأهضام الجبال بالتدويم في الأجواء وبالمضيّ على السمت لطلب ما لم يره ولم يشمّه ولم يذقه • وأخرى فانه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً إلا بالاختلاف الطويل • وبعد فانه ليس بالوطيء الأثير ، ولا هو له بطعام »[١٦] •

ولا شك أن الحنوّ على الأفراخ والاهتمام بالنسل من مزايا الحمام ، نجد الجاحظ يصوّر تصويراً بارعاً عناية الزوجين بفرخيهما فيقول :

« وهما يعلمان أن الفرخين لا تتسع حلوقهما وحواصلهما للغذاء ، فلا يكون لهما عند ذلك هم إلا أن ينفخا في حلوقهما الريح لتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق بعد ارتتاقها . ثم يعلمان أن الفرخ وإن اتسعت حوصلته شيئاً لا يحتمل في أول اغتذائه أن يُزق بالطعم فيزق عند ذلك باللعاب المختلط بقواهما وقوى الطعم ـ وهم يسمون ذلك اللعاب اللباء ـ ثم يعلمان أن طبع حوصلته يرق عن استمراء الغذاء وهضم الطعم ، وأن الحوصلة تحتاج إلى دبغ وتقوية وتحتاج إلى أن يكون لها بعض المتانة والصلابة ، فيأكلان من شَوْرَج[17] أصول الحيطان وهي شيء بين الملح الخالص وبين التراب الملح فيزقانه به حتى إذا علما أنه قد اندبغ واشتد زقاه بالحب الذي قد غب في حواصلهما ثم زقاه بعد ذلك بالحب الذي هو أقوى وأطرى . فلا يزالان يزقانه بالحب والماء على مقدار قوته ومبلغ طاقته وهو يطلب ذلك منهما ويبغض[18] نحوهما حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط فيتعوده . حتى إذا علما أن أداته قد تمت، وأن أسبابه قد اجتمعت ، وأنهما إن فطماه فطماً مقطوعاً مجذوذاً قوي على اللقط ، وبلغ لنفسه منتهى حاجته ضرباه إذا سألهما الكفاية ونفياه متى رجع إليهما »[19] .

ويصور مؤلف الكتاب مغازلة الحمامة الذكر للحمامة الأنثى تصويراً بديعاً فيه نصيب كبير من التفنن :

« وذلك أنه يبتدىء الذكر الدعاء والطرد ، وتبتدىء الأنثى بالتأتي والاستدعاء ثم تزيف وتتشبكل[20] ، ثم تمكّن وتمنع ، وتجيب وتصدف بوجهها، ثم يتعاشقان ويتطاوعان ويحدث لهما من التغزل والتفتل ومن السوف[21] والقبل ومن المص والرشف ومن التنفخ والتنفّج ومن الخيلاء والكبرياء ومن إعطاء التقبيل حقه ، ومن إدخال الفم في جوف الفم وذلك من التطاعم وهي المطاعمة .. هذا مع إرسال جناحيها وكفّيها على الأرض ومع تدرّعها وتبعّلها ومع تصاوله وتطاوله ومع تنفّجه وتنفّخه مع ما يعتريه من الحكة والتفلّي والتنفّش[22] . »

ينوه الجاحظ بالفرق بين عمل الحيوان الذي هو من الالهام والفطرة والذي قد يفوق صنع الانسان وبين عمل الانسان صاحب التمييز والرويّة

والتصرّف • والعلماء في الوقت الحاضر يستعملون في التفريق بينهما لفظي الذكاء النوعي الخاص بالحيوان والذكاء الفردي الذي يتصف به الانسان• الذكاء الأول محصور بالنوع لا يستطيع الفرد تجاوزه إلى غيره إلا ما أدّى إليه تغير البيئة وتبدل المحيط • والذكاء الثاني أقلّ هداية ولكنه أبعد مدى وأقوى بذاته على التغيير والتبديل • يقول الجاحظ :

« وليس عند البهائم والسباع الا ماصُنِعت له ونُصِبت عليه والهمت معرفته وكيفية تكلف اسبابها والتعلم لها من تلقاء انفسها • فاذا احسن العنكبوت نسج ثوبه (بيته) وهو من أعجب العجب لم يحسن عمل بيت الزنبور • واذا صنع النحل خلاياه مع عجيب القسمة التي فيها لم يحسن ان يعمل مثل بيت العنكبوت • والسرفة التي يقال ، اصنع من سرفة ، لا تحسن ان تبني مثل بيت الارضة ، على جفاء هذا العمل وغلظه ودقة ذلك العمل ولطافته • وليس كذلك العاقل وصاحب التمييز ومن ملك التصرّف وخوّل الاستطاعة لانه يكون ليس بنجّار فيتعلم النجارة ، ثم يبدو له بعد الحذق الانتقال الى الفلاحة ، ثم ربما ملّها بعد ان حذقها وصار الى التجارة(٢٣) • »

ومثل ذلك الالهام والمعارف الفطرية والهدايات الغريبة ما سخر الله تعالى حناجر الطيور « من ضروب النغم الموزونة والاصوات الملحنة والمخارج الشجية والاغاني المطربة• فقد يقال : ان جميع اصواتها معدلة وموزونة موقعة ، ثم الذي سهّل لها من الرفق العجيب في الصنعة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها واكفها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة ، وكيف اعطى كثيرا منها من الحس اللطيف ، والصنعة البديعة، من غير تاديب وتثقيف ، ومن غير تقويم وتلقين ، ومن غير تدريج وتمرين ، فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرتها من البديهة والارتجال ، ومن الابتداء والاقتضاب ، مالا يقدر عليه حذّاق رجال الراي وفلاسفة علماء البشر بيد ولا آلة »(٢٤) •

لقد أحسن الطير صنع أعشاشه ووهب خالقه لبعضه حسن الصوت فلا أقل من أن يصدح ويرجّع ويملأ الجو فرحاً وغناءً إذا واتته أحباؤه أو شكوى وهتافاً إذا غابت عنه • لنتأمل الآن بعض ما ذكره الجاحظ في أصوات الطيور والحيوان عامة ، بعد أن نقدم لذلك شيئاً من التوطئة •

إن أصوات الحيوانات الفقرية ولاسيما الطيور والثدييات تستعملها إزاء أعدائها أو اجتذاباً لأحبائها • ولكنها فضلاً عن ذلك تتضمن أحياناً بعض المعاني ، وتفيد في بعض المآرب والحاجات كالتحذير من الخطر أو نداء الصغار أو التنبيه على عمل أو الدعوة لطعام أو طلب العون •

واللغة الصوتية نامية جداً عند الطيور يملك كل منها عضواً للتصويت عند تشعب قصبته ذا قدرة على تنغيم اللحن فلا يفوق ترجيعها إلا الصوت الانساني • وفي المقابل لما كان جهاز الصوت متطوراً عند الطير كان جهاز السمع عندها متطوراً تطوراً عالياً يناسب خصائص الأصوات التي تصدح بها• فالسمع والصوت توأمان •

ثم هناك شبه آخر بين صوت الانسان وصوت بعض الطيور وذلك أن أصوات الحيوان حتى أصوات القردة وراثية وفطرية لا تنمو بالتربية والتثقيف ، على حين نجد أن أصوات الشحارير العذبة الشجية ليست فطرية تماماً بل هي مكتسبة تتعلمها الصغار من الكبار ، فالطير المعزول منها لا يسجع بل يتعلم صوت الطير الذي يسمعه ولو كان من نوع آخر • ولكنه دائماً يُؤثر صوت الشحرور من نوعه إذا سمعه بعد ذلك • ثم يرخم الصوت ويجود مع السن • وعند الطيور المغردة مذاهب مختلفة في التغريد والترجيع كأنها مدارس فنية تعليمية •

وقد انتبه لذلك الجاحظ منذ القديم فكتب : « فأما الذي لا أشك فيه فان الطائر الحسن الصوت الملحّن إذا كان مع نوائح الطير ومغنياتها فكان بقرب الطائر من شكله ، وهو أحذق منه وأكرز وأمهر ، جاوبه وحكاه وتعلم منه أو صنع شيئاً يقوم مقام التعليم »[٢٥] •

ويذكر تعليم بعض الناس للطير ، فيقول : « وربما استأجروا للطير رجلاً يعلمها • فأما الذي رأيته أنا في البلابل فقد رأيت رجلاً يُدعى لها فيطارحها من شكل أصواتها »[٢٦] • ثم ينوه باختراعها الأصوات واللحون ، فيقول : « وفي الطير ما يخترع الأصوات واللحون التي لم يسمع بمثلها قط من المؤلف للحون من الناس ، فانه ربما أنشأ لحناً لم يمرّ على أسماع المغنين قط • وأكثر ما يجدون ذلك من الطير في القماري وفي السودانيات ثم في الكرارزة »[٢٧] •

وتبلغ قوة المحاكاة أوجها لدى الببغاء وأمثالها مما يحكي صوت الانسان. ويذكر الجاحظ في ذلك بعض الغربان ، فيقول : « ومنها غربان تحكي كل شيء سمعته ، حتى إنها في ذلك أعجب من الببغاء »[٢٨] • وهي جميعاً تكرر كل

شيء سمعته من دون أن تفهم معناه ، على أنها ربما أعادته في وقت مناسب لايراده • ولا شك أن الببغاء من أذكى لطيور ولكن يعوزها أن يكون في رأسها مثل مخّ الحيوان اللبون •

والقرد ليس له قوة محاكاة الصوت• وقصاراه أن يتعلم كلمة أو كلمتين أو عدة كلمات ، ثم يقف تعلمه بعد ذلك •

لقد تقدمت دراسة أصوات الطيور ونغماتها في العصر الحاضر استناداً إلى تقدم تِقْنيات التسجيل • من المعلوم أن للصوت ثلاث صفات فزيولوجية وهي : الارتفاع أو العلوّ وهو الخاصة التي تصف الصوت بأنه حادّ أو أجشّ أو بين بين • ثم الشدة وهي صفة الصوت من حيث القوة والضعف • ثم الجَرْس أو الطابَع وهو منوط بمصدر الصوت • ويقابل هذه الصفات الفزيولوجية ثلاث خصائص فيزيائية : فالارتفاع يقابله التواتر أو التردد وهو عدد الهزّات في الثانية • ويقاس بالهرتز نسبة إلى العالم الفيزيائي الألماني • وهو بالتعريف الهزة أو الموجة في الثانية • والشدة تقابلها سعة الاهتزاز ، وهي متناسبة مع مربع هذه السعة • والجرس يقابله شكل الاهتزاز ، وذلك أن النغمة الواحدة يختلف شكل الاهتزاز فيها باختلاف مصدرها هل هو ناي" أو كمان" أي صوت حمام أو إنسان مع كون عدد الهزات في الثانية هو نفسه • وهذا الاختلاف في الشكل ناشيء عن انضمام مدروجات هي مضاعفات النغمة الأساسية من قرار أو جواب إلى النغمة الأساسية • يسجل تنغيم الطير على شريط مغناطيسي خاص يكون التواتر فيه على محور التراتيب ، والزمن على محور الفواصل • أما شدة الصوت فتبدو في درجة كثافة الخط المسجل حتى كأن ذلك يتم في مكان ثلاثي الأبعاد • هذا ويمكن بعد التسجيل إعادة غناء الطير على سمعه ودراسة استجابته لسماعه •

ولا يبقى ترجيع الطير في تواتر واحد مدة طويلة بل ينتقل من نغمة إلى أخرى انتقالاً سريعاً على حين لا تكاد تتبدل شدة الترجيع • وقد يتضمن الترجيع أو الصداح نحو خمس عشرة نغمة في الثانية أو أكثر ، تنفصل كل نغمة عن أختها بنحو جزء من مئة أجزاء الثانية ، كما قد يصدح الطير بعدة نغمات في آن واحد •

ويختلف تواتر أصوات الطيور باختلاف أنواعها . وهو عادة أعلى من تواتر الصوت الانساني . يترجّح الكلام الانساني بين ٤٠ و ٨٠ هرتزاً . ويبلغ الصوت الندي وهو النغم الأعلى (Soprano) في الانسان نحو ١٥٠٠ هرتز . وهذا الرقم هو الحد الأدنى لأصوات بعض الطيور . ولا شك أن سلم التواتر أو مدى عدد الموجات الصوتية عند الطيور أوسع منها لدى الانسان .

ثم ان أصوات الطيور تتفاوت في حجومها أي في المدى الذي يصل اليه الصوت . ذلك يتعلق بشدة الصوت مبدئيا ، كما يتعلق بموقع الطير . بعض أصوات الطيور يمتد الى بضعة أمتار فقط . ويبلغ صوت المكّاء نحو الكيلومتر الواحد ، وصوت الواق أكثر من خمسة كيلو مترات .

وقد انتبه الجاحظ في كتابه الى هذه الصفة من أصوات الطيور . يقول:

« وهديل الحمام لا يجوز بعيدا الا ما كان من الوراشين والفواخت في رؤوس النخل وأعالي الأشجار . فلعمري ان ذلك لما يُسمع من موضع صالح البعد . »(٢٩) كذلك يشير الى صياح الطير دون غناء ولا ترجيع فيقول : « وللعصافير والخطاطيف وعامة الطير مما يصفر ويصرصر ، ومما يهدل مع الفجر الى بُعيد ذلك صياح كثير . ثم الذي لا يدع الصياح في الأشجار مع الصبح أبدا الصلوغ والصدى والهامة والبومة وهذا الشكل من الطير . »(٣٠)

ويذكر أن صياح هذه الطيور قد يفوق مع الصبح صياح الديكة ويقول :
« والديك له عدة أصوات بالنهار لا يغادر منها شيئاً . ولتلك أوقات لا يحتاج فيها الناس اليه »(٣١) .

ولا يدع الجاحظ الفرصة تفوته بأن يذكر أشكال تلك الأصوات .
« ويقال لصوت الديكة الدعاء والزُقاء والهتاف والصراخ والصُّقاع ، وهو يهتف ويصقع ويزقو ويصرخ »(٣٢) .

ان تغريد الطيور وأصوات الحيوان ليست الا اشارات تدل بها على بعض الحالات والحاجات وتعرب بها عن انفعالاتها . فهي لا تصف الأشياء . وبذلك تختلف أعمق الاختلاف عن نطق الانسان. ولقد انتبه العرب منذ القديم لتفاوت صوت الحيوان الواحد بحسب حاجاته وأحواله ، فاطلقوا على أشكال ذلك الصوت عند بعض الحيوان أسماء مختلفة ، وذلك من غنى اللغة العربية

ودقتها وضبطها . فاذا كان الصهيل صوت الفرس في أكثر أحواله فالضبح صوت نَفَسه اذا عدا ، والقَبع صوت يردده من منخره الى حلقه اذا نفر من شيء أو كرهه ، والحمحمة صوته اذا طلب العلف أو رأى صاحبه فاستأنس اليه . واذا كان العُواء والوعوعة لصوت الذئب عامة فالتضوّر والتلعلع صوته عند جوعه . واذا كان النباح للكلب عامة فالضُغاء له اذا جاع ، والوقوقة اذا خاف ، والهرير اذا أنكر شيئاً أو كرهه . يتحدث الجاحظ عن الكلب فيقول : « وله ضروب من النغم وأشكال من الأصوات وله نوح وتطريب ودعاء وخوار وهرير وعواء وبصبصة وشيء يصنعه عند الفرح وله صوت شبيه بالأنين اذا كان يغشى الصيد ، وله اذا لاعب أشكاله في غدوات الصيف شيء بين العواء والأنين[٣٣] . »

ويذكر الجاحظ أيضاً ما كان متعارفاً من أصوات السنانير بحسب حاجاتها: « قالوا ، فحوائج السنانير لا تعدو خمسة أوجه منها صياحها اذا ضُربت ولذلك صورة ، وصياحها اذا دعت أخواتها وألاّفها ولذلك صورة ، وصياحها اذا دعت أولادها للطعم ولذلك صورة ، وصياحها اذا جاعت ولذلك صورة »[٣٤].

وحين ذكر صياحها اذا دعت اخواتها وألافها أراد نوعين لصياحها حتى تتم الأوجه الخمسة التي قدمها . وقد فرق ذلك في مكان آخر من كتابه حين قال : « ودعاء الهرة الهر غير دعائها لولدها »[٣٥] .

ولكن صور الأصوات تتجاوز تلك الحاجات . قال أبو عثمان في موضع آخر : « فاذا صرت الى السنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير . ومتى أحببت أن تعرف ذلك فتَسمَّع تجاوب السنانير وتوعد بعضها لبعض في جوف الليل ، ثم أحصِ ما تسمعه وتتبعه وتوقف عنده فانك ترى من عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجات والعقول والاستطاعات ثم ألفتها لكانت لغة صالحة الموضع متوسطة الحال »[٣٦] .

كل الناس تعرف تفاوت الطيور وأنواع الحيوان في حسن الصورة ، بل تفاوت الأفراد من كل نوع فيه . والمسلمون حين يتصورون الجنة يتصورون جميع الأشياء الحسنة والمستحبة وذوات الصور الجميلة فيها .

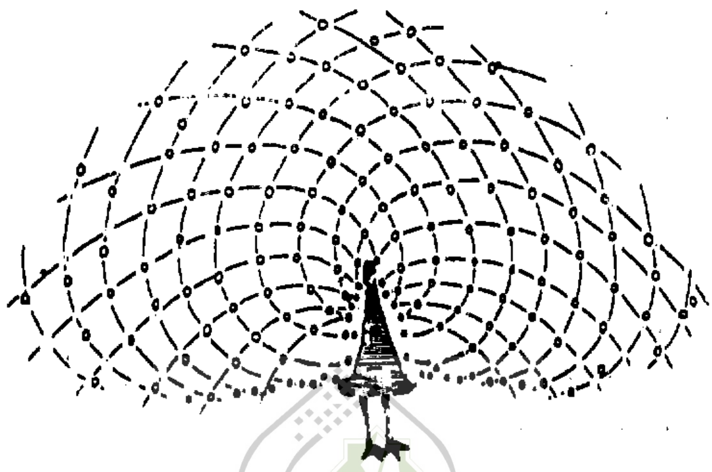
وحين يتصورون النار تبتدر إلى أذهانهم الصور القبيحة . ولذلك لا نعجب حين نجد الجاحظ يعرض قول بعض معاصريه من علماء الكلام : « ولكنا نزعم أن جميع ما خلق الله تعالى من السباع والبهائم والحشرات والهمج فهو قبيح المنظرة مؤلم ، أو حسن المنظرة مُلِذٌ . فما كان كالخيل والظباء والطواويس والتدارج فان تلك في الجنة ويلذُّ أولياء الله عزّ وجلّ بمناظرها ـ وما كان منها قبيحاً في الدنيا مؤلم النظر جعله الله عذاباً الى عذاب أعدائه في النار. »[٣٧]، ويعقب المؤلف على ذلك تعقيبات مناسبة ربما تركت آثاراً عند فريق من المفكرين والصوفية المتأخرين .

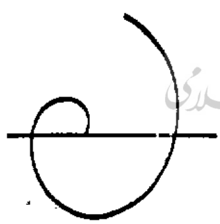
وكلما عرض القول في أوصاف بعض الحيوان أو الطير الجميلة لخص الجاحظ جماله بريشته الدقيقة . فهو عند الكلام على الطاووس يشيد بمونق منظره وامتاع حسنه للبصر[٣٨] . مثّله في ذلك مثَل التدرج ، وبتماريج ريشه وتهاويل الوانه[٣٩] . ويذكر في موضع آخر أن « ذكورة كل جنس أتمُّ حسناً من اناثها . وربما لم يكن للاناث شيء من الحسن وتكون الذكورة في غاية الحسن كالطواويس والتدارج ، واناثها لا تدانيها في الحسن ، ولها من الحسن مقدار »[٤٠] .

أشاد الجاحظ بجمال ريش الطاووس وتهاويل ألوانه حين ينفش ذنبه . هذا النفش يطلق عليه في اللغة العربية لفظ بُرائل وبرائلى مقصوراً يقال برال الطاووس وتبرال وابْرالّ . ويطلق البرائل على عُرْف الحبارى أيضاً . ولم يذكر أبو عثمان هذا اللفظ في كتابه . ونحن انما أوردناه تيسيراً للتراجمة الذين قد يتوقفون عند قراءة اللفظ الفرنسي الخاص الدال على البرائل والذي أثبتناه في الحاشية[٤١] .

وقد بحث العلماء في العصر الحاضر برائل الطاووس البديع وتوزع الدوائر التي تشبه العيون على الذنب المنفوش ، فوجدوا أن تلك العيون أو الدوائر هي محالّ تقاطع عائلتين من منحنيات مستوية تمثل بالضبط ما يسمى في الرياضيات لولب أرخميدس ولكن في جهتين متناظرتين موجبة وسالبة[٤٢] . وربما يكون من المفيد أن نشرح ما هو لولب أرخميدس تيسيراً للقارىء :

نتصور مستوياً فيه خط مستقيم يدور بحركة منتظمة حول نقطة ثابتة نسميها القطب ، وعلى المستقيم هذا نقطة متحركة تنطلق من النقطة الثابتة التي هي القطب وتبتعد عنها بحركة منتظمة · فمسار النقطة المتحركة في ذلك المستوي هو لولب أرخميدس ·





لولب ارخميدس



ووجد العلماء أيضا أن لولب أرخميدس ومنحنيات لولبية أخرى لوغارتمية تنطبق على أجزاء من الحيوان كقرون بعض الحيوان المجتر وعلى بيت المنكبوت وعلى أشكال بعض الأصداف وخطوط نموّها[٤٢] ·

ولا شك أن الجاحظ كان عنده من المعلومات عن الطاووس وعن غيره من الطير والحيوان أكثر مما ذكره أو أشار اليه في كتاب « الحيوان » · نجده مثلاً في رسالة « التربيع والتدوير » يطرح على موضوع الرسالة الكاتب أحمد ابن عبدالوهاب، يتندر به ويسخر منه، من الأسئلة الطريفة والمربكة : « وخبرني

عن لون ذنب الطاووس أتقول بأنه لا حقيقة له وانما يتلون بقدر المقابلة أم ان هناك لوناً بعينه والباقي تخييل ؟ » وهذا بحث طريف في الألوان وحقيقتها ·

هذا وعند الكلام على جمال ريش الطاووس لا ينسى الجاحظ أن يذكر ما يشار إليه من قبح رجليه وسماجة صوته وتشاؤم الناس به[٤٤] إلى جانب سماجة صوت الكلب والبغل وابن آوى والخنزير وبقية الطير والسباع والبهائم لأن « الصوت الحسن ليس إلا لأصناف الحمام من القماريّ والدّباسيّ وأصناف الشفانين والوراشين »[٤٥] ·

كذلك يشير أبو عثمان إلى قبح التيوس ونتن ريحها وغباوتها[٤٦] ·

لقد سبقت الاشارة إلى جمال الطاووس · ولكن الجاحظ لا يلبث أن يذكر زعم بعضهم بأن الديك يفضل الطاووس وأن الديك ـ « مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلّعه[٤٧] إذا مشى ـ سليم من مقابح الطاووس ومن موقه وقبح صورته ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجليه ونذالة مَرْآته » ·[٤٨] · ولكن الناس جروا على أن يشبهوا الفتى الجميل بالطاووس ، ويقولون : « فلان أحسن من الطاووس ، وما فلان إلا طاووس » ، وأنهم سموا جيش عبد الرحمن بن الأشعث « الطواويس لكثرة من كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال · إنما قالوا ذلك لأن العامة لا تبصر الجمال ··· وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط ، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصّبه كحسن البازي وانتصابه ، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح ، وإلى الشياب[٤٩] والهيئة والرأس والوجه الذي فيه »[٥٠].

ثم يرى الجاحظ أو من ينقل الجاحظ كلامه أن حسن الطاووس مقصور على ريشه لا على جُمْلته ، فيعلن أنه « لفرس رائع كريم أحسن من كل طاووس في الأرض ، وكذلك الرجل والمرأة »[٥١] ·

ولا شك أن الانسان أجمل من كل حيوان ومن كل طائر · [**لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم**] ولقد سبق آنفاً أن « ذكورة كل جنس من الحيوان أتم حسناً من إناثها » · ولكنا نحن نستثني الانسان ، ونرى أن المرأة على

العموم أجمل من الرجل بسبب اختلاف توزيع العمل عليهما ، وذلك في الموازين الحسية فقط ٠

إلى جانب جمال أصوات الحمام يذكر الجاحظ جمال شربه في مقابل قبح شراب الذئب والكلب مع قبح شراب الديك والدجاجة ٠ « ومتى رأى إنسان عطشان الديك والدجاجة يشربان الماء، ورأى ذئباً وكلباً يلطمان الماء لطماً ذهب عطشه من قبح حسو الديك نغبة نغبة، ومن لطع الكلب، وإنه ليرى الحمام يشرب الماء ، وهو ريان ، فيشتهي أن يكرع في ذلك الماء معه »[٥١] ٠

إن الجاحظ لا يرتب الموضوعات بعضها إلى جانب بعض ٠ بل يعمد إلى أقوال العلماء والشعراء وأنصار بعض الحيوان على بعض ويذكر مفاضلاتهم ، وهكذا يبث في كتابه حياة أدبية مسلية ربما لا يرضى عنها المؤلفون المتنطعون الذين يؤثرون الترتيب ٠

يشير الجاحظ إلى المحكمات شأن المعيشة ويبرز مزاياها الفطرية وهي المنكبوت والنحل والنمل والذ ّر ّة ٠

ويميّز الجاحظ في الحيوان والطير ما يقبل التعليم والأدب وما لا يقبلهما ٠ « فالخنزير يكون أهلياً ووحشياً والسنانير مما يعايش الناس وكلها لا تقبل الأدب ، وإن الفهود وهي وحشية تقبل كلها كما تقبل البوازي والشواهين والصقورة والزرّق واليؤيؤ والعقاب وعناق الأرض وجميع الجوارح الوحشية، ثم يفضلها الفهد بخصلة غريبة ، وذلك أن كبارها ومسانّها أقبل للأدب وإن تقادمت في الوحش من أولادها الصغار وإن كانت تقبل الآداب ، لأن الصغير إذا ادّب فبلغ خرج جبيناً مواكلاً ، والمسن الوحشي يخلص لك كله حتى يصير أصيد وأنفع ٠ وصغار سباع الطير وكبارها على خلاف ذلك وإن كان الجميع يقبل الأدب »[٥٢] ٠

ويذكر المؤلف في الجزء الثاني قصة أدب الكلب[٥٣] ، ويطنب في شأن الكلب فيقول : « وقد صار عند الكلب من الحكايات وقبول التلقين وحسن التصريف في أصناف اللعب وفي فِطَن الحكايات ما ليس في الجوارح المذللة لذاك المصرّفة فيه ، وما ليس عند الدب والقرد والفيل والغنم المكية والببغاء »[٥٤] ٠ ويخص

الكلب الزيني بجودة التثقيف : «والكلب الزيني الصيني يُسْرج على رأسه ساعات كثيرة من الليل فلا يتحرك · وقد كان في بني ضبّة كلب زيني صيني يسرج على رأسه، فلا ينبض فيه نابض، ويدعونه باسمه ، ويرمى إليه ببَضعة لحم والمسرجة على رأسه .فلا يميل ولا يتحرك حتى يكون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه · فاذا زايل رأسه وثب على اللحم فأكله ! دُرِّب فدَرِب ، وثُقِّف فثَقِف ، وأُدِّب فَقَبِل · وتعلق في رقبته الزنبلة والدوخلة وتوضع فيها رقعة ، ثم يمضي إلى البقال ، ويجيء بالحوائج »[55] ·

ويتحدث الجاحظ عن صفات الكلب المعنوية فيقول : « كِبْره وشدة تجبره وفرط حميته وأنفته واحتقاره أنه متى نبح على رجل الليل ولم يمنعه حارس ، ولم يمكنه الفوت ، فدواؤه عند الرجل أنه لا ينجيه منه إلاّ أن يقعد بين يديه مستخذياً مستسلماً وأنه إذا رآه في تلك الحال دنا فشغر عليه ولم يهجه ، كأنه حين ظفر به ورآه تحت قدرته رأى أن يسمه بميسم ذل »[56] ·

وشغر الكلب أو بوله حين ينتصر أو يطمئن في مكان ما بقية من بقايا غريزة دفاعه عن حماه · وإذا كانت الملوك والأمراء والأغنياء يبنون قصورهم ويحيطونها بأسوار عالية وما يشابهها من أجهزة الحماية والأمن فان الكلب يحدد معالم حماه الذي يظن أنه يمتلكه بأن يقزع أي يبول ويشغر لأن في ذلك إشعاراً شمياً منه لأبناء جنسه · والاعلام عند الحيوان قد يعتمد على حاسة الشمّ كما قد يعتمد على إثارات حسية أخرى كالصرير والنفخ والرقص وغيرها. وبعض الحيوان يمضي فيبول في أطراف المكان المسور أو المسيّج كأن هذا البول إعلام بحدود حماه · وهكذا نفسر تصرف الكلاب الغريزي حين لا تلبث أن تبول في المكان الذي تطمئن فيه ويروق لها ·ولقد استفاد الانسان من غريزة دفاع الكلب عن حماه فاعتمده في حراسة البيوت والحقول وأقاطيع المواشي وأمثال ذلك ·

ويستطيع الانسان أن يحمل الحيوان على الدفاع عن النفس أو يثير فيه العدوان على الغير بالتحريش والاغراء والتاديب بين أفراد النوع الواحد أو افراد النوع والنوع الآخر · « والهراش الذي يجري بينها (بين الكلاب) ، وهو شر ، يكون بين جميع الأجناس المتفقة كالبرذون والبرذون ، والبعير والبعير ،

والحمار والحمار ، وكذلك جميع الأجناس . فأما الذي يفرط. ويتمّ ذلك فيه ، ويتمتع ناس من الناس، ويقع فيه القمار ويتخذ لذلك ، ويُنْفق عليه ويغالى بــه فالكلب والكلب ، والكبش والكبش، والديك والديك ، والسماني والسماني »[٥٧] .

ويستطرد الجاحظ كما هي عادته إلى أمور أقرب ما تكون من الأحوال الشعبية ، وهو كثيراً ما يفعل ذلك ،فيذكر قتال الجرذان بالتحريش بينهما « فأما الجرذ فانه لا يقاتل الجرذ حتى يُشَدّ رجل أحدهما في طرف خيط ، ويشد الجرذ الآخر بالطرف الآخر ،ويكون بينهما من المشادّة والالتقاء والعض والخمش وإراقة الدم وفري الجلود ما لا يكون بين شيئين من الأنواع التي يهارش بها . والذي يُحدث للجرذان طبيعةَ القتال الرباطُ نفسه . فإن انقطع الخيط وانحل العقد أخذ هذا شرقاً ، وهذا غرباً ، ولم يلتقيا أبداً . وإذا تقابلت جِحَرة الفأر ، وخلا لها الموضع فبينها شر طويل ، ولكنه لا يعدو الوعيد والصخب ولا يلتقي منهما اثنان أبداً »[٥٨] .

ويعود المؤلف فيتناول قتال الجرذان وضراوته لينتقل إلى قتال الجرذ والعقرب ، فيكتب : « وإن جعلا في اناء من قوارير أعني الجرذ والعقرب ، وانما ذكرت القوارير لأنها لا تستتر عن أعين الناس صنيعهما ، ولا يستطيعان الخروج لملاسة الحيطان ، فالفأرة عند ذلك تختل العقرب ، فان قبضت على ابرتها قرضتها ، وان ضربتها العقرب ضرباً كثيراً ، فاستنفدت سمها كان ذلك من أسباب حتفها . »[٥٩] . ويذكر ما شاهده عند من يحرش بينها فيقول : « ودخلت مرة أنا وحمدان بن الصباح على عبيد بن الشونيزي ، فاذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقرباً وعشرون فأرة . فاذا هي تقتتل . فخيّل لي أن تلك الفأر قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع . ورأيت العقارب قد كلّت عنها وتاركتها . ولم أر الا هذا المقدار الذي وصفت . »[٦٠]

وقد يقوم بعض الحيوان بأدوار من التمثيل والتظاهر غريبة حيلة منه ودفاعاً . يذكر الجاحظ خبث الثعلب ثم تفوّق الكلب عليه في التظاهر رواية عن صديق له .

« قال : وذلك أني هجمت على ثعلب في مضيق ، ومعي بُنيّ لي ، فاذا هو ميت منتفخ ، فصددت عنه ، فلم ألبث أن لحقتني الكلاب . فلما احس بها وثب كالبرق ، بعد أن تحايدعن السنن . فسألت عن ذلك فاذا ذلك من فعله معروف ، وهو أن يستلقي وينفخ خواصره ، ويرفع قوائمه ، فلا يشك من رآه من الناس أنه ميت منذ دهر ، وقد تزكّر بالانتفاخ بدنه ، فكنت أتعجب من ذلك ، اذ مررت في الزقاق الذي في أصل دار العباسية ، ومنفذه الى مازن ، فاذ جرو كلب مهزول سيء الغذاء ، قد ضربه الصبيان وعقروه ففرّ منهم ودخل الزقاق فرمى بنفسه في أصل أسطوانة ، وتبعوه حتى هجموا عليه ، فاذا هو قد تماوت ، فضربوه بأرجلهم فلم يتحرك فانصرفوا عنه . فلما جاوزوا تأملت عينه فاذا هو يفتحها ويغمضها . فلما بعدوا عنه وأمنهم عدا ، وأخذ في غير طريقهم ، فأذهب الذي كان في نفسي للثعلب ، اذ كان الثعلب ليس فيه الا الروغان والمكر ، وقد ساواه الكلب في أجود حيله . »[٦١]
وهكذا نجد أن الأدوار المسرحية موجودة حتى لدى الحيوان .

ان تماوت الثعلب والكلب عند الشعور بالخطر يكشف لنا عن جذور فن المسرح . فهو شكل من الأشكال الأولى تتجلى فيه غريزة حفظ البقاء . ثم دخل الذكاء الانساني والارادة والتنويع ذلك الشكل وارتفعت به الى الامتاع والافادة وحب الجماهير . مثله في ذلك مثل عاطفة الحب التي تحمل الطير على بناء عشه وعلى أن يصدح بأعذب الألحان اغراءً واجتذاباً لأحبائه (فن العمارة وفن الشعر) .

لقد أفاض الجاحظ في الكلام على بعض الحيوان دون بعض متوخياً جوانب المعرفة وظواهر الغرابة وحذق التصوير ومهارة البيان ارضاءً لنهم القارىء وافادته وحثاً على التفكير والتذكر والاعتبار ورغبة في التسلية والامتاع والسلوان . وكأنه كان يضرب الأمثال على اتساع ميادين المعرفة والبيان في كل جانب من جوانب الحياة والكون ، ولو قلّ شأن الجانب وضؤلت مكانته وظن من سقط المتاع وحرياً بالاغفال والاهمال . أو ليس هو القائل : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدنيّ ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة

الطبع وجودة السبك . فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير . »(٦٢) .

ونحن نقول : وكذلك النثر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير .

ولو كان الجاحظ حياً في القرن العشرين وعاصر العالم النمساوي كارل فون فريش Karl Von Frish واطلع على أعماله لحدثنا عن لغة النحل الراقصة . فالنحلة بعد اختيارها للرحيق على الزهرة تؤوب وتنبىء رفاقها بمكان الزهرة على مسافة معينة وفي جهة معينة . أما الزهرة فتميِّزها بالرائحة وأمّا المسافة والجهة فبالرقص . والرقص ثماني رقصات سرعتها متناسبة عكساً مع المسافة وميلها عن الخط الشاقولي يعادل الزاوية الحاصلة بين الخلية والشمس من جهة وبين الخلية والرحيق من جهة ثانية . فان كانت الشمس محتجبة استند التعيين إلى تحسس استقطاب النور بالعين . فالرقص إشارة وتعبير ودلالة .

والخلاصة انا ابرزنا ملامح من الحياة الجمالية لدى الحيوان إنشاءً وصوراً واصواتاً واعمالاً كما اشاع الجاحظ ذلك في كتابه الأبد المؤثل . هذا وان ضيق المجال جعلنا نقتصر ونختصر دون ان نتوسع في حواس الحيوان الاخرى كقوة البصر وحس الشمّ ودون ان نزيد في التعليق بما قدمه العلم الحديث والتقانة العصرية في مزايا انواع الحيوان وخصائصه العجيبة المتفردة مما يتطلب المزيد من التنقيب في الكتب ومن متابعة الأسفار في مختلف الكتب والأسفار . وهذا كله من شانه ان يحفز على التفكير ويدفع الى اتقان البيان الذي امتاز في سموه الانسان .

وفي الختام يلذّ لنا ان نطرح مرة جديدة قول أبي الفضل ابن العميد الملقب بالجاحظ الثاني في أدبه وترسله ونسال عن مدى تحقق هذا القول : « كتب الجاحظ تعلم العقل اولاً والأدب ثانياً »(٦٣) .

أدب الجاحظ مَسْرَحٌ كَوْنيٌ غاصٌ بمختلف الكائنات ، مائج بشتى الأخبار والحكايات ، نابض بألوان الحياة واشتباك الأحداث . يعرض المؤلف فيه مختلف الأقوام من عرب وفرس وروم وهنود وصينيين وغيرهم ، ومن خاصة الأقوام وعامتهم وسوادهم . تلقى فيه الخلفاء والملوك والأمراء وقادة الجيوش كما تلقى الوعاظ والزهاد وأصحاب الحديث والقضاة والمتكلمين والفلاسفة ، وتجد فيه الشيوخ والأحداث والفتيان والقيان إلى جانب الرعاع والدهماء ، بل إن أخبار هؤلاء أكثر استئثاراً باهتمام المؤلف . وتستمع فيه إلى البلغاء

والشعراء والخطباء ، ويمر أمامك البسطاء والمغرورون والأجواد والبخلاء والمكدّون بطوائفهم وبأسماء بعضهم وحججهم وشواهدهم ، وتشاهد فيه أنواع الحيوان والطير والزواحف والحشرات وعلاقات الناس بها وعلاقاتها بالانسان • ولا يتورع الكاتب من إيرادما في ذلك من جد وهزل وحكمة وعبث وملح ونوادر بل من إسفاف وإحماض مع ما يسنح من ذكر النجوم والكواكب والشمس والقمر والأنواء والفصول والنار والنور والبرد والحرور • وكل ذلك مغلّف ببلاغة عجيبة وتصوير دقيق مرهف وظرافة متهللة وسخرية لاذعة وابتسامة ذكية هي أذكى من ابتسامة « الجوكندا » التي ابتدعتها ريشة الرسام الايطالي ليوناردو دافنشي ولم يكن بامكان الشعر أن يصنع مثل هذا ! ولهذا لا نستغرب إدراك الجاحظ لمزاياه العلمية والبيانية والنفسية والاجتماعية ، حتى إنه كان على « جماله » كالكوكب الدري طوال الأحقاب المتلاحقة • لقد وضع نفسه فوق مرتبة وزراء عصره ، وطمح ، إن صحت الرواية التي أوردناها في مستهل البحث ، أن يصل في الملاء إلى مكانة الخليفة جداً أو هزلاً • لا ضير • ذلك حظ البيان الرفيع والقلم المطيع والعلم الواسع ونور المعرفة الساطع •

* * *

□ الحواشي :

١ ـ جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٣ ـ ص ١٩٥ •

٢ ـ تاريخ بغداد ـ ج ١٢ ـ ص ٢١٩ وسير اعلام النبلاء ج ١١ ـ ص ٥٢٩ • ويعلق الذهبي على ذلك ببيت من الشعر كان قاله الجاحظ تحاملاً عليه :

سقام الحرص ليس له دواء   وداء الجهل ليس له طبيب

٣ ـ ارشاد الاديب لياقوت الحموي ، ترجمة الجاحظ •

٤ـ٥ـ المرجع السابق •

٦ ـ الكنف : الجانب ، والجؤجؤ : الصدر •

٧ ـ القرموص : العش الذي يبيض فيه الحمام •

٨ ـ الطباع : الطبع • والطباع ايضا جمع الطبع •

٩ ـ الحيوان ـ ج ٣ ـ ص ١٤٩ـ١٥١ •

١٠ـ القشرة العليا اليابسة على البيضة •

١١ـ الهوة بالفتح ، اصل معناها الكوة ، وهي الخرق في الحائط والمراد بها هنا موضع خروج الفرخ من القيض •

12— Chlamydoders Maculata.

13— Prionodura.

14— Ptilonorhynchus Violaceus.

١٥ـ الحيوان ـ ج٣ ـ ص٥١٥ اسم الطير بالحروف اللاتينية: Aegotheles .

١٦ـ المرجع نفسه ـ ص ٥١٧ـ٥١٨ •

١٧ـ الشورج : هو ملمح الدباغة الذي يطلى به العالط ولا شك أن فيه كمية صالحة من الكلس •

١٨ـ يبض' : يتمطق بشفتيه •

١٩ـ المصدر نفسه ـ ص ١٥٢ـ١٥٣ •

٢٠ـ الزيف: نشرالجناحين‌والذنب، والتشكل: الغنج‌والدلال•

٢١ـ السوف : الشم •

٢٢ـ المصدر نفسه ـ ص ١٥٧ـ١٥٨ •

٢٣ـ ج ٢ ، ص ١٤٧ـ١٤٨ •

٢٤ـ ج ١ ، ص ٣٥ـ٣٦ •

٢٥ـ ج ٣ ، ص ٣٣٩ •

٢٦ـ المصدر نفسه ، والصفحة نفسها •

٢٧ـ المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ •

٢٨ـ المصدر نفسه ، ص ٤٦٢ •

٢٩ـ ج ٢ ، ص ٢٩٥ •

٣٠ـ ج ٢ ، ص ٢٩٦ •

٣١ـ ج ٢ ، ص ٢٩٤ •

٣٢ـ ج ٢ ، ص ٢٩٧ •

٣٣ـ ج ٢ ، ص ١٩٤ •

٣٤ـ ج ٤ ، ص ٢٢ •

٣٥ـ ج ١ ، ص ٣٢ •

٣٦ـ ج ٥ ، ص ٢٨٩ •

٣٧ـ ج ٣ ، ص ٣٩٥ •

٣٨ـ ج ١ ، ص ١٩٤ •

٣٩ـ ج ٥ ، ص ١٥٠ •

٤٠ـ ج ٥ ، ص ٤٧٣ ، وانظر ايضا ج ٥ ، ص ٢٠٩ •

٤١ـ يقال في الفرنسية لبزالة الطاووس Faire la roue

42-43— Edouard Monod - Herzen : Principes de Morphologie Générale, Gauthier - Villars, Marcel Boll : Le Mystère des nombres et des Formes, Larousse.

٤٤ـ ج ٢ ، ص ٢٤٣ •

٤٥ـ ج ١ ، ص ٢٨٨ •

٤٦ـ ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ج ٥ ، ص ٤٧٢ـ٤٧٣ ، ج ١ ، ص ٢٦ •

٤٧ـ التقلع في المشي: التحدر ، وهو مستحسن• وفي الحديث في صفته (ص) « أنه كان اذا مشى تقلع » •

٤٨ـ مرآته : منظره ـ ج ٢ ، ص ٢٤٣ •

٤٩ـ أي الظـاهر •

٥٠ـ ج ٢ ، ص ٢٤٥ •

٥١ـ ج ٣ ، ص ١٤٨ •

٥٢ـ ج ٤ ، ص ٤٧ •

٥٣ـ ص ١٢٩ـ١٣٠ •

٥٤ـ ج ٢ ، ص ١٧٨ـ١٧٩ •

٥٥ـ المصدر نفسه ، ص ١٧٩ •

٥٦ـ ج ٢ ، ص ١٦٢ ، شغر : رفع رجله فبال او لم يبل • في الأصل المطبوع مستغزيا بالزاي وهو خطا من المحقق •

٥٧ـ ج ٢ ، ص ١٦٣ـ١٦٤ • في النص المطبـوع : ويتمضـع ناس ، وهو خطـا مطبعي • وقد اثبت المحقق في آخر النص : والسمان وكتب في الحاشية : كذا • ولو رجع الى الجزء الخامس من الكتاب ، ص ٤٦ اصحح الأصل كما صححناه •

٥٨ـ المصـدر نفسه •

٥٩ـ ج ٥ ، ص ٢٤٧ـ٢٤٨ •

٦٠ـ المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ •

٦١ـ ج ٢ ، ص ٢٩٠ •

٦٢ـ ج ٣ ، ص ١٣١ـ١٣٢ •

٦٣ـ ارشاد الاريب ، ج ١٦ ، ص ١٠٣ •

★ ★ ★

المرأة عند الجاحظ

بين دافعية النمو ودافعية النقص

د. صالحة سنقر*

تناول الأدباء والشعراء موضوع المرأة من وجهات نظر عديدة، فبعضهم وقف عند حب المرأة فلمح الى ذلك في نسيب قصيدته، او شبب بها، وتغزل بها، ومنهم من وصف خَلقها وخُلقها وحللوا نفسيتها وما تشعر به في صميم قلبها من العواطف والمشاعر، وآخرون نحوا منحى آخر فعرضوا نوادر وحكايات عنها، وألفوا التراجم الخاصة بها وبحثوا فيما تقوم به من أدوار اجتماعية وأدبية وسياسية وفنية ... الخ .. الى جانب من دعوا الى نصرتها وتحريرها وتعليمها وتأهيلها.

والجاحظ زعيم الأدباء الأول ورائد النقد في عصره وعالم الكلام المرموق، وشيخ المعتزلة البارز. عالج بروح الأديب والمتكلم المسائل العامة التي تمس المجتمع العربي في ذلك العصر، وكتب في المرأة وعنها موضوعات كثيرة ضمّنها كتبه ورسائله. فهل أوفاها حقها؟ وهل أراد لها أن تكون بالصورة المرموقة، وبالمستوى الذي يؤهلها لأن تكون انساناً سوياً يشارك في مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية والتربوية والفنية وسواها؟..

أو أنه قصر نظرته للمرأة على بعد واحد ومجال محدد، فلم يتجاوز آراء المحافظين التقليديين في هذه المسألة؟ وهل وراء نظرته للمرأة على نحو معين

(*) وزيرة التعليم العالي في سورية .. باحثة وكاتبة في التربية والتراث.

تكمن دافعية نقص في حياته النفسية تعود أسبابها الى الظروف الحياتية والبيئية التي عاشها ؟ أو أنه ينطلق في نظرته لها من دافعية نمو ـ على حد تعبير عالم النفس التربوي (ماسلو) ـ تعزز تكامل شخصيته وتؤكد الرعاية والحفاوة التي لقيها ؟ وما الدوافع والنوازع الكامنة وراء نظرته للمرأة على نحو معين ؟

وإذا كان علماء النفس والتربية والاجتماع قد أكدوا أهمية مرحلة الطفولة الأولى في حياة الانسان وأثرها في تكيفه الاجتماعي والسياسي والحياتي بصورة عامة ، وأن حرمان الطفل من الحاجات الأساسية له وبخاصة حرمانه من الحب والطمأنينة والتقدير واثبات الذات والانتماء الى الجماعة ، يولد لديه شعوراً بالنقص يتخذ أشكالاً تعبيرية وسلوكية متنوعة ، تتصف بالديناميكية والتعقيد بهدف تعويض النقص واثبات الوجود ، فان توفير هذه الحاجات الأساسية للطفل تضمن له ظروف الحياة السوية فينمو نفسياً واجتماعياً وانفعالياً على نحو صحيح .

وقياسا على ما سبق فان معرفة رأي الجاحظ في المرأة ونظرته إليها يقتضي منا الماماً بدقائق حياته، واحاطة بحقائق طفولته ، ومعرفة بالغة بالعوامل المختلفة التي عملت في تكوين شخصيته وتلوين حياته وتوجيه نشاطه ... فهل عاش الجاحظ طفولته كما ينبغي ؟ وهل نَعِمَ بالعطف والرعاية والحنان في كنف أسرة متماسكة تمنحه كل ما يحتاج إليه من غذاء روحي ومادي ؟.. وهل حَظِي بقبول وترحاب الرفاق والأقران من حوله ؟..

ان دراسة حياة الجاحظ الأولى تبين أنه لم يكن سعيد الحظ في مستهل حياته وطالعة أمره ، ولم ينشأ كالأطفال الآخرين ينعمون بحنان أهلهم وذويهم ، بل غلب على طفولته البؤس والضيق ..لقد فقد أباه في فجر حياته ، وحالت الأقدار بينه وبين حنان الأبوة وكفايتها، ووسعت أمه الى تموينه بقدر ما تستطيع، إلا أنها لم تكن لتعفيه من تحمل أعباء الحياة[1] مما اضطره الى بيع الخبز والسمك بسيحان إحدى جهات البصرة ،والى مزاولة أعمال أخرى بين البحريين وغيرهم من عمال البصرة وسوقتها ، وكان عليه أن يكدح في الحياة ، وأن يلتمس أسباب العيش لنفسه ولأمه ولأخته .

والى جانب الفقر عانى من ضآلة المنبت والضعة الاجتماعية ، فجده فزارة الأسود كان يعمل جمالاً لعمرو بن قلع الكناني ، مما جعل بعضهم يتردد في انتمائه العربي ، مع أنه كناني النسب، عربي الأصل والدم والمنشأ ..

وفوق هذا كله ابتلته الأقدار بالقبح ونبذ الناس له ، فقد كان قبيح الصورة، بذ الهيئة ، قصير القامة ، جاحظ العينين ... ويكفيه ألما وحسرة أن الناس أهملوا اسمه الحقيقي (عمرو) ونسوا كنيته (أبو عثمان) وأسقطوا عليه لقب الجاحظ لجحوظ عينيه أو الحدقي لنتوء حدقته .

ولم يكتف الناس بذلك بل راحوا يهجونه لقباحة شكله أو يهجون الآخرين لمشابهتهم به ، فها هو ذا أحد خصوم المعتزلة يقول فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ... ما كان إلا دون قبح الجاحظ

وها هو مخلد بن علي السلامي يهجو ابراهيم بن المدبر بقوله :

اراني الله وجهك جاحظيا ... وعينك عين بشار بن برد

ومع أن الجاحظ حاول وعلى نحو لا شعوري أن يسدل ستاراً على كل هذا وأن يتجاوز معاناته في كتاباته المتنوعة والكثيرة ، إلا أن عِظَمَ هذه المعاناة كانت تظهر بين حين وآخر وعلى صور مباشرة أو غير مباشرة .. فلم يكن بمقدوره مثلاً أن يتجاهل ردود من حوله لوقع قباحته في نفوسهم .

فالمتوكل بعد أن هم بجعله مؤدبا لولده عاد فصرف النظر عن ذلك لان الرسوم تفرض في مؤدبي أبناء الأمراء نوعاً من جمال الصورة وبراعة الهيئة وحسن التكوين[٢] .

والخليفة الذي عينه في ديوان الرسائل أعفاه بعد ثلاثة أيام فقط على تسلمه منصبه ، بسبب وشاية الخصوم ودمامة وجه الجاحظ وعبثه وهما صفتان لا تتفقان وقار الملك[٣] .

وإذا كان قبح الجاحظ قد أثر في مشاعر الرجال مما جعلهم ينكرون هذا القبح وينفرون منه ، فان وقعه كان أشد وأبين على النساء ، والجاحظ الذي

يذكر مواقف بعض النساء من دمامتـه على سبيل الدعابة والنوادر ، إلا أنها في حقيقتها تعكس شرخاً عميقاً في نفسه الحساسة ·

فها هي ذي إحداهن تشفـق على أمه لحملها به ، اثر حادثة جرت لها معه ، فتقول لرفيقتها « كانت أم هذا منه تسعة أشهر في جهد جهيد » وتلك أخرى تطلب منه مرافقتها الى صانع الحلي وينصـاع لأمرها ويتبين له أنها تريد نقش صورة الشيطان على فص الخاتم ووجدت في وجه الجاحظ خير معبر لصورة الشيطان ·

وثالثة تتهكم من قِصَره حين طلب منها أن تنزل لتشاركه الطعام « اصعد أنت حتى ترى الدنيا » ·

وحكمنا هذا جاء من خـلال كلام الجاحظ عن نفسه ، فرغم براعته في اخفاء مشاعره والتعبير عنهـا بلغـة التهكم والسخرية ، إلا أنه تجاه موقف المرأة مـن قبحه لم يتمالك ضبط نفسه من القـول صراحة : « ما أخجلني أحد إلا امرأتان » وهما السالفتا الذكر ولكن ما أثر طفولته البائسة وقبحه في شخصيـة عامـة ؟ يقـول عالم النفس ما سلو الذي وقف حياته على فهم الطبيعة الانسانية ، أن عجزه المرء عن تحقيق حاجاته الجسمية والنفسية وما يتعلق بالشعـور بالأمـن والمحبة والانتماء والتقدير ، يولد لديه دافعاً محرضاً لسلوكيات متنوعة تكـون بدائل عن الوضع العادي ، وتعويضـاً عن أوجه القصور والنقص · وتتنـوع أشكال البدائل والتعويض بحسب امكانات الشخص ···

فما أشكال البدائل وأساليب التعويض التي ظهرت عند الجاحظ ؟·· ذلك الانسان المرهف الحس ، الشديد التطلع ، الحاد الذكاء ؟··

إن الدارس لمجريات حياة الجاحظ يتبين وُلوجـه مجالات ايجابية متنوعـة بديلاً مما ينقصه وتعويضاً ، من ذلك :

ـ **التعويض في الجد والاجتهـاد :** فالجاحظ لم يترك وسيلة للعلم والمعرفة إلا طرقها ونهل منها· وقد مكنه استعداده الفطـري ومواهبـه الطبيعية ودأبـه ليصبح موسوعة علم ودائـرة معارف واسعة ، كان يرتـاد الكتاتيب والمساجـد وبخاصة مسجد البصرة الغني بمعـارف علمائه وتنوع نزعاتهـم وطبائعهـم ، ويحضر مربد البصرة الشهير بثقافته المتنوعـة من أدبية وعلمية وفلسفيـة ،

ويشارك في المنتديات والمجالس العامة وخاصة دار مويس بن عمران وغيرها من معاهد العلم ومظان المعرفـة ، ويبيت فيدكاكين الوراقين للنظر في ذخائرها ، وقد جعل من الكتاب أستاذاً يصحبه أنّى ذهبويدارسه حين يفرغ له في أي ساعة مـن ليل أو نهار « ولم يكن يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان » ٠

وقد أتت الدراسة والجد أكلهما لدى الجاحظ المتميـز بذكائـه المتوقـد ، وقريحته النقادة ، وبصيرته النافـذة ،وحافظته القويـة ، فممد الى الكتابـة والتاليف ولم يثنه عن ذلـك مرضـه ،فحيويته الكامنة كانت تثور به عليه ٠

وقد اتخذ من حياته اليومية مبـدأ لأدبه ، ومن موضوعات الحياة الاجتماعية مادة لكتاباته ، ومن الشـك والتقصي طريقـاً لمنهجـه ، بحيث ذاع صيتـه ، وانتشرت كتبه فعرفه القاصي والداني [٤] وقد ساعـده علمه الغزيـر على أن يكون صاحب نظرية فكريـة وطريقـة خاصة وأن يبدع في فنون الأدب واللغة وأن يجد حظوته عند الحكام ٠

ـ **التعويض في السلوك والأخلاق :** ظهر التعويض جلياً عند الجاحظ تجاه نقص الأبوة ، في تعلقه بأستاذه النظام الذي أغدق عليه حنان الأبـوة الكريمة التي كانت نفس الجاحظ شديدة التعطش لها ٠ وظهر التعويض بينـاً أيضاً تجاه الفقر والحرمان، فقد صرف كل ما أعطي من مخصصاته من خزينة الدولة ومـن الخلفاء ومنح الوزراء ، وقد جاء الاسراف عنده في حالة اليسر رد فعل طبيعي على الفاقة والعوز اللذين عانى منهما في مطلع حياته ٠

لقد رغب في أن يحذو سلوك الأمراء والأثرياء فاشترى الجواري اللواتي كنّ يعملن في بيوت ذوي السلطة والحكـام ،وابتاع الضياع كغيره من الموسرين وقد أوقعه اسرافه هذا في الفقر مرة أخـرى واضطره الى الاستدانة في أثناء مرضه كما ترك نفـور الآخرين منـه أثراً في نفسه وجد بديلاً وتعويضاً في التودد الى من حولـه ، والتلطـف معهم وتوطيـد الصلة بالمسؤولين ليظفـر من حبهم له وعطفهم عليه بما يعوضه عن آثار القبح والحرمـان ، وليجعلـه ذائـع الصيت والشهرة بعد أن كان خامل الذكر لا يؤبه لتاليفه ولا يقام وزن لكتبه [٥] ٠

وقد عرف الجاحظ بخفة الروح والظرف وحسن المعاشرة ولطف النكتة وشدة الحساسية بالكلمة الساخرة والمرح التواق الى الدعابة والاستطراد وساعدته روحه الشعبية على أن يكون أدبه وثيق الصلة بالحياة الشعبية ·

ـ **التعويض في الرغبة بالتفوق والاستعلاء :** فهو من أشهر علماء الكلام، وهو لسان المعتزلة والمدافع عنها وهو زعيم فرقة عُرِفت به وهو الكاتب الأول في تاريخ الأدب العربي ·· الخ ·· ولم يكفِهِ هذا كله بل أحب أن تكون الخلافة له(٦) ·

وإذا كان التعويض عند الجاحظ بهدف تجاوز الواقع المرير الذي أحاط به في البدء إلا أن كل رد فعل لا بد أن يتجاوز الوضع الطبيعي الى المغالاة والتزيد · ومع أن كثيراً من نقاد الأدب قد أبانوا عن رأيهم في أدب الجاحظ وفكره وما عالجه من موضوعات وما قدمه من اجتهادات ·· فان ما يهمنا في هذا الصدد بيان موقف الجاحظ تجاه المرأة والنوازع التي كمنت وراء هذا الموقف ودافعية النقص التي أحدثت عنده شروخاً عميقة في نفسه من المرأة · إن موقف أمه الداحض للعلم ، وموقف النساء من شكله ودمامته ترك آثاراً بينة تجلت في عزوفه عن الزواج والاكتفاء بمباشرة الجواري ، ومع أن بعضهم قد عزا رغبته في أن يكون بعيداً عن قيود الزواج ومشاغل الأولاد الى التفرغ للعلم والدراسة ، إلا أن جوانب كثيرة من سيرة حياته تكشف أنه كان يقضي في اللهو والمجون وشرب الخمر والغناء ما يأخذ نصيباً كبيراً من وقته · وقد كانت له جارية خاصة ولها جارية تخدمها ، وكان الى جانب هذه يتردد إلى منازل كثيرات من الجواري منهن سندرة وسواها ·· ونتيجة ذلك نلحظ أن كتابات الجاحظ عن المرأة قد تركزت في المرأة القينة ، والمرأة المغنية ، والمرأة الأنثى ، والمرأة الجسد.. ولا نجد أي ذكر للمرأة القريبة من أم وأخت وسواهما(٧).. فهو يقول : « رأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والمشوفة ، ولا بد من جودة القد ومن الخَرْط واعتدال المنكبين واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة ، وانما يريدون بقولهم مجدولة جودة القصب وقلة الاسترخاء وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ،

ولذلك قالوا خُمصانة وسَيفانة وكأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها قضيب خيزران ، والتثني في مشيتها أحسن مافيها ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم وهي بهذا المعنى أعرف ، ولم أرَ المجدولة تحبب إلى أصحاب السمان والضخام وإلى أصحاب المشوقات والقضاف كما تحبب تحبب هذه الأصناف إلى أصحاب المجدولات » .

لقد وقف الجاحظ عند المرأة الصورة دون الجوهر ، والشكل دون المضمون، واتبع موصوفته بشغف وراقبها بدقة ،وأعمل فيها كل طاقاته اللاحظة ، فكان بارعاً في وصفها بليغاً في تصويرها .

وقد يتناول الجاحظ المرأة من حيث الصناعة التي يراها ملائمة لها وهي الغناء فهي تصلح لها دون الرجال ، فيقول :

« كم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله ، وبين أن تسمعه من تشتهي أن تصرف وجهك عنه ، فأما الغناء المطرب في الشعر الغزِل فانما ذلك من حقوق النساء ، وإنما ينبغي أن تغني بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نُطِقت تلك الأشعار وبهن شبَّب الرجال ومن أجلهن تكلفوا القول في التشبيب» ويأتي حكم الجاحظ. هذا كونه شديد الصلة بالحياة الغنائية التي كانت تتقسمها وتعبث بها الأهواء والمنافسات والمذاهب المختلفة[٨] ولهذا لم يكتف بقصر الغناء على النساء بل بتحديد مضمون الغناء وما يقوم عليه من غزل وتشبيب دون غناء القصائد الهادفة والملتزمة .

وقد يميز الجاحظ بين النساء بحسب مراتبهن ومستوياتهن عند الرجال ، فهم يفضلون المملوكة على المهيرة ، ويؤثرون الأمَة على الحرة . يقول :

« قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الاماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات ، أن الرجل قبل أن يملك الأمَة قد تأمل كل شيء منها وعرفه فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرة انما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن جمال النساء وحاجات الرجال قليلاً ولا كثيراً، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما

الخصائص التي تقع بموافقة الرجـال ،فانها لا تعرف ذلك ، وقد تحسن المرأة ان تقول كان أنفها سيف ، وكأن عينهاعين غزال ٠٠ الخ ٠٠ » ٠

وهو في هذا كله لا يخرج في نظرته للمرأة عن كونها المرأة الشيء ، المـرأة المتعة ، دون أن يتناول بالوصف أخلاق المرأة وسلوكها وعاداتها وتربيتهـا ٠٠ الخ ٠٠ إنها نظرة قاصرة لا تعكس وراءها إلا عقلية المجتمع التقليدي الـذي وجد فيه ٠

ولا يكتفي الجاحظ بذلك بل يصف القيان في ضوء خبرته لهن ووقوفه على طبائعهن وغرائزهن ونوازعهن فيحلـل أخلاقهن وطرق معاشهن فيقول :

« إن القينة لاتكاد تخالص في عشقهاولا تناصح في وُدِها ، لأنهـا مكتسبة ومجبولة على نصب الحِبالة والشرك٠٠٠٠ فاذا شاهدها المشاهد رامتـه باللحظ وداعبته بالتبسم وغازلته في أشمار الغناء و ٠٠٠٠٠ وأظهرت الشوق الى طول مكثه والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه ، فاذا أحست بأن سحرها قـد نفذ فيه تزيدت فيما كانت قـد شرعت فيه واوهمته أن الذي بها أكثر مما بـه منها ، ثـم كاتبته تشكو إليـه هواه ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها ٠٠٠ وأنه شجنها وشجوها في فكرتها وضميرها في ليلها ونهارها ٠٠٠ وأكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة ٠٠ » إلى أن يقول : « فلو لم يكـن لابليس شرك يقتل به ولا علم يدعو إليه ولا فتنة يستهوي بها إلا القيان لكفـاه » ٠ ثـم يتابع القول : « وليس هذا بذم لهن ولكنه من فرط المدح وقد جاء في الأثر خير نسائكم السواحر الخلابات » ٠

وعجبـاً كيف أن الجاحـظ انتقى القينة موضوعاً لوصفه وقاربها من ابليس في الدهاء والمكر ثم أردف بأن هـذا من فرط المدح ولم يتناول بالبحث والدراسة المرأة الفقيهة ، العالمة ، الأديبة ، السياسية ، الحكيمة ٠٠ الخ ٠٠ خاصـة أن العصر العباسي الذي عاشه الجاحظ شهد نساء شهيرات ذكـرت الكتب والتراجـم الكثير عنهن ، وكان من الأجـدر به أن يتصدى للبحث حولهن وهو الأديب العالم النابغ القادر على تناول هـذه الجوانب بالتأليف أكثر من سواه ٠

ومع أن بعض النقاد يجدون في وصف الجاحظ القينة شاهـداً على دقـة

عيانه ، ودليلاً على عبقريته ، إلا أننا نجد فيما كتبه أنه نتيجة طبيعية لحياة الجاحظ ومعاشرته لهذا الصنف من النساء واختلافه إلى دورهن واختباره لهن على نحو مباشر مما مكنه من التصوير الحي لهن وذكر ما بلغ في بعض الفصول والرسائل حد الفحش والتزيد فيه . قاصراً اهتمامه على المرأة الشيء دون النساء الأخريات . ويبرر الجاحظ للقينة انحرافها عن جادة الصواب ملقياً بالتبعة والمسؤولية على البيئة المحيطة بها إذ يقول : « وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لغو الحديث وصنوف اللعب والأخابيث بين الخلعاء والمجّان ، ومن لا يسمع منه كلمة جدّ ، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت العفّة لم تقدر عليها » .

وقد أصاب الجاحظ حين جعل البيئة فعالة لما تريد إلا أنه تناسى دور المرأة ذاتها وقدرتها عللى تجاوز واقعها والسعي لتطويره ليرى أن التشييخ الوسيلة المجدية لتجنيب النساء اكتساب العادات السيئة .

فهل التشييخ الوسيلة الوحيدة والاسلوب التربوي الأنجع لحماية المرأة ؟ والجاحظ الذي رأى أن سبيل المرأة إلى العفة أن تؤخذ بالقراءة في المصحف حتى تصير إلى حال التشييخ والتخلق بأخلاق الشيخوخة تجاهل أهمية مراعاة قدرات المرأة واهتماماتها وميولها ، والمرحلة العمرية التي تمر بها ، والتي يمكن عن طريق التوجيه والارشاد الصحيحين أن تكون إنساناً يعطي ويشارك الرجل في بناء الحياة .

إن نظرته في تشييخ الطفولة وحرمانها من العيش السوي والطبيعي لم يخرج بها من دائرة مفهومه القاصر عن المرأة الانسان ...! وهو حين يخص النساء بقوله : « في فضل ما بين الرجال والنساء وفرق ما بين الذكور والاناث » يبين من وجهة نظره « في أي موضع يفضلن ويغلبن ، وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب ، وأي عمل هو بهن أليق ، وأي صناعة هن فيها أبلغ » .

وهو ليؤكد مكانتها يبين أثرها في نفس الرجل ، فهو عاشق لها والعشق عنده «داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروح الضعف في البطش والوهن في المرء ينهكه، وداء العشق وعمومه في جميع الأبدان بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم وصعوبة دوائه تأتي من قبل اختلاف علله وانه يتركب من وجوه شتى ، كالحمى التي تعرض مركبة من البرد والبلغم ، فالعشق يتركب من الحب والهوى والمشاكلة والالف» «وهو داء لايملك دفعه ، كما لا يستطاع دفع عوارض الأدواء إلا بالحمية ومن الأمة عشق القيان على كثرة فضائلهن وسكون النفوس إليهن ولأنهن يجمعن للانسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض »هكذا جاءت نظرة الجاحظ لتكريم المرأة في عشقها والقيان بخاصة لسكون النفوس إليهن وكنا نأمل أن تكون المقارنة بين الرجل والمرأة في هذا الكتاب شاملة ،موضوعية ، وأن يكون تكريمها لا في جعلها وسيلة وأداة ، والجاحظ أراد أن يقنعنا بأن الرجل عامل لأجل المرأة وحريص على تأمين حاجاتها وساهر على حفظها حيث يقول :

« وعامة اكتساب الرجال وانفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون إنما هو مصروف إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء ،ولو لم يكن إلا التنمص والتطيب والتطوس والتخضب والذي يعدلها من الطيب والصيغ والحلي والكساء والفرش والآنية لكان في ذلك ما كفى ،ولو لم يكن له إلا الاهتمام بحفظها وحراستها وخوف العار من جنايتها والجناية عليها لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة » .

وأن الرجل متمسك بالمرأة لا غنى له عنها حيث يقول :

« إن الرجل يستحلف بالله الذي لاشيء أعظم منه وبالمشي إلى بيت الله وبصدقة ماله وعتق رقيقه فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه ،فان استُحلِف بطلاق امرأته تربد وجهه وطار الغضب في دماغه وتمنع وعصى وغضب وأبى ، وإن كان المُحلِّف سلطاناً مهيباً ولم يكن يحبها ولا يستكثر منها وكانت نفسها قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصداق ، قليلة النشب .. ليس ذلك إلا لما عظّم الله من شأن الزوجات في صدر الأزواج » .

وهو حين يتطرق الى موضوع حجاب المرأة فانه يقصر نقاشه على نظرة السابقين للحجاب وعلى سلوك بعضهن ، دون أن يبين أثر الحجاب في نفسية المرأة وهل كان يعوق نشاطها في الحياة العامة . فهو يقول : « لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب عن أزواج النبي » « ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً في الاسلام » ، « والدليل على أن النظر الى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المنسنة تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك فلو كان حراما وهي شابة لم يُحَلّ إذا عُنِّست » ودليل آخر « أن النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاتهن فمن دونهن يطفن بالبيت مكشفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل الحج إلا به » ويقول « الدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك » .

ويبقى التساؤل قائماً : هل وفق الجاحظ بتقديم أدلة منطقية يقبلها العقل ؟ ويبقى هذا القياس الذي جاء به لبيان الحجة والدليل غير مقبول من عالم مثّل في عصره الحرية الفكرية بشتى صورها في العلم والدين والأدب وعايش المنطق الفلسفي واستنتاجاته .

ويتساءل المرء لِمَ وقع اختيار الجاحظ على نصوص تراثية تقف ضد المرأة فيوردها في كتبه دون أن يبدي رأيا فيما عرض من آراء مجحفة بحقها ، وقد عرفناه شغوفاً بتحليل القول وتقليب جوانبه لتتقبله الأذهان ونعجب لِمَ لَمْ يأت على ذكر الأحاديث الشريفة التي تنصر المرأة وتقف إلى جانبها واكتفى بذكر ما روي عن الرسول ﷺ قوله :« ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » وقوله : « قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين .. وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء » .

كما ذكر الجاحظ ما روي عن عمر بن الخطاب قوله : « أكثروا لهن من قول (لا) فان قول (نعم) يُضرّيهن على المسألة » .

كما يذكر قول بعضهم :« لاتستشيروا معلماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء » ، وقول آخر : « لا تدع أم صبيك تضربه فانه أعقل منها وإن كانت أسن منه » .

وهكذا فالمرأة عند الجاحظ ومن خلال ما اختار من نصوص تراثية لا تصلح كشريك للحياة نفيها الفتنة ومخالفة رأيها واجبة ، وتجنب الجلوس معها مأثرة وإبعاد الأطفال عن التأثر بها قيمة ؟!٠٠

ويعود الجاحظ مرة أخرى إلى المرأةليبين أنها تفضل الرجل ولكن هل وفق فيما قدمه من أدلة فضلها عليه ؟ وهل هذه الأدلة مقبولة في منطق العصر الراهن؟ تلك هي المسالة ٠

يقول الجاحظ : « إن المرأة أرفع حالاً من الرجال في أمور منها : « أنها التي تُخطب وتُراد وتُعشق وتُطلب وهي التي تُفدّى وتُحمى » ٠

فهل في هذا دليل على رفعة مكانتها؟وهل من يملك الفعل والارادة كمن يقع عليه ؟٠

ويؤكد من جديد علو مكانتها فيقول :

« إن الله خلق من المرأة ولداً من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولداً من غير أنثى، فخص بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل لمّا خلق المسيح في بطن مريم من غير ذكر » ٠

وبعد كل ما يقدمه الجاحظ يثبت ماخلص إليه السابقون عن المرأة فيقول :

« إن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر » ٠ ويدعي الجاحظ لنفسه دفاعه عن المرأة وتغيير تلك النظرة الدونية إليها فيقول : « ولسنا نقول أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكنا رأينا أناساً يزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن » ٠

ويخلص إلى القول : « ليس ينبغي لمن عظّم حقوق الآباء أن يصغّر حقوق الأمهات وكذلك الاخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى حق هذا أعظم فان هذه أرحم » ٠

لقد أقر الجاحظ في نهاية المطاف أن لكل من النساء والرجال خصائص وفروقاً تتناسب وطبيعتهم ٠

وإذا كان ابن قتيبة قد وصف الجاحظ في كتابه (تأويل مختلف الحديث) بقوله :

« الجاحظ آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة استثارة وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه » . فان ما وصل إلينا من كتابات الجاحظ في المرأة يجعلنا أقرب إلى حقيقة رأيه فيها على الرغم من أنه لم يبلغ بكتاباته إلى نتيجة حاسمة بل عبر وبتحفظ شديد وحيطة بارعة عن موقفه من المرأة .

وكنا نأمل من الجاحظ وهو المتكلم والفيلسوف والمؤرخ والعالم والانسان الذي جاب الآفاق وجنى من تنقلاته علماً غزيراً أن يبحث في المرأة وأحوالها ووجوه معاشها وأخلاقها ومجالات عطائها وتكامل دورها مع دور الرجل ، وأن يقوّم لنا ما أنتجته بعض النساء الشهيرات في ذلك العصر .

والجاحظ الذي نعلي مكانته ، فهو مظهر قوة ومبعث فخر في تاريخنا وأدبنا ، لم يتمكن من تجاوز دافعية النقص عنده تجاه المرأة تلك الدافعية التي توافقت وقيم المجتمع التقليدي الذي وجد فيه فجاءت معالم المرأة عنده على الصورة التي بيناها .

* * *

□ الحواشي :

١ ـ يقول المرتضى عن الجاحظ : « انه كان في حداثته مشتغلاً بالعلم ، وامه تمونه ، فجاءته يوما بطبق عليه كراريس فقال ما هذا ؟ قالت هذا الذي تجيء به ، فخرج مغتما ، وجلس في الجامع ومويس بن عمران جالس ، فلما رآه مغتما قال ما شانك ؟ فحدثه الحديث فادخله المنزل وقرب اليه الطعام واعطاه خمسين دينارا فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره وحمله الحمالون الى داره ، فانكرت الام ذلك ، وقالت : من اين هذا ؟ قال من الكراريس التي قدمتها الي » .

٢ ـ يقول الجاحظ : « ذُكِرْتُ لامير المؤمنين المتوكل لتاديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فامر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني » .

٣ ـ شرَطَ الحكماء في صفات الكاتب : طول القامة ، وعظم الهمة ، وخفة اللهازم ، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب وحلاوة الشمائل وملاحة الزي .

٤ ـ روى ياقوت : قيل لابي هفان : وقد طال ذكر الجاحظ له ، لِمَ لا تهجو الجاحظ ، وقد ندد بك ، واخذ بمخنقك ؟ قال : امثلي يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة في ارنبة انفي لما امست الا وهي بالصين شهرة ، ولو قلت فيه الف بيت لما طن منها بيت في الف سنة .

٥ ـ يقول الجاحظ : « كنت اؤلف الكتاب الكثير المعاني والحسن النظم وانسبه الى نفسي فلا ارى الاسماع تصغي الي ولا الارادات تيمم نحوه ثم اؤلف ما هو انقص منه رتبة واقل فائدة وانحله عبدالله بن المقفع او سهل بن هارون او غيرهما من المتقدمين ممن صارت اسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبهم ويسارعون الى نسخها لا لشيء الا لنسبتها للمتقدمين » .

٦ ـ ساله بعض اخوانه : كيف حالك يا ابا عثمان ؟ فقال مازحاً : « سالتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً ، حالي ان الوزير يتكلم برايي وينفذ امري ، ويواتر الخليفة الصلات إلي ، واكل من لحم الطير اسمنها ، والبس من الثياب الينها ، واجلس على الين الطبري ، واتكيء على هذا الريش ، ثم اصبر على هذا حتى ياتي الله بالفرج . فقال الرجل : الفرج ما انت فيه ! فقال بل احب ان تكون الخلافة لي ، ويعمل محمد بن عبدالملك بامري ويختلف الي فهذا هو الفرج » .

٧ ـ لم يعرف شيء عن اخت الجاحظ سوى ان ابنها يموت بن المزرع كان يتردد الى الجاحظ .

٨ ـ كان الجاحظ شديد العناية بكتابه (طبقات المغنين) وخشي ان يتعرض الى شيء من التحريف فكان يودع احدى النسخ عند بعض اصحابه من الثقات المستبصرين امانة في اعناقهم ونسخة باقية في ايديهم .

★ ★ ★

☐ المراجـــع :

1 — A. H. Maslow — « Some theoretical Consequences of Basic Need — Gratification » Journal of personality 16 U.S.A. 1948.

٢ ـ باول كراوس ـ محمد طه الحاجري ـ مجموع رسائل الجاحظ ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ ١٩٤٣ .

٣ ـ بيير داكو ـ الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث ـ ترجمة وجيه أسعد ـ ط ٢ ـ الشركة المتحدة للتوزيع ـ دمشق ـ ١٩٨٥ .

٤ ـ جورج غريب ـ الجاحظ . دراسة عامة ـ سلسلة الموسوعة في الادب العربي رقم (١٠) ـ لنشر وتوزيع دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ د.ت .

٥ ـ شارل بلا ـ الجاحظ والمراة ـ حوليات الجامعة التونسية ـ كلية الاداب والعلوم الانسانية ـ العدد ٢٥ ـ ١٩٨٦ .

٦ ـ صالحة سنقر ـ المناهج التربوية ـ مديرية الكتب الجامعية ـ جامعة دمشق ١٩٨٢ .

٧ ـ طاهر الكيالي ـ الجاحظ ـ المطبعة العصرية ـ دمشق ـ د.ت .

٨ ـ طه الحاجري ـ الجاحظ . حياته وآثاره ـ مكتبة الدراسات الادبية ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٩ .

★ ★ ★

الجاحظ والشاعر

شعر : سليمان العيسى

الجاحظ

« يبدو في وسط الحجرة شيخاً متهدماً مقعداً ، لا تفارقه روح البشاشة والمرح . يشير بيده الى رفوف الكتب التي تملأ الحجرة من حوله .. »

زَحَمَتْني .. فما أُطيقُ حَراكاً
في مكاني .. ولا أُسيغُ قُعُودا
أثقلَتْ كاهلَ الجدارِ ، فبيتي
يتشكَّى رُكامَها مكدودا
الرفوفُ الحُبْلَى ، وأخشى إذا ما ـ
لتْ ـ وُقيتَ الأذى ـ أكونُ الشهيدا
وَرَقٌ قِصَّتي هنا .. ومِدادٌ
وَرَقٌ يأكُلُ الحياةَ نضيدا
كُتُبي .. لو أبيعُها بنشيدٍ
قِمَّةُ الحُلْمِ أنْ تكونَ نشيدا
بحديثٍ حُلْوٍ تُقهقِهُ فيهِ
طُرْفَةٌ لا أمَلُّها ترديدا
الرفوفُ الحُبْلَى .. تجنَّبْ أذاها
والتمِسْ إن وجَدْتَ ركناً بعيدا
هذهِ حُجْرَتي .. وأهلاً وسهلاً
قَتَلَ الحرفُ عُمْرَنا تفنيدا

الشاعر :

أنا ضَيْفُ التاريخ ..

الجاحظ :

دَعْكَ من التاريخ ،

لا تَقْتَحِمْ سُكونَ الظلامِ
انا تَوْقٌ إليكُمْ وحنينْ
وانتظارٌ مُرٌّ وراءَ الرُكامِ
انا تَوْقٌ أمُدُّ طَرْفي الى الآ ـ
تي ، وحَسْبي مما أراه أمامي
إدْفنِ الشوقَ في الفَلاةِ وخُذْني
مرةً في الأثيرِ .. فوقَ الغَمامِ
أنتَ آتٍ على قوادمِ « عِفْريتٍ »
يَجُوزُ الفضاءَ كالأحلامِ
بجميعِ الذي كتَبْتُ نهارٌ
امتطي الريحَ فيه من أيامي
آهِ .. ما أرْوَعَ السحائبَ يَشمَخْنَ
ليلحَقْنَ ظِلَّكَ المتَرامي
سبَقَ الفِكرُ يا صديقي رُؤانا
طارَ خَلْفَ الظنونِ والأوهامِ
أنبؤُوني أنَّ المراكبَ في الجوِّ
تَشُقُّ السماءَ مثْلَ السهامِ
تَصِلُ الأرضَ مِثْلما تَصِلُ الهِنْدَ ـ
بينِ نجوى أو خَطْرةٌ في منامِ
أنبؤُوني أنَّ السماواتِ صارت
ـ قَدَّسَ الربُّ ـ مَوْطِيءَ الأقدامِ

واذا الكوكَبُ المنيرُ ظلامٌ
وفَراغٌ كالموتِ ، كالاعْدام
سَرقَتْ عمرَنا الأساطيرُ ما جدْ
وى قُعودي في كَهْفِها وقيامي ؟
لو تحرَّرْتُ ساعةً من قيودي
بالتحدِّي صرَخْتُ : هاكَ زِمامي !
مَرْحَبًا أيها الصديقُ .. وقلْ لي
كيفَ أنجو من هذه « الأصنامِ » ؟

الشاعر :

« في صوت هادىء واجلال »

أيُّها الكوكَبُ المُشِعُّ على أرضي ،
يُضِيءُ الأقلامَ جيلاً فجيلا
ما نزَلْتُ التاريخَ إلا لألقا ـ
كَ عِناداً يُروِّضُ المستحيلا
أنتَ بَوَّابةُ العُصورِ تحَطَّمْتَ
على العقلِ بُرْجَهُ المجهولا
عالَمٌ أنتَ من مِدادٍ وضَوْءٍ
عالَمٌ لا يموتُ ، فاهدَأْ قليلا
أنا آتٍ على قوادمِ « عِفْريتٍ »
أجُرُّ الدمارَ والتنكيلا

ليسَ لي من روائعِ العصرِ إلا
ما تَراهُ ضَراعةً وخمولا
القناديلُ في يديكَ ، فعلِّمْ
جيلَنا كيفَ يُشعِلُ القنديلا
القناديلُ نحن تَذْكارُها المُرُّ
لو أنَّ التَّذْكارَ يُجْدي فتيلا
قد حَملْتُم عِبءَ الحَضارة يوماً
وحَملْنا ضَريحَها إكليلا

الجاحظ : « يرسل زفرة عميقة »

هَدَّني الليلُ ، هَدَّني فوقَ أوراقيَ السَّهَرْ
انا جِذْعٌ مُهَشَّمٌ في فمِ الداءِ يُحْتَضَرْ
كلُّ شيءٍ الى البِلَى إنَّها دورةُ الفَلَكْ
ليتَني عدْتُ سيرَتي بائعَ الخُبْزِ والسَّمَكْ(1)

الشاعر :

مِنْ هنا يَبْدَأ السُّرَى كُلُّ صادٍ الى الشَّفَقْ
من غَيَاباتِ شارعٍ وحَوانيتَ لِلوَرَقْ

سُنَّةُ المُبْدِعينَ في كُلِّ آنٍ
وَمكانٍ ما بَدَّلَتْ تبديلا
يَنْسُجُونَ الغُبارَ تاجاً على الدهـ
ـرِ وظِلاً للقادِمين ظليلا

---

١ ـ كان الجاحظ في حداثته يبيع الخبز والسمك في البصرة ليكسب قوت يومه ويكتري دكاكين الورّاقين ليلاً ويبيت فيها للمطالعة .

سُنَّةُ المُبْدِعين.. نأخذُ ما أعْطَوْا،
ويَنْسَى المُقَلِّدون الأصيلا
نتَمَطَّى، نَشُدُّ قاماتِنا الكسْلَى
ونَبْقَى في السَّفحِ شيئاً ضئيلا
أنتَ أقوى مُهَشَّماً في فَمِ الداءِ
وأعْتَى مُهَدَّماً مشلولا

الجاحظ :

« يبتسم كأنما يريد أن يغير الحديث »

بُخَلائي في عَصرِكُم كيفَ أمسَوْا !

الشاعر :

« بعد لحظة صمت »

ضَخُموا جُثَّةً، وزادوا ثَراءً
ولَفَتْ في دمِ الملايينِ أيديهِم
فما يَحْصُدُونَ إلاّ الدماءَ[٢]
مَلَكُوا الأرْضَ غاصبينَ وكانوا
ثُلَّةً تُشْبِعُونَها استهزاءَ

الجاحظ :

مُفْزِعٌ ما تقولُ ..
كيفَ سَكَتُّم ؟

الشاعر :

ما سَكَتْنا ..

الجاحظ :

أتَرْهَبونَ اللقاءَ ؟

الشاعر :

بَعْضُنا آثَرَ السلامةَ والصمتَ ،

الجاحظ :

وبَعْضٌ ؟

الشاعر :

تكَلَّموا شُهَداءَ
الصِّراعُ العنيدُ .. في كلِّ ركْنٍ
ساحةٌ فُجِّرَتْ، وصُبْحٌ أضاءَ
عرَفَتْ لُعْبَةَ السِّلاحِ الملايينُ
وثارَتْ .. لو تَسْمَعُ الأنباءَ !

الجاحظ :

عَجَبٌ ما أرى .. تَبدَّلَتِ الدنيا ،

الشاعر :

ولَبَّى فيها سِوانا النِّداءَ

★ ★ ★

٢ ـ يتصور الشاعر بخلاء الجاحظ وقد انقلبوا الى أصحاب رؤوس الاموال الذين يستغلون البشرية ويلعبون بمصيرها في العصر الحديث .

الجاحظ تحت مجهر شفيق جبري

عبد اللطيف الأرناؤوط

يؤكد « شفيق جبري » أهمية الأساليب الحديثة في دراسة الأدب ، لأن « الاسماع قد مجت ما تردد من سنين طويلة ، وكانما القلوب قد لفظت ما تمضغ » فكان كتابه عن (الجاحظ معلم العقل والأدب*) تطلعا الى التجديد في الدراسة الأدبية والنقد وتراجم الرجال ، وكان همه تجديد النقد الأدبي الذي جمد عند أحكام القدامى الجزئية أو المجردة .

على أن « شفيق جبري » لا يقيم تجديده على ما سبق أن قدمه النقاد ودارسو الأدب من كتب ودراسات عن الجاحظ ، وإنما يؤثر أن يدرسه معتمداً على كتبه وآثاره بالذات ، محللاً نصوصه الأدبية والعلمية ، دون الاتكاء على آراء مَنْ سبقه من دارسي هذا الأديب العملاق الذي كان موسوعة علمية وأدبية ، ولا يخفى أن القدامى والمحدثين من الدارسين كانت لهم أحكام وآراء في أدب الجاحظ ، ومنهم المستشرقون من أمثال : « شارل بيللا » . غير أن « شفيق جبري » لا يستعين بهذه الآراء ، ولا ينطلق منها ، مؤثراً أن تكون ترجمته للجاحظ عملاً ذاتياً بحتاً . أما السمة الثانية في دراسة الجاحظ فتتجلى في إيثاره الاعتماد على المصادر العربية الخالصة ، فهو يستمد وقائع عصر

(*) الجاحظ معلم العقل والأدب . تأليف : شفيق جبري ، صدر في عام ١٩٣٢ م - ١٣٥١ هـ في ٢٥٢ صفحة من القطع المتوسط .

الجاحظ وخصائصه من المراجع العربية، ولا يستعين بآراء النقاد الغربيين من المستشرقين إلا في معرض تأييد بعض آرائه العامة في الفن والأدب ، حيث تتلاقى في فكره وذوقه النقدي مؤثرات الأدب والنقد الفرنسي وثقافته العربية الواسعة .

ولا يخرج منهج « جبري » في ترجمة الجاحظ عن منهجه في دراسة «المتنبي» ، وهو منهج اختطه لنفسه وتحدث عنه في كتابه « أنا والنثر » ، منهج يجمع بين الأصالة والتجديد ، ويقيم الترجمة على أصول دقيقة يلتزمها في كل ما كتب في هذا المجال .

فكيف بدت صورة الجاحظ تحت مجهر شفيق جبري ؟ وهل كانت حقا صورة صادقة لعبقرية عصية على الدراسة بسبب تعدد آفاقها واتساع ميادين الابداع لدى صاحبها ؟

في تقديري أن نجاح كتاب «جبري» عن الجاحظ يرجع الى عوامل عدة منها دقة المنهج الذي اختاره لنفسه والتزمه في تقديم صورة الجاحظ ، ويمكن أن نضيف اليها ميل « جبري » الشخصي واعجابه الشديد بالجاحظ ، ووجود سمات مشتركة بين شخصية جبري والجاحظ . وقد وجد فيه صورة نفسه ، من حيث ولع كل منهما بالعلم ، وانصراف كل منهما الى البحث والتحليل ، واعلاء شأن الملاحظة ، والميل الى النقد، والولع بالتهكم ، واحترام المنهج العلمي في كل عمل يصدر عنهما ، وهي صفات مشتركة بين الأديبين فجّرت في نفس شفيق جبري دوافع متابعة الجاحظ والاعجاب به ، فضلاً عن براعة كل منهما في تقديم فكره وعرضه بأساليب تمتاز بالقدرة على ايصال الفكرة واضحة جلية دون تعقيد أو عسر .

يشير شفيق جبري الى الدوافع التي حدت به لاختيار الجاحظ ميدانا للدراسة فيقول : انه كان يرغب بعد أن فرغ من دراسة المتنبي أن يقدم للناس دراسة عن ابن المقفع ، لأنه أول كاتب استظهر من كلامه ما يعين على تقويم البيان، وصحة التعبير ، وجودة السبك ،لكنه اكتشف أن الجاحظ «أبعد مذاهب، وأوسع آفاقاً » حتى ذهب في الولع به كل مذهب ، وقد استوقفه من كلامه ما قرأه من كتابه « الحاسد والمحسود » ففتن بهذا الفصل الفتنة كلها ، وأما الدافع

الثاني الذي دفعه الى الكتابة عنه فيتجلى في رغبته أن يدافع عن الاسلام بعد أن قرأ كتاباً عنوانه « الطريقة الأدبية للمستشرق كاراديفو » ذهب فيه الى أن الاسلام والمسلمين يرون أن البحث العلمي لا طائل فيه ، وأنه قد يؤدي الى الكفر ، فلما قرأ كتب الجاحظ العلمية أيقن بطلان هذا الزعم ، وتكشفت له أساليب الجاحظ في التحقيق العلمي واعتماده التجربة في العلم منطلقاً للحقيقة وميله إلى الاستقصاء ، وعبقرية الجاحظ ثمرة من ثمار الحضارة الاسلامية التي أفرزته ، وهذا ما يثبت بطلان تلك التهمة الشنيعة التي يلصقها ذلك المستشرق بالاسلام والمسلمين . كانت إذاً تلك دوافع « جبري » لتأليف كتابه عن الجاحظ الذي ملك عليه لبّه حتى ليقول : « لقد فرغت من قراءة هذه الآثار ، أي آثار الجاحظ ، وفي البال خاطر واحد لا أنساه ، وهو أني ما قرأت سطراً من أي كتاب من كتبه إلا استوقفتني قراءته ، وحملتني على التفكير ، فاذا أردتم أن تحيطوا بشيء من عبقريته لفتنتنا فبادروا الى كتب الجاحظ التي تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً . »(1)

وفي الفصل الذي عنوانه : « نواحي الجاحظ » يحدد جبري منهجه في رسم صورة أبي عثمان ، فيشير الى أنه سيبدأ أولاً بالحديث عن وطن الجاحظ وحنينه إليه ، ثم يتناول حياته (أهله وثقافته وأعماله ومَنْ خالط من الناس والأسفار التي قام بها) فاذا فرغ من ذلك تعرّض للكلام على ثقافته وأساتذته وأثرهم فيه ، ثم يبرهن أن الجاحظ كان ابن عصره الذي اتّسم بحرية الفكر واتساع الثقافة وتشعبها وآثارها في معتقدات الناس ، واختلاط العرب بالأعاجم ، وينفذ من ذلك كله الى تحقيق الجاحظ العلمي واعتماده التجربة والسماع ، ثم يتحرى عن دينه ومعتقده وصلته بالاعتزال ، ومدى تدينه وفهمه الدين ، ومذهبه في التفسير والتأويل ، وولعه بالتهكم وميله الى الاضحاك ، ومذهبه في النقد الأدبي ، وميله الى الأدب المجرد ، وتحرره من قيود السجع والصنعة في التعبير ، وواقعيته في رواية الأخبار وحرصه على سرد الواقعة بلغة الاعراب ، وعنايته بالمناسبة بين المعاني والألفاظ وولعه بالتنقيح دون إفراط ، لينفذ من ذلك كله الى تفكيره ، وفنه وتصويره ، ولغته التي يحرص فيها على إنزال اللفظة منازلها وحرصه على إضفاء الحسية في تعابيره .

وهذا المنهج كما يتبين لنا منهج شامل، تأثر فيه شفيق جبري بالدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة دون أن يغفل الينابيع التراثية التي استقى منها مادته ، فلنرافق جبري في رحلته مع الجاحظ في فصول كتابه الممتعة ، التي تكشف عن ثقافة واسعة وتنقيب دقيق في ثنايا الكتب ، وذكاء في اختيار مادة دراسته، وتحليلها لابراز صورة الجاحظية ناطقة •

* * *

وطن الجاحظ :

ولد الجاحظ في « البصرة » ، وهي مدينة أسسها عتبة بن غزوان معسكراً للجيش ، وسميت بالبصرة لصلابة احجارها أو لوعورة أرضها ، وذهب بعضهم إلى أنها معربة لكلمة (بس راه) الفارسية بمعنى ذات الطرق الكثيرة ، وإن كان المجمع عليه أنها تعني الشدة والصلابة في الأرض ، وكان الجاحظ شديد الحنين الى البصرة لكنه نظر إليها نظرة العالم لا الشاعر فتحدث عن ذبابها وزرعها ، وكان يدين لها بالولاء وهو الذي يقول : **اخذت بآداب وجوه أهل دعوتي، وملتي ولغتي، وجريدتي وجيرتي وهم العرب** » وفي هذا الكلام عروبية واضحة ووطنية صادقة ، وهو ينقل ما قيل عن البصرة في كتبه نقل المعجب بها ، فيثبت قول خالد بن صفوان في البصرة: «نحن أكثر الناس عاجاً وساجاً، وخزاً وديباجاً وبرذونا هملاجاً، وخريدة مغناجاً ، بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب، أوله الرطب وأوسطه العنب وآخره القصب •• »(٢) •

وفي البصرة نشأ شيوخ الأدب واللغة كالأصمعي وأبي زيد الأنصاري وخلف الأحمر ، والنضر بن شميل ، وقطرب ، وسيبويه ، والمازني والمبرد ، وابن دريد ، فمنها طلع فكر العرب ، وكان للجاحظ نصيب من هذا الفكر •

وشفيق جبري لا يفصل كثيراً في تصوير الحياة الثقافية والفكرية التي كانت في البصرة زمن الجاحظ كما فعل (شارل بيللا) في كتابه ، لأنه آثر أن يقدم مناحي تلك الحياة الفكرية في فصول كتابه عند الحديث عن جوانب حياة

الجاحظ ، وذلك الصق بأصول المنهج الذي اختاره ، وإن كانت صورة تلك الحياة جاءت مشتتة لا تنتظمها وحدة ولا تكامل ... فاذا فرغ من ذلك كله تحول الى حياة الجاحظ فيها ، ويأسف «جبري» لأن المعلومات المتوافرة عن حياة الجاحظ لا تشفي الغليل إذا قيست بما يعرفه الفرنجة عن أدبائهم . ذكروا أنه عاش نيفاً وتسعين سنة ، وروى أبو بكر في تاريخ بغداد أنه ولد سنة ٢٤٥ هـ وقيل سنة ٢٣٦ هـ ، فتاريخ ولادته مضطرب أما وفاته فكانت سنة ٢٥٥ هـ وقد شكا كبر السن في آخر عمره . أما اسمه فهو عمرو بن بحر بن محبوب كناني ليثي طيبة أو مولى ، وكان له أقارب عاشوا بعده منهم (يموت بن المزرّع ، والجاحظ ابن خال أمه) على روايته ، وكان أديباً إخبارياً له مُلح ونوادر .. أما عن خلقه فكان الجاحظ مشوّه الخلق، لُقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، وعُرف بالحدقي ، وقد اتصل بالمتوكل فلما رآه استبشع منظره ، وأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه عن بلاطه .

درس الجاحظ في صغره العلم بكتاتيب مدينة البصرة وكان يتردد إليها وهو ابن عشرين ، وروي أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان في فترة تعليمه، وقد برمت أمه بانصرافه الى العلم حتى قدمت له يوماً طبقاً فيه كراريس بدل الطعام ، فدخل الجامع مغتماً وفيه « موسى بن عمران » ، فلما وقف موسى على حاله أدخله منزله ، وقرّب اليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، واشترى له الدقيق وغيره وسيّره الى داره ، واتصل بابن الزيات فاقطعه اربعمائة جريب في الأعالي ، ذلك أن حياة الشظف لم تطل له ، فقد جمع مالاً من عماله، سأله ميمون بن هارون: ألكَ بالبصرة ضيعة ؟ فتبسّم وقال : انما أنا وجارية ، وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب « الحيوان » الى محمد بن عبدالملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب « البيان والتبيين » الى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب «الزرع والنخل» الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد وتسميد !! وكانت له مشاهرات ينالها من الخليفة فوق هذا كله .

كان الجاحظ شديد الكره للعمل في وظائف الدولة ، فقد قلّد أعمال ديوان الرسائل أيام المأمون إلا أنه استعفى فأعفي ، وقد أثر عنه شدة اعتداده بنفسه وثقته بعمله ، ومن كان هذا طبعه يصعب عليه أن يخضع لقيود العمل الوظيفي والاذعان للرؤساء ، يقول في ذلك : « وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقاربه بخدمته فان أولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق[٣] » ، وقد روى ابن عساكر عنه رواية ان صحت فانما تدل على طموحه الفائق وشعوره بأنه أعظم من وزراء الخليفة قال :

« دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا أبا عثمان ، كيف حالك ؟ فقال الجاحظ : حالي ان الوزير يتكلم برايي ، وينفذ امري، ويؤثر الخليفة الصلات الي ، وآكل من لحم الطير اسمنها ، والبس من الثياب الفرها ، واجلس على الين الطبري ، واتكيء على هذا الريش ، ثم اصبر حتى ياتي الله بالفرج ، فقال له الرجل : الفرج ما انت فيه ، قال : بل احب ان تكون الخلافة الي ، ويعمل محمد بن عبد الملك بامري ، ويختلف الي ، فهذا هو الفرج !.. »

وقد ظهرت عليه دلائل النعمة والبحبوحة في داره ، فكان يسلي نفسه بزراعة الأشجار فيها وتعليق الأبواب الثمينة .

وكان الجاحظ ملازماً محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم ، فلما مات المعتصم وقام بالأمر ولده « الواثق » ، أقر ابن الزيات في الوزارة ، فلما مات الواثق وخلفه المتوكل نقم عليه لأنه أشار بتولية ابن الواثق ، فحبسه ثم طرحه في تنور كان ابن الزيات قد أوصى بصنعه لتعذيب الناس ، وخلفه في الوزارة « أحمد بن أبي دواد » فلم ينج الجاحظ من شره لصلته بابن الزيات ، فجاء به مقيداً ، وقال له : « والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوىء ... » فقال له الجاحظ : خفض عليك ، أيّدك الله فوالله لأن يكون الأمر لك علي ، خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن من ان أحسن فتسيء ، وأن تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام منك » ، قال ابن أبي دواد : قبحك الله ، ما علمتك الا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر .. ثم أمر بحدّاد ، فقال الجاحظ ، أعز الله القاضي ليفكّ عني أو ليزيدني ؟ ، قال : بل ليفكّ عنك ، فلما جاء الحداد غمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق

الجاحظ ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة بلحظة ، فان الضرر بساقي وليس بجذع ولا ساحة ، فضحك الوزير ومن كان في المجلس . عاشر الجاحظ في حياته طائفة من أكابر القوم وصحبهم في أسفارهم ومن جملتهم الفتح بن خاقان ، وكان الفتح واسع العلم كأنه خزانة كتب ، ومدح جماعة منهم ، وكان الجاحظ واسع الأسفار ، جوّاب آفاق ، وهو يثني على السفر في كتبه ، فيرى في الضرب في مناكب الأرض « مشحذة الذهن ، مصقلة للخيال » وقد اكتسب الجاحظ من أسفاره خبرة غنية بالناس والطبيعة ، فزار انطاكية ودمشق وربما سافر الى مصر ووصف ما مرّ به من أمور في رحلاته وصف عالم لا شاعر ، فتحدث عن منارة مسجد انطاكية ووصف براغيث دمشق وعقارب مصر ، واستقر أخيراً بالبصرة في آخر أيامه ، وقد أصيب بالفالج فأرسل المتوكل في طلبه فقال للرسول : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل وعقل حائل » . وكان لمرضه أثر في انتاجه ، فهو يعتذر للقارىء في كتاب « الحيوان » ان صادف في كتابه حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، لعلته الشديدة ، وقلة الأعوان ، وطول الكتاب ، وكان موته بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ ، قيل ان مجلداته سقطت عليه وهو عليل فقتلته .

هذه لمحة عن حياة الجاحظ ذلك العبقري الموسوعي الذي نذر نفسه للعلم نحو قرن من الزمن ، وجعل طموحه فيه ، مع اعتداد بالذات وثقة بالموهبة تقربان شخصيته من شخصية المتنبي .

* * *

ثقافة الجاحظ :

امتلك الجاحظ ثقافته الموسوعية من المثابرة على حضور حلقات العلم في مجالس شيوخه في البصرة فكان منهم ابو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري . وأخذ النحو عن الأخفش ، وكلهم من أعلام الأدب واللغة ، ودرس علم الكلام على « النظام » وهو أشهر متكلمي عصره ، وكان النظام من

زعماء المعتزلة ، ويبدو لنا الجاحظ معجباً بأساتذته ، يتحدث عنهم ، وينقد أحياناً مناهجهم وعلومهم ، سأل الأخفش يوماً : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلِمَ لا تجعل كتبك مفهومة ؟

أجاب الأخفش : « أنا رجل لم أضع كتبي لله ، وليست هي من كتب الدين.. وانما كانت غايتي المنالة »[1] . وهو يقول فيهم :

« طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الأخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والانساب . فلم اظفر بما اردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن ابن وهب ومحمد بن عبدالملك الزيات » .

وكان الجاحظ معجباً بأبي اسحق بن سيار النظام حتى ليقول فيه : « الأوائل يقولون : في كل الف سنة يخرج رجل لا نظير له ، فان كان ذلك صحيحاً فهو أبو اسحق النظام » وهو يصفه بالأمانة العلمية والصدق ، ولأستاذه النظام آراء في الدين والفلسفة والعلم ، وقد انفرد عن أصحابه المعتزلة بمسائل وتبعه جماعة عرفوا بالنظامية ، منها استواء الطاعات واستواء أهلها في الثواب ، واستواء المعاصي ، واستواء أهلها في العقاب ، وكان يرى أن الأطفال يدخلون الجنة ، ويعترض على كثير من آراء المفسرين ، وكان مطبوعاً على البحث في أصل كل شيء ، ولعلّ الجاحظ قد تأثر به من هذا الجانب الذي يحكم العقل في كل مسألة .

وغير هؤلاء الأساتذة خالط الجاحظ أدباء عصره كابن الزيات والفتح بن خاقان ، وقرأ كثيراً من الكتب في الطب وعلم الكلام فضلاً عن كتب الأدب واللغة والأخبار والنوادر والغرائب وكان بعضها مترجماً ككتاب الفراسة لأقليمون ، وطباع الألبان لماسرجويه ، وكتب المنطق لأرسطو ، وكتاب أقليدس ، ونقل عن جالينوس وغيره ، مما وفّر له ثقافة موسوعية شاملة ، ولم تخل ثقافته من عناصر فارسية ويونانية وهندية ، لكنه كان يرى « أن العرب أنطق ولغتها أوسع ، وأن لفظها أدلّ ، وأن تقسيم كلامها أكثر ، والأمثال التي ضربت أسير ، والبديهة مقصورة عليها ، والارتجال والاقتضاب خاص فيها . » .

تلك هي ثقافة الجاحظ : ثقافة شاملة متنوعة تأخذ من كـل علم بطرف ، ولا تتخير أو تصطفي ، قال أبو هفان :« لم أرَ قط ولا سمعت مَنْ أحب الكتب والعلوم أكثر مِنَ الجاحظ ، فانه لم يقع بيـده كتاب إلا استوفى قراءته كائنـاً ما كان ، حتى انـه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر ·» ·

ويقول الجاحظ في وصف الكتاب «وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لناالأوائل من كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب ، وفتحنا بهـا كـل مستغلق ، فجمعنـا قليلنا إلى كثيرهم ، وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم لمـا حسن حظنا من الحكمة »(٥) ·

لكن الجاحظ لم يكن ناقل معرفـة فحسب ، فانـه من أقـدر الكتّاب على الافادة مما يقرأ ، ومن أكثرهم ربطـاً بين المعارف التي حصلها ، والأخبار التي سمعها ، فهو لم يكتف بتقديم خلاصة عن ثقافة عصره بل ألف بينهـا في نظرات تحليلية وتقويمية قد لا تكون شاملة لكنهاتكشف عن روح العالم المدقق والأديب الذوّاقة ، فمن أين استمد تلك الطاقـة الفكريـة والشجاعة الأدبية في تنـاول مسائل لم يسبقه إليها أحد أو سبقـه إليها آخرون لكنه أغناها ومنحها أبعاداً علمية جديدة ؟

* * *

عصر الجاحـظ :

إنه عصر الجاحظ ، ذلك العصر الذي يصفه هو نفسه بأنه عصـر العلـم والثقافة والحرية الفكريـة · يقـول : « ينبغي أن يكون سبيلنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكبر مما وجدنا » · ويضيف الى قوله : « وقد أمكن القول ، وصلـح الدهر ، وخوى نجم التقليد ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم · »(٦) فعصره هـو عصر الحريـة الدينيـة التي سمح بهـا المأمون ، فكان يجادل الناس في أمور الدين ويسمح لهم بالدفاع عن معتقداتهم ،

في حين كان رجال الفكر زمن المعتصم والمتوكل يتعرضون لتهمة الزندقة إذا بدر منهم ما يخالف الشرع أو العقيدة ، وكان المأمون يكره الجدل الذي يقوم على الشتم والسباب والتسفيه لأنه يكشف عن عيّ بالمجادل ولؤم ، وقد امتدت هذه الحرية إلى تناول مسائل خطيرة من الدين ، والتفسير ، حتى كان المجوس أنفسهم يمارضون علماء المسلمين دون حرج .

وكان الاعتزال الذي قام في عصر الجاحظ وليد حرية الفكر هذه ، وأدت حرية الفكر الى الاستفاضة في التطرف الديني والزندقة ، حتى وصف الجاحظ الشعوبيين بتتبع المطاعن على الدين فقال : « يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف من الاسناد من روايتنا ، والمتشابه من آي كتابنا ، ويسالون عنا عوامنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين .. » .

وقد نال الجاحظ من هذه الحرية نصيباً ، فكان يعلق على آراء المفسرين بجرأة أو يبسط حجج الفئات المتطرفة ، وكان معتزلياً في مذهبه ، يحكّم العقل في مسائل الايمان ، وينتقد تفاسير بعض المفسرين مما يتعارض والعقل والمنطق ، فليس من المستغرب أن يتهم في دينه ، وقد تكلم عن آراء الزنادقة في كتبه وبسط وجهة نظرهم بروح علمية .

وعصر الجاحظ يعد انقلاباً فكرياً في شؤون الحياة والفكر ، ولذلك لم يغفل الجاحظ عن شيء مما كان يجري في أيامه ، تراه يلمّح الى النقل والاقتباس عن الأمم الأخرى ويبيّن أثرهما في الثقافة ، ويتحدث عن عيوب الترجمة والتزيد فيها ، والشروط التي يجب أن تتوافر في المترجم ، ويقول :

وينبغي ان يكون (اي المترجم) أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء عليه ، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين علمنا انه قد أدخل الضيم عليهما ، لان كل واحدة تجذب الأخرى ، وتاخذ منها وتعترض عليها .. » .

وقد امتدت حركة الترجمة في عصره إلى التراث اليوناني الذي تغلغل في الشرق بعد فتوح الاسكندر ، وكان له أثره في الفلسفة والطب والرياضيات .. وإلى جانب ذلك العلم المنقول لم يخل عصر الجاحظ من خرافات نقلها في كتبه وفند كثيراً منها ، من ذلك الاعتقاد بأن الخنافس تجلب الرزق للانسان ، وأن

الرجل طويل الأذن يعمر طويلاً ، وأن لبس النعال السود يورث النسيان . وهي معتقدات شعبية لا تستند إلى علم، وقد شاعت في الحضر وبين الأعراب . فنقلها الجاحظ مصوراً عصره في وجهيه العلمي والخرافي أتمّ تصوير .

الجاحظ المحقق :

وفي حديث « شفيق جبري » عن نزعة الجاحظ للتحقيق ينقل رأياً للمستشرق (كارادي فو) في كتاب الحيوان ، فقد ذهب ذلك المستشرق إلى أن كتابه الحيوان لا يقوم على بحث علمي ، وإن كانت قراءته تمتع الانسان ، فيردّ جبري على هذا الرأي الذي يجرد كتب الجاحظ من قيمتها العلمية ، مستنداً إلى الشروط التي اشترطها الغربيون أنفسهم في العالم، ومنهجه وطريقته ، ويثبت أن الجاحظ جمع بين الملاحظة ودراسة الظواهر الحسية وبين التجربة ، بل كان يرى عدم الركون إلى الحواس لأنها تخدع « فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للمعقول »[٧] فكان لا يقبل الحقيقة إلا إذا ثبتت بالأدلة وخرجت بالبرهان ، وكان يميل إلى الشك وعدم التسليم شأن ديكارت ويقول: « إعرف مواضع الشك والحالات الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له »[٨] فمنهجه في البحث العلمي يُعدُّ الأساس الذي بنى عليه « باكون وديكارت » منهجهما في البحث، وكان يمزج علمه بروعة الفن ، ويطري جفاف العلم بطرائف الأدب .... وفي كتابه الحيوان أمثلة لا تُحصى من تحقيقاته العلمية وتجاربه الحياتية . فقد سبق الجاحظ علماء الغرب في الحديث عن أثر البيئة في الكائنات ، بل سبقهم في الحديث عن تنازع البقاء ومبدأ الصراع من أجل الحياة الذي يدعيه الغربيون حين يعرضون سلاسل ذلك الصراع ، ودوره في إقامة التوازن في الطبيعة . يقول :

« ومن العجيب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب ويأكله ، ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها ، وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية ، والحية تصيد العصفور فتأكله ، والعصفور يصيد الجراد فيأكله ، والجراد يلتمس فراخ الزنابير ، وكل شيء يكون أفحوصة على المستوى ، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها ، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها »[٩]

ولئن كـان الجاحظ لـم يكتشف في علم الحيـوان مكتشفـات علمية فقد لخّص معارف عصـره وبحث ونقّب معتمداً التجربة والعيان ، من ذلك أنه كان يقطع طائفة من أعضاء الحيوان ويدرس أثرها في الحياة ، ويراقب سلوكها ومن ذلـك تجربته على الأفاعي ، يقول :

« والأفاعي تكره ريح السذّاب والشيح ، وتستريح إلى نبـات الحرمل ، وأما أنا فاني ألقيت على رأسها وأنفها من السذّاب ما غمرهـا فلـم أرّ على ما قالوا دليلاً » ومن ذلك محاولته ذبح الحيوان ليفتش جوفه وقانصته ، ودفنه الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاتـه وقد لا يكتفي بالتجريب بل يتثبت مـن تجارب غيره ، وكـان يستخـدم مـواد كيماوية ليعلم مدى تأثيرها في الحيوان كاستعمال الكبريت الأصفر والقطران، وقد يجمع بين حيوانين في قارورة ليعرف سلوكهما ، وهـذه الأساليب ترفعه إلى مصـاف العلمـاء في عصرنا الذين لـم يتجاوزوا كثيراً في منهجهم العلمي الطرائق التي سلكها . أما السماع فكان يعتمده طريقاً للمعرفة ، لكنه لم يكن يقرّه قبل التثبت منه بالتجريب ، فينقل عن ابـن الكلبي وأحمد بن المتن وسواهما . وقد يسمع الخبر فيثبتـه دون رأي فيه ، أو يبدي رأيه فيه ، إذا ارتاب فيه كقوله :

« وسمعت حديثاً عن شيوخ ملاحي الموصل وأنا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم ، وزعموا أن الليث ربمـا جلّـل قَلْس السفينـة فيتشبث بهـا ليلاً ... » . وقد ينقل عن جماعة يثق بمعرفتهـم كقولـه : ودخلت أنـا مرة وحمدان الصباح على عبيد الشونيزي فاذا عنده برنية زجـاج فيها عشـرون عقرباً وعشرون فأراً فاذا هي تقتتل ، فخيل إليّ أن تلك الفئران قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع ، ورأيت العقارب قد كلّت عنها وتركتها »[١٠] .

وكان يستعين في تحقيقاته العلمية بالقياس والتعميم ، وان كانت معارفـه العلميـة مبعثـرة لا تنتظمهـا قوانين عامة ، لقلـة فرص تجـريب الظاهـرة العلمية في أكثـر من مكان ولأكثـر من مرة ، لكن أحكامه تدلّ على نفاذ عقله . واعتماده الشك قبل اليقين ، وقـد نبّه على كثير من الخرافات وغرائب الأخبار ،

ودعا إلى الحذر من الكذابين والمتزيدين كقوله : « والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته ... وهذا القول بالخرافة أشبه »[11] فكان نقده يهدف الى الوصول إلى الحقائق والحقيقة ضالة العالم . وقد يعمد الى التثبت من الحقيقة بمراقبة سلوك الحيوان الذي يدرسه ويحاول تعليل هذا السلوك بقانون عام ، كرأيه في أن الشاة تنقاد للسبع ، والدجاجة ترمي بنفسها لابن آوى بدافع الجبن وقلة الحيلة ، وكثيراً ما يستعين بحواسه للتثبت في الحقائق فيشم أو يذوق أو يعاين أو يلمس ، أو يتحقق صحة الواقعة بالتجريب على ذاته ، ويلون من المغامرة .

* * *

عقيدة الجاحظ :

ثمة صلة واضحة بين عقيدة الجاحظ المعتزلية ونزعته العقلية ، فالمعتزلة يحكمون العقل في الأمور الايمانية وبخاصة في التفسير ، ولذلك سمّاهم الفرنجة بالمفكرين الأحرار ، فقد قالوا بقدم الله تعالى ، وقالوا : ان الخالق قادر بذاته ، وعالم بذاته ، وصفاته تعالى ليست قائمة بذاتها ، ونفوا رؤية الله بالأبصار ، ونفوا التشبيه عنه من كل وجه ، مكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالا ، وتغيرا وتأثراً ، واتفقوا أن العبد قادر خالق لأفعاله مستحق عليها الثواب والعقاب ... وقد استهوى هذا المذهب الجاحظ لأنه مبني على العقل ، وتعرّض بسببه للنقد والتجريح والطعن في دينه ، فتعرّض له « البغدادي » في كتابه (الفَرْق بين الفِرق) فثلمه في دينه ، مع أنه كان يربط على الدوام عظمة مخلوقات الله بعظمة الخالق في كل مناسبة ويسبّح في عظيم صنعه كقوله عن أنثى الحمام وذكره : «**فسبحان من عرفهما وألهمهما وهداهما وجعلهما دلالة لمن استدل ، ومخبراً صادقا لمن يستخبر ، ذلكم الله رب العالمين**» [12] . فلم يكن الجاحظ مجرداً من الشعور الديني ، بل كان حريصا على الدين ، يجد أن كتاب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الأوائل .

فلا سبيل الى التشكيك بدينه ، وكانت له آراء معتزلية حتى نسبت اليه فرقة باسمه عرفت بالجاحظية . ولعلّ أكثر ما عيب عليه نقده لأراء بعض المفسرين الذين خالفوا في تفسيرهم العقل وخرجوا عن حدود اللغة ، وكشفوا عن جهلهم ، كما عاب عليهم اكتفاءهم بالتفسير دون التعليل والبرهان، من ذلك ذهاب بعضهم الى أن التين والزيتون في القرآن يقصد بهما دمشق وفلسطين ، وتفسيرهم رؤوس الشياطين بأنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، وزعمهم أن في النحل أنبياء لقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً » .

* * *

الضحك والتهكم عند الجاحظ :

يرى « شفيق جبري » أن الجاحظ من كبار الكتّاب الساخرين ويشبهه بفولتير، فهو مولع بالضحك والاضحاك، وهذا دليل على تفاؤله بالحياة ، وإن كانت الآلام في آخر عمره قد أضعفت ذلك الجانب من طبعه ، وهو يحمل قرّاءه على الضحك من وقار الفكر في كتبه بالفكاهة والسخرية ، ويُعنى بتنويع مادة الكتاب والخروج من باب إلى باب دفعاً للسأم يقول في كتابه «البخلاء»: « ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرّف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت في ضحك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد . »(١٣) . والجاحظ مطبوع على الهزل حتى ليهزل من نفسه : فهو يروي نادرة عن امرأة أرادت أن يرسم لها الصائغ صورة الشيطان ، فقادت الجاحظ إلى الصائغ وقالت له : مثل هذا !. ويتحدث عمّا أصابه من ذبان البصرة ، ويجمع نوادر المعلمين والبخلاء والحمقى، وتحضره النادرة في مواقف لا يتجرأ سواه على التندر بين يدي الأمراء وسراة القوم ، وتهكمه لاذع يدسّه دساً دون أن يظهر على بيانه ، وهو في كتابه (التربيع والتدوير) يخرج بالتهكم إلى آفاق فنية راقية ، فيتلاعب بشخصية المهجو طولاً وعرضاً وتصغيراً وكأنما يرسمه رسماً كاريكاتورياً يقول في مهجوه : وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟؟ وهل تصرف الاشارة إلا إليك ؟؟ وأي أمرك ليس بغاية ؟ وأي شيء منك ليس في النهاية ؟ وهل فيك شيء يفوق شيئاً ، أو يفوقه شيء ؟ »(١٤) .

النقد عند الجاحظ :

كان الجاحظ يحكّم عقله في نقده، ولذلك شكك في كثير من مواطن التوليد والنحل في الأدب : « لقد ولّدوا على لسان خلف الأحمر والأصمعي أرجازاً كثيرة ، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء ؟ »[14] وكان شكّه منطلقاً للتشكيك بصحة الأدب الجاهلي في عصرنا، إلا أنه كانت تنقصه الوسائل للدلالة على نسبة بعض الشعر أو الخطب ونحلها، وإنما كان يعتمد على حدسه ، دون أن يستدل على ذلك بدراسة الأساليب ،وإن كان أحياناً قد لجأ إلى هذا المنهج حين أنكر نسبه بيت « الأفوه الأودي » إليه :

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

فاستدل على أنه ليس له ، لأن (الأفوه) لم يكن يعرف أن الشهب التي يراها هي قذف ورجم ، فلا يدّعي ذلك إلا مسلم قرأ الكتاب . وهو يعني في نقده بالصنعة ، ويميل إلى استحسان اللفظ لأن المعاني في نظره مطروحة في الطريق ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته . ورأيه هذا يلتقي آراء النقاد المعاصرين في الشعر ومنهم فولتير وأناتول فرانس الذي يقول : « ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه ، وإنما هو ملك الذي يثبته في الأذهان»[16] وكان الجاحظ يستحسن وصف الذباب في شعر عنترة لجودة ألفاظه وواقعية وصفه، وإعطاء الكلمة حقها من التبيين ، لكنه كان يؤمن أن لكل عصر ألفاظه وأطواره الأدبية ، ولذلك يبدي إعجابه بالمحدثين من أمثال : بشار وأبي نواس مسايرة للتطور ، إلى جانب إعجابه بالقدامى .

* * *

مذهب الجاحظ في الأدب :

والجاحظ في نظر « شفيق جبري » من أصحاب الأدب المجرّد ، فهو يصور لنا الحقائق عارية دون تعفف أو تستر ، ويريد « جبري » بالأدب المجرد النزعة الواقعية التي تروي الحقائق مريحة دون مراعاة للأدب الاجتماعي أو الذوق العام، ولذلك نراه ينقل كلام الأعراب أو عامة الناس بنصّه ، ولا يتورع عن ذكر أمور

جنسية صريحة ، بلون من الحرية في التصوير والتعبير ، يقول في ذلك : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح ، والكناية في موضع الكناية ...»[١٧] وهذه الواقعية تعني أن لكل مقام مقالاً ...

والجاحظ يميل إلى تهذيب اللفظ وتنقيحه ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه »[١٨] . وهو يرى مشاكلة اللفظ للمعنى ، ليخرج من سماجة الاستكراه وفساد التكلف ، فكان أكبر همه انتخاب اللفظ النبيه الشريف ، واجتناب اللفظ الهجين الرديء . » وحشر في البلغاء من هيا رسم المعنى قبل أن يهيىء المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر المعنى إليه جراً » وذلك يعني أن الألفاظ يجب أن تطلب بحد ذاتها ، وإنما في إطار المعنى المراد ، فبين اللفظ والمعنى عند الجاحظ علاقة صميمية .

* * *

التفكير عند الجاحظ :

يرى « شفيق جبري » أن فكر الجاحظ يعكس ثقافته الموسوعية ، وقد نجد لديه أفكاراً تفرض التوقف عندها ، وهي خليقة بالدراسة بل يصلح بعضها من حيث شمولها وعمقها أن يكون مادة موسوعية ، مثلما يمتاز بتقليب الفكرة من جميع وجوهها فهو يطرح الشيء ونقيضه ، ويبرهن عن استقصاء كامل للموضوع الذي يعالجه ، دون إملال القارىء حتى ليدعو في بعض ما كتب الى عدم التقصير بحقوق المرأة والأمهات والأبناء ، وهي أفكار عصرية تماما . وله تحليل عميق في أسباب الصراع الانساني والعداوات بين الناس ، وللحسد وعلاجه ، وله آراء وجيهة في التربية والتعليم وردت في كتابه في المعلمين ، وله آراء في الطبيعة والعلوم ، وإن كانت آراؤه الاجتماعية أسلم وأصوب ، ولا تقل آراؤه في اللغة أهمية عن آرائه في جوانب العلم الأخرى ، حتى لتعد بعض آرائه في البيان والتبيين أساسا للدراسات اللسانية المعاصرة ، مما يدل على سعة علمه ونبوغه وقدرته الابداعية .

الفن الأدبي عند الجاحظ :

يقوم فن الجاحظ الأدبي على مبدأ لكل مقام مقال ،وقد أحب الجاحظ الحياة فصوّر جوانبها في كتبه أجلّ تصوير بلون من الواقعية ، وتعلّق بحرية التعبير وإرسال الكلام على طبيعته دون تكلف.وهو في أدبه العقلي قليل التصوير ، بعيد عن الصنعة والخيال ، وصوره القليلة يقصد منها التوضيح لا التزيين، كتشبيهه رتل الذرّ بالخيط الأسود المحدود ، أو تشبيه الموصوف بأشخاص معروفين ، فأسلوبه أقرب إلى أسلوب العلماء الذين يعتمدون العقل ويجرون وراء الفكرة ، من دون أن يبذل جهودافي ترتيب أفكاره، فهو مولع بالاستطراد، يداخل بين الموضوعات ويطلق لفكره حرية التجول دون ضابط ، ويعود ذلك إلى اتساع أفقه وغزارة معلوماته ،وهويبحث عن الحقيقة ورسم الواقع أكثر مما يبحث عن الزينة اللفظية في أسلوبه الأدبي كقوله في وصف قاضي البصرة : « لم ير الناس حاكماً قط زميتاً ، ولا ركيناً ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه وملك حركته مثل الذي ضبط وملك ، وكان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ، ولا يتكىء ، فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولايحلّ حبوته ، ولا يحلّ رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه حتىكأنه بناء مبنيأو صخرة منصوبة »[١٩]، وهذا هو التصوير الواقعي الدقيق الذيلا تزيّد فيه ، وإنما ينطق بالحقيقة ، ويختار لتجسيدها أدق الألفاظ ، فالجاحظ مصور واقعي ، يعمد أحياناً لتكرير اللفظ على سبيل التأكيد ، وقد تتموج عبارته فتنبسط وتمتد ، حتى تغيب في الذهن ، أو يقطعها تقطيعاً موسيقياً بمايحشد لها من عناصر الترادف والتوازن كقوله في وصف الكتاب :

« اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن . كما نعوذبك من العجب بما نحسن »[٢٠] وفي ذلك ضرب من الايقاع يبعث على الراحة .

* * *

تلك هي صورة الجاحظ تحت مجهر «شفيق جبري» ، وهي صورة حيّة ناطقة ، ليس فيها تزيّد ولا مبالغة ، ولا قصور في جوانبها ، ساعده على رسمها منهج سليم في الدراسة الأدبية ، وإحاطة شاملة بجوانب الموضوع ، وثقافة نقدية تراثية ومحدثة لم تتوافر لكثير من دارسي الأدب ، وفوق ذلك كله أثر ذوق «شفيق جبري» الأدبي وحسه المرهف وما يتمتع به من دقة في الملاحظة وقدرة على التحليل ، وأحسب أن صورة الجاحظ التي رسمها «شفيق جبري» ستظل هي الصورة المعتمدة في ترجمة أبي عثمان «الجاحظ» لم يضف اليها دارسوه الآخرون جديداً الا ما كان من قبيل التوسع ، وهذا يدل على إخلاص «شفيق جبري» لفنه الأدبي ، وجهده في تقديم العمل كاملاً قلّ أن تلحظ فيه مطعناً أو عيباً .

* * *

(*) شفيق جبري ١٨٩٨-١٩٨٠ ، شاعر الشام في النصف الاول من القرن العشرين .. عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعميد كلية الآداب في الجامعة السورية ..

اهتم بالدراسات اللغوية والأدبية .. وله مطبوعات عدة .. منها :

١ - الجاحظ معلم العقل والأدب .
٢ - المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس .
٣ - العناصر النفسية في سياسة العرب .
٤ - بين البحر والصحراء .
٥ - أبو الفرج الأصفهاني .
٦ - أرض السحر .
٧ - أنا والشعر .
٨ - أنا والنثر .

* * *

☐ الهوامش :

١ - الجاحظ معلم العقل والأدب - ص ٢٦ .
٢ - المرجع نفسه - ص ٣٨ .
٣ - المصدر نفسه - ص ٤٦ .
٤ - المصدر نفسه - ص ٧٠ .
٥ - المصدر نفسه - ص ٨١ .
٦ - المصدر نفسه - ص ٨٥ .
٧ - المرجع نفسه - ص ١١٦ .
٨ - المرجع نفسه - ص ١١٧ .
٩ - المرجع نفسه - ص ١٢٢ .
١٠- المرجع نفسه - ص ١٣٧ .
١١- المرجع نفسه - ص ١٤٤ .
١٢- المرجع نفسه - ص ١٧٣ .
١٣- المرجع نفسه - ص ١٨٨ .
١٤- المرجع نفسه - ص ٢٠٠ .
١٥- المرجع نفسه - ص ٢٠٣ .
١٦- المرجع نفسه - ص ٢١١ .
١٧- المرجع نفسه - ص ٢٢١ .
١٨- المرجع نفسه - ص ٢٢٤ .
١٩- المرجع نفسه - ص ٢٤١ .
٢٠- المرجع نفسه - ص ٢٤٢ .

مقومات الجمال عند الجاحظ

عزت السيد أحمد

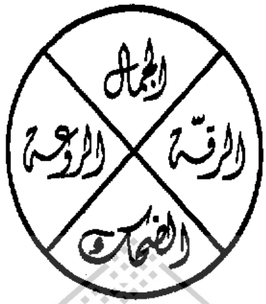
لقد بات من المسلم بـه ان « المقولات الجمالية هي القيم الاساسية التي تمثل احجار الزاوية في البناء الجمالي ، وبيـن تطور الوعي الجمالي ان تعدد وتعقد اشكال علاقة الانسان الجمالية بالعالم هما أساس غنى وكثرة الالفاظ التي تدل على المعاني الجمالية »(١).

وقد اختلف الباحثون وعلماء الجمال في تحديد المقولات الجمالية وفي تصنيفها : فقد « أكد ادموند بوركه وكانت KANT أهمية كل من مقولتي الجمال والجلال (أو الروعة) ... وقدم بعض علماء الجمال نسقاً سداسياً للمقولات يتضمن الجميل ونقيضه القبيح ،والجليل (الرائع أو السامي) ونقيضه التافه . ثم المأساوي والهزلي »(٢)وذهب شارل لالو إلى تصنيف هذه المقولات على أساس قانون التناسق العام- كما سماه ـ ورأى أنه الأكثر قرباً من متناول اليد ، والأكثر امتلاء ، فكان التصنيف التالي(٣) :

التناسق	متحققا	ملتمسا	مفقودا
في الناحية العقلية	جميل	رائع	ظريف
في الناحية الفاعلية	فخم	مؤثر	مضحك
في الناحية الانفعالية	لطيف	مفجع	تهكمي

تصنيف لالو للمقولات الجمالية

وقام أستاذنا الدكتور **عبدالكريم اليافي** باعداد تصنيف رباعي للمقولات الجمالية مقتصراً فيه على القيم الايجابية · مرتئياً أنه أبسط وأفضل من حيث إنه « يشتمل أربع قيم أصلية متقابلة مثنى مثنى تقابلاً جدلياً ، وهي الجمال والروعة والرقة والضحك ، ويفسح مجالاً لألوان كثيرة فنية أخرى دون حصر » فوضع تلك القيم في جوانب دائرة دعاها دائرة المحاسن ، كما في الشكل التالي(٤) :



تصنيف اليافي للمقولات الجمالية

ومهما يكن من أمر ، يمكننا ، باعتبار ، أن نقسم المقولات الجمالية الى قسمين رئيسين ، يضم الأول القيم الجمالية الأساسية ، بينما يشمل الثاني القيم الجمالية الفرعية أو الملحقة ، ثم تنقسم الأساسية منها ـ وتتبعها الفرعية ـ الى قيم إيجابية وأخرى سلبية ، فنجدها أمام الجمال وملحقاته ، والقبح وملحقاته · وعلى الرغم من أن هذا التصنيف يثير بعض المشكلات الا أننا سنتغاضى عنها لأنها لا تهمنا هنا · وعلى هذا الأساس سنتناول المقولات الجمالية عند أبي عثمان الجاحظ ·

مفهوم الجمال :

كثيراً ما استخدم صاحب « المحاسن والأضداد » لفظة الجمال في كتبه ، ولكنه قلما توقف عند مدلول هذه المفردة كمفهوم أو مصطلح نقدي أو قيمي ، وانما جاء في الأغلب الأعم ليدل على سمة أو حال محببة الى القلب ، قلب الحامل له

وقلب الناظر اليه • فكان الجمال بهذا المعنى كناية عن صفة من صفات الجسم الانساني ، أو دلالة على مجموعة من الصفات والخصائص الجسمية[٥] أما الجمال كمقولة جمالية أساسية فلم يتوقف عنده الا مرة واحدة ـ سنعرض لها بعد قليل[٦] جاعلاً الاعتدال فيها محور الجمال وعماده •

ان تحديد الجمال وتاطيره على نحو دقيق أو شبه دقيق ، أمر ما زلنا نقف عاجزين أمامه حتى أيامنا هذه ، وليس في ذلك عيب أبداً لأن طبيعة الجمال غير منفصلة عن الذات المتلقية ، هذه الذات التي تتباين أحوالها وتتخالف وتتضارب أهواؤها ••• وقد وقف **أبو عثمان** على هذه الحقيقة وعبّر عنها بقوله : « إن الحسن (الجمال) أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره »[٧] ذلك أنه ليس في مكنة كل الناس أن يقفوا على حقيقة الجمال والقبح ، فان « معرفة وجوه الجمال والقبح لا تتأتى إلا للثاقب النظر ، الماهر البصر ، الطب في الصناعة »[٨] وكاد **الجاحظ** أن يقود هذا المفهوم (الجمال) « نحو اكتساب مدلولاته التجريدية التي أضفاها عليه الاستعمال فيما بعد ، لا سيما في عصرنا ، بالاضافة الى مدلولاته الحسية في الأصل »[٩] وذلك فيما أراده من جواب **الرسول الكريم** عن سؤال **ابن العباس بن عبدالمطلب** : « فيم الجمال ؟ قال : في اللسان »[١٠] ولكنه لم يستطع ذلك تماماً ، ليظل في الاطار الوصفي والحسي لمفهوم الجمال •

إلا أن **الجاحظ** يقودنا أيضاً الى مسألة مهمة في تحديد طبيعة الجمال ومقوماته عندما ربطه بالعرف والعادة • عاداً الجمال ما اعتادت الناس تقبّله واستحسانه ، وتعارفت عليه جميلاً • وفي مثل ذلك يقول : « كانوا يمدحون الجهير الصوت ، ويذمون الضئيل الصوت ، ولذلك تشادقوا في الكلام ، ومدحوا سعة الفم ، وذمّوا صغر الفم »[١١] • ويستشهد لتأكيد ذلك بتعريف الجمال الذي فاه به أعرابي فقال : « قيل لأعرابي : ما الجمال ؟ قال : طول القامة ، وضخم الهامة ، ورحب الشدق ، وبُعد الصوت »[١٢] ومعروف ما كان لطول القامة وضخم الهامة من أهمية وتحبيذ واستحسان ، لما ينتظر من هاتين السمتين من شجاعة وقوة وقدرة •

عمـود الجمـال[١٣] :

يبدو من خـلال ذلك أن **الجـاحظ** قد فسح مجالاً واسعاً لدور الـذات في تحديد مقومـات الجمال ، ولذلك فـان التباين في وصف الجمال أو الاختلاف في تحديد مقوماته أمر جد وارد ، ويـوردصـاحب المحاسـن نمـاذج شتى لهـذا التباين ، وان كان البون غير شاسـع ، بل انه يؤكد في المحصلة ما سلف نعتـه ، فـان كان الأعرابي السابـق قد حـددالجمال بطول القامـة وضخم الهامـة ، ورحب الشـدق وبعـد الصوت ، فـان أعرابيا آخر جملـه في « غؤور العينـين وإشراق الحاجبين ورحب الشدقين »[١٤]. بينما ذهب **خالد بن صفوان** الى حصـره في طول القامة وبياض البشرة واسودادالشعر ، وذلك عندمـا سئل عن عمـود الجمال فقال : « الطول ولست بطويل ، ورداؤه البياض ولست بأبيض ، وبرنسه سواد الشعر وأنا أشمط »[١٥] .

وكما اختلفوا في عمود حسن الرجل أو جماله ، كذلك اختلفوا في عمود حسن المرأة ، فقد « قيـل : أحسن النسـاء الرقيقة البشرة ، النقية اللون ، يضرب لونها بالغداة إلى الحمرة وبالعشي الى الصفرة ... وقيل لأعرابي : أتحسن وصف النساء ؟ قال : نعم ، اذا عـذب ثناياها ، وسهل خداها ، ونهد ثدياها ، وفعم ساعداها ، والتف فخذاها ، وعرض وركاها ، وجدل ساقاهـا ، فتلكم هـم النفس ومناها »[١٦] .

ويـورد **الجـاحظ** أيضـا وصفـا **لخالد بن صفـوان** يذكر فيه مقومـات جمال المرأة عندما قال لدلال الجواري : « اطلب لي امرأة ... لها عقل وافر ، رخمق ظاهر ، صلة الجبين ، سهلة العرنين ، سـوداء المقلتين ، خديجـة الساقـين ، لفـاء الفخـذين ، نبيلـة المقعـد ، كريمة المحتد ، رخيمة المنطق ، لم يدخلها صلف ، ولم يشمن وجهها كلف ، ريحهـا أرج ، ووجهها بهـج ، لينة الأطـراف ، ثقيلة الأرداف ، لونها كالرق ، وثديها كالحق ، أعـلاها عسـيب ، وأسفلهـا كثيب ، لها بطن مخطف ، وخصر مرهف ، وجيد أتلع ، ولب مشبع ، تتثنى تثني الخيزران ، وتميل ميل السكران ، حسنة المآق ، في حسن البراق ، لا الطول أزرى

بهـا ولا القصـر »[١٧] • ويبـدو ان ابن صفوان قد أعجز في طلبه من حيث أراد أن تجتمع كل مقومات الجمـال في واحدة ، ولذلك رد عليه الدلال بمثل طلبه إذ قال : « استفتح أبواب الجنـان فانك سوف تراها »[١٨] •

الجمـال والحسن :

لم يميز صاحب البيان بين الجمـال والحسن أبـداً من حيث الاستخدام والدلالة ، فكان يستخدمهما للاشارة إلى المدلول ذاته ، فيقول مثلاً : « الحرة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً ، والرجال والنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهرة الصفة »[١٩] • ثم يقـول بعد صفحتين : « وقـد عرف الشاعـر وعرف الواصف أن الجاريـة الفائقة الحسن أحسن من الطبيعـة وأحسن من البقرة وكـل شيء تشبه بـه ، ولكنهم إذا أرادوا القـول شبهوهـا بأحسن ما يجدون »[٢٠] ويستشهد في المحاسـن والأضـداد بقصـة المرضعـة حـواء التي قالت لاحدى الفتيات : « إنـا كناني مادبة لقريش ، فلم تبق امـرأة لها جمال إلا ذكرت وذكـر جمالك »[٢١] • ويذكـر بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهـا قوله : « إياكـم وخضراء الدمن ، وهي المـرأة الحسناء في المنبت السوء »[٢٢] •

ولعل مرد ذلك إلى أن العرب كانت تستخدم هاتين المفردتين على هذا النحو من التداخل ، بل التساوي في الدلالـة المفهومية ، فالحسن كما يقول ابن منظور ضد القبح ونقيضه وهو نعت لما حَسُنَ[٢٣] أما الجمال فهو مصدر الجميل ، أي البهاء والحسن[٢٤] وكأنه ـ ابن منظور ـ يرى أنّ أصل هذه القيمة الجمالية هـو الحسن ، والجمـال فرع لاحـق ، فقـد عـرّف الحسن بذاتـه وعـرّف الجمال بالحسن ، والنحو ذاته نحاه ابن فـارس فقد عدّ الحسن ضد القبح ولم يزد[٢٥] ورأى أن الجيـم والميم واللام أصـلان أحدهما تجمع وعِظَمُ الخلق ، والآخر الحسن[٢٦] ولكنه خالفه بأن ذهب إلى أن الجمال كمصدر هو أصل دلالات مشتقاته اللغوية كلها ، وهذا واضـح في أصلي معنى الجذر •

إلا أنهما لم يحددا لهذا المفهوم أو المصطلح الجمالي ـ بلفظيه : الحسن والجمال ـ دلالة واضحة ، ولعل أكثر من أفاض الحديث عن هذا المفهوم وأبعاده ـ من مفكرينا ـ هو **أبو البقاء الكفوي** في معجمه الاصطلاحي « الكليات » ومما يقول فيه : « الحسن عبارة عن تناسب الأعضاء، وأكثر ما يقال في تعارف العامة في المستحسن بالبصر ؛ وأكثر ما جاء في القرآن من الحسن فهو للمستحسن من جهة البصيرة »(٢٧) .

الجمال في الاعتدال :

ولكن ، لا بد أن نتساءل هنا : ماعلّة اعتبار الشيء جميلاً ، أو لنقل : ما الذي يجعل صفة أو نعتاً أو حالاً يُتلقى على أنه جميل ؟ أهو الشيء في طبيعته ، أم الأمر في الذات المتلقية ؟

هنا ينعطف **الجاحظ** انعطافة نوعية في تحديد طبيعة الجمال بجعله العلة في الموضوع لا في الذات كما بدا منذ قليل، منطلقاً من الحديث النبوي الشريف « خير الأمور أوسطها » أساساً في تبيان العلة التي نعد الجميل بها جميلاً ، فيرى أن الجمال إنما ينبثق من الاعتدال أو التوسط بين طرفي متراجحة الزيادة والنقصان ، أو الافراط والتفريط ،فالزيادة تورث عيباً،والنقصان يُخلّف شيئا ، وفي ذلك يقول : « أما تجاوز المقدار كالزيادة في طول القامة ، أو كدقة الجسم ، أو عظم الجارحة ، أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخَلق ، فان هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان في الحسن وإن عدّت زيادة في الجسم »(٢٨) .

ولكن **أبا عثمان** لا يوقف نظريته هذه على الجسم البشري فهو يرى أن الاعتدال مطلب لازب في كل أمور الحياة وصور الطبيعة كيما توصف بالجمال، معمما بذلك حكمه على الأخلاق أيضا، فالخلق المحمود فيما يرى هو ما كان معتدلاً ومتوسطاً بين تطرفين « فالحدود حاصرة لأمور العالم ومحيطة بمقاديرها الموقفة لها ، فكل شيء خرج عن الحد في خَلق أو خُلق حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور ، فهو قبيح ومذموم »(٢٩) .

ثم يتابع صاحب التربيع والتدوير شارحاً مايريده من الاعتدال أو التوسط، ولا سيما أنّ نظرية الاعتدال في الجمال قد لا تكون مقنعة كما هي في نظرية **أرسطو** الأخلاقية . إن الجمال هنا يشبه العدل كقيمة أخلاقية لا تتوسط نقيضين، وإنما هي طرف يقابله نقيض هو الجور، فليست زيادة العدل مذمة . فهل نستطيع القول إن زيادة الجمال تدعو إلى ذمه ؟! أو كما يقول الجاحظ : « فمن كان عيب حسنه الافراط، والطعن عليه من جهة الزيادة كيف يرومه عاقل، أو ينقصه عالم ؟ »[٣٠] .

حتى لا يقع مفكرنا في هذا المطب ذهب إلى أن مراده من الاعتدال إنما هو التناسب والاتساق بين عناصر الصورة الجمالية علي حسب ما هي عليه، فيكون الجسم جميلاً إذا تحقق فيه التوازن والانسجام بين أبعاد عناصره وأحجامها بحيث « لا يفوت منها شيء شيئا ،كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير الأفطس، والأنف العظيم لصاحب العين الضيقة ،والذقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفخم لصاحب البدن المجدع النضو ،والظهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرين ، والظهر القصير لصاحب الفخذين الطويلين ، وكسعة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه »[٣١] .

ويقدم لنا نموذجاً تطبيقياً على نظريته في الاعتدال والتوسط عندما يصف لنا أكثر مايُرغب من الصفات الجمالية في المرأة ، وكلها صفات تتوسط ما بين طرفي الافراط والتفريط ، أو الزيادة والنقصان . وقد استمد هذا الحكم فيما يبدو من خبرته ومعرفته بآراء أهل عصره، فقد وجد أن « أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر ، يقدمون المرأة المجدولة . والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد فيها من جودة القد وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر . ولا بد فيها من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة . وإنما يريدون بقولهم مجدولة: جودة العصب وقلة الاسترخاء ،وأن تكون سليمة من الزوائد وكأنها قضيب خيزران، والتثني في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضخمة السمينة وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا المعنى أعرف ، وهي بهذا المعنى تحبب على السمان والضخام، وعلى الممشوقات

والقضـــاف[٣٣] ، كمـــا تحبـــب هـــذه الأصناف على المجدولات ، وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : أعلاهاقضيب وأسفلها كثيب »[٣٤] .

وحتى لا نظن أن نظريته هذه في الاعتدال والتوسط مقصورة على الجسم الانساني كما يدل على ذلك أغلب قولهوجل شواهده فقد قام بتطبيق معيـاره هذا على كثير من الأجســام والأشياء الطبيعيــة كالبنفسج والــزرع ، وعلى الأشياء الصنعية كالأبنيــة والفرش وقنوات جر المياه[٣٥] .

ولعــل **الجاحـظ** لم يركن إلىالبت في أن الجمــال محصــور في التــوازن والتناسب بين العناصـر والأجزاء ، أو كما نقول في اللغـة الاصطلاحية : لم يطمئن إلى أن الموضوع وحده هو مصدرالجمــال ، فقــد يفتقر الموضــوع إلى التوازن والتناسق ولكننا مع ذلك نراهجميلاً . فيقول : « ولربما رأيت الرجل حسناً جميلاً ، وحلواً مليحاً ، وعتيقاً رشيقاً ، وفخماً نبيلاً ،ثم لا يكون موزون الأعضاء ، ولا معدل الأجزاء،وقد تكونأيضاً الأقدار متساوية ، غـير متقاربة ولا متفاوتة .ويكون قصداً ومقداراً عدلاً ، وإن كانت دقائق خفية لا يراهـا إلا الألمعي ، ولطائف غامضة لا يعرفها إلا الذكي »[٣٦] .

ثم لا يلبث أن يعول على الذات فيإضفاء القيمة الجمالية على الموضوع ، لتبدو الذات وكأنها هي مصدر القيمــةالجمالية من حيث انقيادها لميل أو هوى ترى به المثل الجمالية متجسدة فيمنتحبأو تهوى ، ويورد لنا شواهد كثيرة مــن هذا النوع ، فيعقب على قوله السابق :« فأما الوزن المحقق،والتعديل المصحح، والتركيب الذي لا يفضحه التفرس ، ولايحصـره التمنت ، ولا يتملــل جاذبه ، ولا يطمع في التمويه ناعته ، فهو الذيخصصت به دون الأنام ، ودام لك على الأيام »[٣٧] .

ويقول أيضاً : « وأين الحسن الخالص ، والجمال الفائق ، والملح المحض ، والحلاوة التي لا تستحيل ، والتمام الذيلا يحيل ، إلا فيك أو عندك أو لــك أو معك ؟ لا بــل أين الحسن المصمت ، والجمال المفرد ، والقد العجيب ، والكمال الغريب ، والملح المنثور والفضل المشهور إلا لك وفيك »[٣٨] .

إن ترجُّح **الجاحظ** بين الاتجاهين: الذاتي والموضوعي ، في تحديد طبيعة الجمال ، غير جانح إلى أحدهما دون الآخر ، ولا باتّ في أرجحية أي منهما ، آخذاً بعين الاعتبار اختلاف أذواق الناس ، لأسباب شتى ، ودور ذلك في الأحكام الجمالية وتباينها ، حتى على الأثر الجمالي الواحد، وكذلك الشروط الموضوعية الواجب توافرها في الموضوع كيما يكون جميلاً ، يجعله رائداً أوّلَ للنظرية الجدلية في تحديد طبيعة الجمالي سابقاً بذلك تلميذه الفذ **أبا حيان التوحيدي**[٣٩] ورائد الدراسات الاجتماعية **ابن خلدون**[٤٠] هذه النظرية التي يدعي جلّ المفكرين ـ إن لم يكونوا كلهم ـ أنها لم تنشأ إلا مع مطالع القرن التاسع عشر على يدي المفكر الروسي **تشرنشفسكي** ، أو ربما في أواخر القرن الثامن عشر كارهاصات أولية على أيدي **ديدرو وهردر وشلر**[٤١] .

الشكل حامل القيمة الجمالية :

ثمة شبه إجماع بين الفلاسفة والباحثين على أن الشكل هو حامل القيمة الجمالية ، بمعنى أن خصائص الجمال ومقوماته تتموضع على صورية الموضوع ، وإن كان بعضهم يضيف المحتوى عنصراً ثانيا إلى هذا الحامل فاننا لا نميل إلى اعتبار ذلك ثنائية متفاصلة ولا متلازمة، لأن الفصل بين الشكل والمضمون ، من الناحية الجمالية على الأقل ، أمر غير مقبول ، بل يحق لنا القول إنه غير ممكن ، فالفرق واضح وكبير بين الوردة الحقيقية والبلاستيكية والمرسومة[٤٢] ولذلك فان « القوس المنحني قد يكون جميلاً بوصفه علاقة هندسية معمارية، ولكنه قبيح إذا كان شكلاً لظهر محدب ، وإذا كانت الأرزة جميلة بتناظرها فالمرعى يستمد جماله من عدم تناظره . ونسب الجسد الانساني الجميل تتغير بتغير المحتوى البيولوجي : رجل ، امرأة ، صبي ، شاب ، إلخ ... والحمرة جميلة على خدّ صبية ، ولكنها ليست كذلك على أنفها ، وهذا كله يدل على أن الصفة الجمالية ، وهي صفة للشكل لا يمكن أن تنفصل عن المحتوى الذي تعبر عنه »[٤٣] .

وقد كان **الجاحظ** سبّاقا في الوقوف على هذه المسألة وحقيقة أبعادها وقوف اللوذعي الألمعي، فبيّن أن الصفة أو الشيء إنما يستمد جماليته من مكان

تموضعه ، وكذلك القيمة الجمالية للصفة قابلة للتغير والمتفاوت تبعاً للشكل أو الموضوع الذي يحملها ، ولذلك فان تقويمنا لجمالية اللون الأزرق مثلاً تتباين بتباين حامل هذا اللون الذي قد يكون للعين أو للسماء أو للثوب أو للماء ... وكذلك شأن غيره من العناصر أو الصفات أو الأحوال ... وعلى هذا الأساس يقول أبو عثمان : « والتاج بهي" ، وهو على رأس الملك أبهى ، والياقوت كريم ، وهو على جيد المرأة الحسناء أحسن ، والشعر الفاخر حسن ، وهو في فم الأعرابي أحسن . وإن كان من قول المنشد وقريضه ، ومن نحته وتحبيره ، فقد بلغ الغاية وقام على النهاية »[٤٤] .

ثم يقدم نموذجاً تطبيقياً يجلو لنا من خلاله حقيقة ما ذهب إليه على نحو بارع رائع ، وإن كان المراد في الأصل تهكماً فان مقتضى السياق الدلالي لا يفترق في النتيجة عما عليه مدار حديثنا ، فيقول : « وما ندري في أي الحالين أنت أجمل ، وفي أي المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقناك أم إذا تأملنا بعضك : أما كفك فهي التي لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا ، وما ندري الكأس في يدك أحسن ، أم القلم ، أم السوط الذي تعلقه ، وكما أصبحنا وما ندري أي الأمور المتصلة برأسك أحسن ، وأيها أجمل وأشكل : اللمة ، أم خط اللحية ، أم الاكليل . أم العصابة ، أم التاج ، أم العمامة ، أم القناع ، أم القلنسوة .

وأما فوك فهو الذي لا ندري أي الذي تتفوه به أحسن ، وأي الذي يبدو منه أجمل ؛ الحديث أم الشعر ، أم الاحتجاج أم الأمر والنهي ، أم التعليم أو الوصف ؛ وعلى أننا ما ندري أي السنتك أبلغ ؟ وأي بيانك أشفى : أقلمك ، أم خطك ، أم لفظك ، أم إشارتك ، أم عقدك ؟ وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد ، وأنت في ذلك فوقهم ؟ » .

وقد علمنا أن القمر هو الذي يضرب به الأمثال ويشبه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلاً نضواً ، ويظهر معوجاً شختاً[٤٥] وأنت أبداً قمر" بدر" ، وبحر غمر"[٤٦] .

القيم الجمالية :

ظل الجمال والحسن عند **الجاحظ** القيمة الجمالية المحورية التي تستمد القيم الجمالية الايجابية قيمتها أو درجتها منها ، ولكنه لم يتوقف عندها ، كما لم يقتصر عليها لدى إطلاقه الأحكام الجمالية على مختلف الموضوعات الحسية والعقلية . ولا نبالغ إذا قلنا إنه استخدم في كتبه كل مفردات اللغة العربية الدالة على قيم جمالية ، والتي نعدها مصطلحات أو مفاهيم جمالية في علم الجمال . كالرفعة والسمو والزهو ، والعظمة ، والسناء والنقاء والبهاء ، والكمال والتمام ، والملاحة والحلاوة والطلاوة ، والصباحة والوضاءة ، والظرف واللطف ، والفتنة والسحر ، والرقة والأناقة والرشاقة ، والعذوبة والفخامة والوسامة ، والبلاغة والجودة ، وغيرها مما تزخر به لغتنا العربية من مفردات يمكن اتخاذها معياراً للأحكام الجمالية .

إن المشكلة التي تعترضنا هنا أن صاحبنا لم يتوقف البتة عند واحدة من هذه المفردات ليبين مرتبتها أو درجتها في سلم القيم الجمالية ، وإن كان ذلك فبالعرض أو ما يشبه الاشارة التلميحية التي نستدل من خلالها أو هذه القيمة تسمو على الجمال مكانة أو تدنو ، هذا على الرغم من أن كثيراً من المفكرين واللغويين ــ وكلهم تقريباً من اللاحقين عليه قد أناطوا هذه المفردات وغيرها بمزيد عنايتهم ولا سيما من حيث الاختصاص ، أو ما تخص به القيمة الجمالية من أشياء كان يقال : « كمال الحسن في الشعر ، والصباحة في الوجه ، والوضاءة في البشرة ، والجمال في الأنف ، والملاحة في الفم ، والحلاوة في العينين ، والظرف في اللسان ، والرشاقة في القد ، واللباقة في الشمائل ... »(٤٧) .

بل إن **الجاحظ** كثيراً ماكان يستخدم هذه المفردات بشكل متداخل متشابك . فيستخدم أكثر من مفردة للدلالة على الشيء ذاته في أكثر من مكان ، إلا أنه في الأغلب الأعم كان يشير إلى أن القيم الجمالية الايجابية مرغوبة ، مطلوبة ، محبوبة . ونقائضها مذمومة ، مستقبحة . وربما علل للقارىء لماذا يُحبُّ ما يُحبُّ ولماذا يُكره ما يُكره . ويقول على سبيل المثال : « وهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة ، والتحبير والبلاغة ، والتخلص والرشاقة ، فانهم كانوا يكرهون السلاطة

والهذر والتكلف والاسهاب والاكثار،لما في ذلك من التزيد والمباهاة، واتباع الهوى والمنافسة في العلو والقدر • وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة ، لأن ذلك يدعو إلى السلاطة ، والسلاطة تدعو إلى البذاء ، وكل مراء في الأرض فانما هو نتاج الفضول ، ومن حصل كلامه وميزه ، وحاسب نفسه ، وخاف الاثم والذم، أشفق من الضراوة وسوء العادة،وخاف ثمرة العجب، وهجنة القبح»[٤٨]•

ومهما يكن من أمر ففي مكنتنا الوقوف عند بعض هذه القيم الجمالية محاولين الكشف عن دلالاتها بحسب الرؤية الجاحظية ، رابطين إيّاها بمرادفاتها الممكنة •

١ ـ الجودة :

لم تات هذه القيمة الجمالية عند صاحب التربيع والتدوير إلا مضافة إلى ما بعدها ، وما أكثر ما أضيفت إليه من مصادر فنذكر جودة الابتداء وجودة القطع ، وجودة الحذف ، وجودة الاختصار ، وجودة الكلام، وجودة الرأي،وجودة المثل ، وجودة الشعر ، وجودة اللهجة ،وجودة السبك ، وجودة الاقناع ، وجودة التثقيف ••• مما يدل على أن الجودة قيمة جمالية غير مخصوصة بمنعوت أو أو أكثر ، وإنما « هي صفة تعلو مرتبة الحسن في قاموس الجاحظ ، أو ترادفها مع امتياز لها قليل جداً »[٤٩] بل إن أباعثمان قد أضفى على هذه الصفة قيمة عملية أخرى غير جمالية هي المهارة الطبيعية والمكتسبة ، والذي يؤكد ذلك هو إضافة هذه القيمة إلى خصائص تمتاز بها بعض الحيوانات كالكلاب التي خصها بجودة الثقافة[٥٠] وجودة الشم »[٥١] •

والحق أننا لم نعثر لدى الجاحظ على أي شروح أو تعليقات أو شروط أو صفات لضروب الجودة هذه، فلم نعرف عن جودة الاختصار إلا أنها أجمع للمعاني[٥٢] وإن كان قد أبان مراده من الايجاز بقوله : « هو حذف الفضول والغريب البعيد »[٥٣] ولعله لذلك أراد بجودة الاختصار تكثيف المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة •

أما جودة الامتاع[٥٤] وجودة التثقيف[٥٥] وجودة الحذف[٥٦] وجودة الكلام[٥٧] وجودة اللسان[٥٨] وجودة اللفظ[٥٩] وجودة اللهجة[٦٠] وجودة

المثل(٦١) فقد جاءت ــ وجل ما خلاها ــ مجردة عن أي اضافة تقودنا الى فهم المقصود منها بالتحديد سوى أنها احدى مراتب الجمال في المخصوص بالجودة ، ولعلها ترتبط بمهارة ما ضرورية لتحقيقها، وإن كان في مكنتنا الكشف عنها في بعض الأحيان من خلال الاشارات أو الشروحات المشفوعة بالمنعوت أو المخصوص بالجودة ــ فعل قبل قليل ــ ولكن ذلك أمر يطول بنا ويكفينا منه نموذج واحد ٠

أما جودة الشعر فعلى الرغم من أنه وقف عند جودة أشعار البعض غير مرّة إلا أنه لم يعرض لبسط مراده من جودة الشعر إلا مرة واحدة فقال : « وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً جيداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان »(٦٢) ٠

٢ ــ الحلاوة :

لم يكشف الجاحظ عن دقيق مراده من هذه اللفظة في كل استخداماته لها ، ولكنها على العموم كانت ترد لديه في إطار أحد معان ثلاثة ، أولها ملازم للكلام مفرداً ومركباً ، وثانيها كسمة للطبع ، وثالثها لجمال الوجه ٠

فمن الناحية الأولى كان « يسوقها في مجال الثناء على جمالية اللفظ حيناً ، ويطلقها في صدد إطراء المعنى (احيانا) ، والحلاوة ترادف الطلاوة ، والرشاقة ، والسهولة ، والعذوبة ، كما ترادف الجزالة والفخامة ، ولئن لم تمكننا النصوص من معرفة مدلول الحلاوة بالنسبة الى المعنى فان اللفظ الموصوف بها هو ، على الأرجح ، الذي لا يعسر على اللسان أن يخرجه ، والذي تستسيغه الأذن ويطيب فيها وقعه ، لخلوه مما يشوب فصاحة حروفه ومقاطعه ، وكما اتفق علماء البلاغة بعد الجاحظ ، على أن جمالية اللفظ لا تكون في نطاق الرقة والليونة فحسب ؛ بل هي أيضاً على نطاق الجزالة والفخامة أيضاً ، وذلك استناداً الى مبدأ التآلف بين حروف الألفاظ ومعانيها »(٦٣) ولم يفت الجاحظ ، على أسبقيته الزمانية على علماء البلاغة العرب ، أن يشير الى الى هذا المبدأ إشارة، وإن كانت مبتسرة مختصرة فانها شافية وافية ، فيقول :

« ان البيان يحتاج الى تمييز وسياسة ، والى ترتيب ورياضة ، والى تمام الآلة، وإحكام الصنعة ، والى سهولة المخرج ، وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، واقامة الوزن ، وان حاجة المنطق الى الطلاوة والحلاوة كحاجته الى الجلالة والفخامة ، وان ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب، وتنثني اليه الأعناق، وتزين به المعاني »[٦٤] ويقول ـ بهذا المعنى أيضاً ـ في أسيد بن عمرو بن تميم : « كان ناسباً راوية شاعراً ، وكان أحلى الناس لساناً ، وأحسنهم منطقاً »[٦٥] .

ومن الناحية الثانية كان الجاحظ يلجأ الى هذه اللفظة لوسم الأدباء والمفكرين بشيء محبب الى القلوب ، مرغوب ، كالظرافة واللطف وعذوبة الطبع ، ومما يقول في ذلك : « كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة »[٦٦] .

وقد استخدم الحلاوة أيضاً نعتاً جمالياً ، وخصّ بها جمال الوجه فقال : « وعنده جارية يقال لها شادن موصوفة بجودة ضرب العود ، وشجو صوت ، وحسن خلق ، وظرف مجلس ، وحلاوة وجه »[٦٧] .

٣ ـ الرقة :

اتجه الجاحظ بمعنى الرقة ، من حيث استخدامه ، اتجاهين متباينين في طبيعة المدلول ، فذهب في الأول نحو المنحى الحسي ، للدلالة على جمال المرأة شكلاً . على أن هذا الجمال الموسوم بالرقة ظرفي يتجلى في أوقات معينة حدّها صاحب المحاسن بقوله : « المرأة الحسناء أرق ما تكون محاسن صبيحة عرسها ، وأيام نفاسها ، وفي البطن الثاني من حملها »[٦٨] وفي اطار المنحى ذاته خصّ الرقة بالبشرة ولكنه ربطها بنقاء اللون الذي يتغير بين الغداة والعشي وكأنه يعقد صلة بين رقة البشرة وإسباغ هذا الضرب من الجمال تبعاً لظرفي اليوم، فيقول : « وأحسن النساء الرقيقة البشرة ، النقية اللون ، يضرب لونها بالغداة الى الحمرة ، وبالعشي الى الصفرة »[٦٩] .

ان الرقة بالمعنيين كليهما ضرب خاص من الجمال المرتهن بظروف خاصة ، ولذلك نستطيع القول : ان الرقة في المفهوم الجاحظي جمال نوعي لا تتحلى به المرأة دائماً ، وانما في ظروف زمانية أو فزيولوجية معينة .

أما المنحى الثاني فقد ذهب فيه الجاحظ صوب الكلام كفن ، ويبدو مما ذكر الرقة فيه من كلام أنه يقصد منها الكلام المهفهف اللطيف الرشيق الأخذ بعضه بركاب بعض ، السهل على الأذن القريب من القلب ، يقول : « حدثني من سمع أعرابيا مدح رجلاً برقة اللسان فقال : كان والله لسانه أرق من ورقة، والين من سرقة»[٧٠] ويورد حديثا دار بين معاوية والأحنف بن قيس يقول فيه معاوية بعدما سمع اعتذار الأحنف عن الجلوس في حضرته : « لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام »[٧١] .

وبهذا المعنى أيضاً استخدم الرقة للدلالة على ما يشبه الكلام المتسم بالرقة في المجلس من رقة مماثلة فيقول: « فأما أبو بشر فانه صحيح الكلام رقيق المجلس »[٧٢] .

٤ ـ الروعة :

ثمة شبه اجماع بين منظري الفكر الجمالي على أن الرائع من الجمال هو الخارق ، غير العادي ولا المألوف ، والرائع في اللغة العربية هو الذي يثير الروع أو الخوف ، ولذلك لا عجب في أن يدل بالرائع على الجمال الأخاذ الذي يتجاوز ما ألفته إدراكاتنا ، وعندما استخدم الجاحظ هذه المفردة لم يبتعد كثيراً عن مدلولها الاصطلاحي هذا فقال في الرائع من الكلام : « قال يونس بن حبيب : ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ »[٧٣] وقال في جمال امرأة : « فأتى من بغداد بجارية رائعة ، فائقة الغناء »[٧٤] .

٥ ـ الظرف :

كثيراً ما ترددت لفظة الظرف في كتابات الجاحظ . وفي كل ما عثرنا عليه من استخدامات هذه المفردة لم يحد أبو عثمان عن الاشارة بها الى درجة من درجات الجمال التي تبزه بكثير . وينحصر هذا الجمال الموصوف بالجمال المرئي ، ولعله أكثر ما يتجلى في الوجه ، فيقول : « قال الحكم بن صخر : رأيت بأقرة امرأتين لم أر كجمالهما وظرفهما وثيابهما »[٧٥] ويصف جارية بقوله : « فسفرت عن

وجهها فاذا هي أجمل الناس وأكملهم ظرفاً »[٧٦] . ويورد قولاً للمازني بهذا المعنى أيضاً جاء فيه « ابتاع فتى صلف بـذاخ جارية حسناء بديعة ظريفة ... »[٧٧]

وليس الظرف وقفاً على النساء فالرجال أيضاً يوسمون بالظرف وفي ذلك يقول : « غير أن خالداً كان قد جمع ، مع بلاغة اللسان ، العلم والحلاوة والظرف »[٧٨] بل لعل الأجدر بحمل صفة الظرف هم الرجال لا النساء ، والذي يقودنا الى هذا المنحى من الفهم قصة خالد بن صفوان مع احدى النساء التي وصفته بالجمال فأنكر عليها ذلك وطلب اليها أن تنعته بالملاحة والظرف ، يقول الجاحظ : « وكان خالد جميلاً ولم يكن بالطويل ، فقالت له امرأة : انك جميل يا أبا صفوان ، فقال : وكيف تقولين هذا وما فيّ عمود الجمال ولا برنسه ، ... ولكن قولي انك لمليح ظريف »[٧٩] ويقول أبو عثمان أيضاً في وصف أبي الأسود الدؤلي : « كان خطيباً عالماً ، وكان قد جمع شدة العقل ، وصواب الرأي ، وجودة اللسان ، وقول الشعر ، والظرف »[٨٠] .

وربما حمل الظرف على ضرب من الكلام يتسم بعدة سمات لعل أهمها التماسك والانسيابية بعيداً عن عيوب النطق وعثرات اللسان ، وفي هذا يقول: « دخل معبد بن طوق العنبري على بعض الأمراء فتكلم وهو قائم فأحسن ، قال : فلما جلس تلهيع في كلامه ، فقال له : ما أظرفك قائماً وأموقك قاعداً »[٨١] .

أما الظرافة « فهي حال الأديب المتمتع بروح النكتة والدعابة، والظريف صفة يطلقها الجاحظ على هذا النوع من الأدباء ، والمستظرف من الكتاب هو الذي يتكلف التملح والدعابة »[٨٢] وفي مثل هذا يقول أبو عثمان واصفاً أحدهم: « وعلى وجهه الاستظراف والتظرف »[٨٣] ويقول أيضاً : « كان ابن صديقة خطيباً ناسباً ويشوبه ببعض الظرف والهزل »[٨٤] ويتضح هذا المعنى أكثر في كتاب الحيوان حيث يقول : « أما عيسى بن مروان فانه كان شديد التغزل والتصندل حتى شرب لذلك النبيذ وتظرف بتقطيع ثيابه »[٨٥] .

٦ ـ الملاحة :

وردت قيمة الملاحة في أدب الجاحظ ضمن أكثر من سياق لغوي وحملت أكثر من معنى ، فدلّ بها تارة على الكلام الحسن الذي يلقى تقبلاً من السامع لعظم قدره وجلالته ، وفي ذلك يقول :فتأمل هذا الكلام فانك ستجده مليحا مقبولاً ، وعظيم القدر جليلاً »[٨٦]واستخدمها تارة ثانية لوسم جمال الرجل ، وهذا ما كان في قصة خالد بن صفوان السالفة ، ويتضح ذلك أيضا في قوله : « واشتراها في ذلك المحل غلام أملح منها ... »[٨٧] ونعت الصوت الجميل بها تارة ثالثة فقال في وصف فضل الشاعرة : « وكانت من أحسن الناس ضربا بالعود ، وأملحهم صوتا ،وأجودهم شعراً »[٨٨] .

أما المُلْحة وجمعها مُلَح فهي النادرة الطريفة التي تمتع السامع أو القارىء وتثير ـ في الأغلب ـ ضحكه ،وكثيراً ما ذكرها أبو عثمان بهذا المعنى ولا سيما في مطلع الأحاديث الطريفة[٨٩]وفي الشاهد التالي يستخدم المُلح والملاحة ، الأولى تشير الى الحادثة برمتها على أنها نادرة طريفة ، والثانية لوصف جمال الرجل ، يقول : « ورووا في الملح أن فتى قال لجارية له أو لصديقة له : ليس في الأرض أحسن مني ولا أملح مني ، فصار عندها كذلك ، فبينا هو عندها على هذه الصفة اذ قرع عليها الباب انسان يريده ، فاطلعت عليه من خرق الباب ، فرأت أحسن الناس وأملحهم . فلما عاد صاحبها الى المنزل قالت له : أو أخبرتني أنك أملح الخلق وأحسنهم ؟ قال : بلى ! وكذلك أنا . فقالت : فقد أرادك اليوم فلان ، ورأيته من خرق الباب ، فرأيته أحسن منك وأملح ! قال : لعمري انه حسن مليح ... »[٩٠] .

مفهوم القبح :

صحيح انه ليس ثمة اتفاق أو إجماع على تصنيف المقولات والقيم الجمالية تصنيفاً محدداً واحداً ، إلا أن علماء الجمال لم يختلفوا البتة في أن القبح والجمال قيمتان متناقضتان تدور حول كلّ منهما طائفة من المقولات الفرعية المنبثقة منها باعتبارها قيمة أساسية أومحورية ، ولم يفترق الجاحظ عن علماء

الجمال من هذه الناحية اذ بين أن الحسن (الجمال) والقبح قيمتان تختصان بالموضوعات الجمالية ، ولكنهما تقفان على طرفي التناقض ، ويبدو ذلك جلياً من سياق الشاهد التالي الذي جاء فيه ببعض النقائض كالغضب والرضا للحالة الانفعالية ، والحلال والحرام من الناحية الشرعية ، والقبح والحسن للمسائل الجمالية ، وفي ذلك يقول : « فليس الالا أو نعم ، الا أن قولهم لا موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم موصول منهم بالرضا ، وقد عزلت الحرية جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن »[٩١] .

ولكن المشكلة التي تعترضنا هنا تتمثل بضبابية حقيقة العلاقة بين القبح والجمال ، هذه المشكلة التي لم يبتّها الى الآن ، والتي يمكن ايجازها في السؤال التالي : هل القبح احدى درجات سلم قيم الجمال ؟ وبمعنى آخر نستطيع القول : أيعد القبح جمالاً ، ولكنه جمال جد وضيع دنيء لافتقاره الى كثير من مقومات الجمال كالتناسب والتناسق والتناظر ... أم أن للقبح مقولاته الخاصة ، كما أن للجمال مقوماته الخاصة ، وبالتالي فللقبح سلمه الخاص المستقل عن سلم الجمال ؟

يسوق صاحب الحيوان شاهداً نكاد نذهب من خلاله الى أنه يرى في القبح درجة من درجات الجمال المتدنية جداً . فيقول : « ولما هجا أبو الطروق الضبي امرأته ، وكان اسمها شعفر ، بالقبح والشناعة فقال :[٩٢]

جاموسةٌ وفيلةٌ وخنزرْ   وكلهنّ في الجمال شعفرْ

ولكنه ذهب في البيان والتبيين الى ما يخالف ذلك تماماً ، فقد بين أن القبح قيمة جمالية محورية مستقلة تقف في الطرف المقابل لقيمة الجمال ، وكما أن للجمال مقوماته وخصائصه وشروطه فكذلك شأن القبح ، فان كانت قيمة الجمال وما انفرع عنها من مقولات ، تمثل المحبوب والممدوح والمطلوب ، فان القبح هو المكروه والمذموم والمرفوض ، ولذلك يقول : « وأعيب عندهم من دقة الصوت ، وضيق مخرجه ، وضعف قوته ، أن يعتري الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق »[٩٣] .

وكما أن لقيمة الجمال مقولاتهاالفرعية الخاصة فكذلك شأن القبح ، ولكن مفكرنا وان استخدم هذه المقولات في أكثر من مكان فانه لم يتوقف عندها كما توقف عند بعض مقولات الجمال ،فقد استخدم الهجنة ، والخطل ، والابتذال ، والسخف ، والساقط، والحوشي ، والدميم، والشنيع، ٠٠٠دون أية اشارة الى مراده أو مقصوده منها ، لنتقل دون أن يبسط معاني هذه المقولات، وسنقف فيما يلي عند مقولتي الخطل والسخف كنموذج للمقولات الفرعية للقبح ٠

١ ـ الخطل :

اذا ما تذكرنا اعتبار الجاحظ حقيقة الجمال متمثلة في الاعتدال استطعنا القول ان الخطل عند الجاحظ يعادل القبح تماما ، كما أن الحسن يعادل الجمال ، والذي يقودنا الى هذا الفهم هو تحديد أبي عثمان للخطل بأنه انحراف عن الاعتدال أو تجاوزه ماله من مقدار فيقول : «وانما وقع النهي عن كل شيء جاوز المقدار ، ووقع اسم العي على كل شيء قصّر عن المقدار، فالعي مذموم ، والخطل مذموم »(٩٤) ويشرح هذا الكلام قاصراً الخطل فيه على الكلام ، فيقول : للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، ومافضل عن قدر الاحتمال ، ودعا الى الاستثقال والملال ، فذلك الفاضل هو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الاسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه »(٩٥) ٠

وبهذا المعنى الأخير نجد أن الخطل هو ما زاد عن الكلام من غير ما فائدة ، هذراً وإسهاباً، يقول بالمعنى ذاته أيضاً:فأما ما ذكرتم من الاسهاب والتكلف ، والخطل والتزيد ، فانما يخرج إلى الاسهاب المتكلف ، وإلى الخطل المتزيد ، فأما أرباب الكلام ، ورؤساء أهل البيان، والمطبوعون المعاودون ، وأصحاب التحصيل والمحاسبة، والتوقي والشفقة، والذين يتكلمون في صلاح ذات البين ، وفي إطفاء فائرة أو حمالة ، أو على منبر جماعة ، فكيف يكون كلام هؤلاء ، يدعون إلى السلاطة والمراء ، وإلى الهذر والبذاء، وإلى النفج والرياء»(٩٦) ٠

٢ ـ السخف :

يبدو من السياقات الكثيرة التي أورد الجاحظ فيها مقولة السخف أنه يخصصها لوصف ضرب من الكلام ، له مجموعة من الخصائص البنيوية أو المعنوية ، تتناقض على عمومها مع الفخامة والجزالة والفرادة والأصالة ، ولعلنا ، من بعض ما أورده الجاحظ ، كما يرى الدكتور ميشال عاصي « نستطيع الاستنتاج بأن مدلول السخف يتحدد من حيث المعنى بالموضوع الذي يجانب الأفكار السامية والأغراض الجليلة ، بحيث يعلق بالتوافه، ويغوص في الابتذال ، أما من حيث المبنى فان السخف يقع على حوشي اللفظ والساقط منه ، الذي فقد حصانته الأدبية ، لينتشر على ألسنة الرعاع ، وفي مجالس عامة الناس وسوقتهم »[٩٧] . وهذا ما يتضح لنا من قوله : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ؛ فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال»[٩٨] .

وربما كان السخف مطلوباً لتادية وظيفة جمالية محددة » ولذلك يقول أبو عثمان : « إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني »[٩٩] بل إنه في موضعه لائق مناسب ولا يليق غيره إن حل مكانه وإن كان جزلاً فخماً، ومن ثم لا يجوز استبداله بغرض الامتاع أو الفائدة لأن الجديد سيغدو نشازاً يكرب ولا يمتع ، يقول : « وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله ٍ ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الاعراب ، انقلب عن وجهته ، وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها ، ويأخذ بأكظامها »[١٠٠] .

هذه بعض اهم تجليات مفكرنا المبدع ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في فلسفة الجمال ، وقد بدا لنا جلياً كيف انه لم يقلّ البتة فيما طرقه هنا على الاقل عن علماء الجمال المعاصرين ، والحق اننا انما تعرضنا الجانب واحد من جوانب فلسفته الجمالية ، فثمة مسائل اخرى كثيرة تستحق وقفة مطولة، وبحثا مسهبا ، وما قدمناه لا يفيه حقه على هذا الصعيد ولا يكفي لابراز مكانته واهميته فنامل ان تتاح لنا العودة اليه في مرة قادمة.

□ هوامش البحث :

١ ـ د. نايف بلوز : علم الجمال ـ منشورات جامعة دمشق ـ المطبعة التعاونية ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٨٣ ـ ص ٩١ ٠

٢ ـ م.س ـ ص ٩٤/٩٥ ٠

٣ ـ شارل لالو : مبادىء علم الجمال ـ ترجمة خليل شطا ـ داردمشق للطباعة والنشر ـ دمشق ـ ١٩٨٢ ـ ص٦٦ ٠

٤ ـ د. عبدالكريم اليافي : دراسات فنية في الأدب العربي ـ د.ن ـ د.م ـ ١٩٧٢ ـ ص ٤٢ ٠

٥ ـ الجاحظ : البيان والتبيين ـ تحقيق فوزي خليل عطوي ـ الشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت ـ ١٩٦٨ ـ ج١ ـ ص ٧٩/١٠٤ ٠

٦ ـ انظر الحسن والقبح : فقرة تالية ٠

٧ ـ الجاحظ : القيان « آثار الجاحظ » ـ تحقيق عمر أبو النصر ـ مطبعة النجوى ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ٨١ ٠

٨ ـ م.س ـ ص ٨٠ ٠

٩ ـ ميشال عاصي : مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ـ ١٩٨١ ـ ص ١٧٥ ٠

١٠ـ البيان والتبيين ـ ج ١ ـ ص ١٠٢ ٠

١١ـ م.س ـ ج ١ ـ ص ٧٨/٧٩ ٠

١٢ـ م.س ـ ج ١ ـ ص ٧٩ ٠

١٣ـ عمود الجمال : قوامه الذي لا يستقيم الا به « لسان العرب » ٠

١٤ـ البيان والتبيين ـ ج ١ ـ ص ٧٩ ٠

١٥ـ م.س ـ ج ١ ـ ص ١٨٠ ٠

١٦ـ الجاحظ : المحاسن والأضداد ـ تحقيق فوزي عطوي ـ دار صعب ـ بيروت ـ ١٩٦٩ م ـ ص ١٢٤ ٠

١٧ـ م.س ـ ص ١٣٠ ٠

١٨ـ م.س ـ ذاتـه ٠

١٩ـ الجاحظ : النساء « آثار الجاحظ » ص ١١٠ ٠

٢٠ـ م.س ـ ص ١١٢ ٠

٢١ـ م.س ـ ص ١٢٩ ٠

٢٢ـ ابن منظور : لسان العرب ـ مادة حسن ٠

٢٣ـ م.س ـ مادة جمـل ٠

٢٤ـ ابن فارس : خصائص اللغة ـ مادة حسن ٠

٢٥ـ م.س ـ مادة جمـل ٠

٢٦ـ أبو البقاء الكفوي : الكليات ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨١ ـ ج ٢ ـ ص ٢٥٦ ٠

٢٧ـ القيـان « آثار الجاحظ » ص ٨١ ٠

٢٨ـ م.س ـ ص ٨٢ ٠

٢٩ـ

٣٠ـ الجاحظ : التربيع والتدوير ـ تحقيق فوزي عطوي ـ الشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت ـ د.ت ـ ص ٩٢ ٠

٣١ـ القيـان « آثار الجاحظ » ـ ص ٨٢ ٠

٣٢ـ يقال : انخرط جسمه اي دق ، وخرطت الحديد خرطا اي طولته كالعمود ؛ وحسن الخرط ان يكون الجسم طويلا من غير ما شطط ، دليقا دونما هزال ٠

٣٣ـ القضاف : القضافة : قلة اللحم ، والقضف : الدقة ، والقضيف الدقيق العظم ، القليل اللحم ٠ والجمع قضفاء وقضاف ، وقد قضف يقضف قضافة وقضفا فهو قضيف اي نحيف ٠

٣٤ـ النساء « آثار الجاحظ » ـ ص ١١١/١١٢ ٠

٣٥ـ القيـان « آثار الجاحظ » ـ ص ٨٢ ٠

٣٦ـ التربيع والتدوير ـ ص ٥٨ ٠

٣٧ـ م.س ـ ذاتـه ٠

٣٨ـ م.س ـ ص ٥٧/٥٨ ٠

٣٩ـ عزت السيد أحمد : التوحيدي مؤسسا لعلم الجمـال العربي ـ ضمن مجلة المعرفة ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ العدد ٣٣٤ ـ تموز ـ ١٩٩١ ـ ص ٧٦/٧٧ ٠

٤٠ـ عزت السيد أحمد : فلسفة الفن والجمال عند ابن خلدون ـ دار طلاس ـ دمشق ـ ١٩٩٣ ـ ص٩٨/٩٩ ٠

٤١ـ عزت السيد أحمـد : طبيعـة الجمـال ـ ضمن مجلة المعرفة ـ العدد ٣٥٧ ـ حزيران ـ ١٩٩٣ ـ ص ٣٩ ٠

٤٢ـ عزت السيد أحمد : مدخل معلوماتي الى علم الجمال ـ مجلة معلومات ـ دمشق ـ العدد ٩ ـ ص ٣٤ ٠

٤٣ـ بلوز : علم الجمال ـ ص ٦٤ ٠

٤٤ـ التربيـع والتـدوير ـ ص ٦٣ ٠

٤٥ـ الشخت : الدقيق مـن الأصل ، وقيـل هو الدقيق من كل شيء ٠

٤٦- م.س - ص ٦٣/٦٤ .

٤٧- الكفوي : الكليات - ج ٢ - ص ٢٥٦ .

٤٨- البيان والتبيين - ج ١ - ص ١١١ .

٤٩- مفاهيم الجمالية - ص ١٠١ .

٥٠- الثقافة من ثقف ككرم ، صار حاذقا خفيفا فطنا .

٥١- الجاحظ : الحيوان - تحقيق عبدالسلام هارون - دار الجيل - بيروت - ١٩٨٨ - ج ١ - ص ٢٢٣ .

٥٢- البيان والتبيين - ج ١ - ص ٧١ .

٥٣- م.س - ج ١ - ص ٦٧ .

٥٤- الحيوان - ج ٧ - ص ١١٣ .

٥٥- التربيع والتدوير - ص ٥١ .

٥٦- البيان والتبيين - ج ١ - ص ١٠٤ .

٥٧- م.س - ج ١ - ص ٤٥ .

٥٨- م.س - ج ١ - ص ١٨٥ .

٥٩- م.س - ج ١ - ص ٦٠ .

٦٠- م.س - ج ١ - ص ٦٣ .

٦١- م.س - ج ٢ - ص ٢٠٠ .

٦٢- م.س - ج ١ - ص ٤٩/٥٠ .

٦٣- مفاهيم الجمالية ... - ص ١٠٥ .

٦٤- البيان والتبيين - ج ١ - ص ٢٣ .

٦٥- م.س - ج ١ - ص ١٦٩ .

٦٦- م.س - ج ١ - ص ٧١ .

٦٧- المحاسن والاضداد - ص ١١٧ .

٦٨- م.س - ج ١ - ص ١٢٤ .

٦٩- م.س - ذاته .

٧٠- البيان والتبيين - ج ١ - ص ١٠٢ .

٧١- م.س - ج ١ - ص ٤٣ .

٧٢- م.س - ج ١ - ص ١٩٣ .

٧٣- م.س - ج ٢ - ص ٢٢٢ .

٧٤- المحاسن والاضداد - ص ٢٢٩ .

٧٥- م.س - ج ١ - ص ١٢٣ .

٧٦- م.س - ذاته .

٧٧- الحيوان - ج ٥ - ص ٢٦٠ .

٧٨- البيان والتبيين - ج ١ - ص ١٩٩ .

٧٩- م.س - ج ١ - ص ١٨١ .

٨٠- م.س - ج ١ - ص ١٧٢ .

٨١- م.س - ج ١ - ص ١٨٣/١٨٤ .

٨٢- مفاهيم الجمالية ... - ص ١٠٢ .

٨٣- البيان والتبيين - ج ١ - ص ٦٤ .

٨٤- م.س - ج ١ - ص ١٨١ .

٨٥- الحيوان - ج ٦ - ص ٢٦٣ .

٨٦- البيان والتبيين - ج ١ - ص ١٧٩ .

٨٧- الحيوان - ج ٦ - ص ٢٦٢ .

٨٨- المحاسن والاضداد - ص ١١٥ .

٨٩- انظر مثلا : الحيوان - ج ٦ - ص ٢٥٩ ، وكذلك : البيان والتبيين - ج ١ - ص ٦٢/١١٤ .

٩٠- الحيوان - ج ٦ - ص ٢٥٩/٢٦٠ .

٩١- الحيوان - ج ٧ - ص ٨ .

٩٢- م.س - ج ٧ - ص ١٧٢ .

٩٣- البيان والتبيين - ج ١ - ص ٨٤ .

٩٤- م.س - ج ١ - ص ١١٦ .

٩٥- م.س - ج ١ - ص ٦٨ .

٩٦- م.س - ج ١ - ص ١١٥/١١٦ .

٩٧- مفاهيم الجمالية - ص ١٠٨ .

٩٨- الحيوان - ج ٣ - ص ٣٩ .

٩٩- البيان والتبيين - ج ١ - ص ٩١ .

١٠٠- الحيوان - ج ٣ - ص ٣٩ .

أسلوب الجاحظ

د. سمر روحي الفيصل

● مدخل :

لم يكن تدوين النصوص الادبية شائعاً في العصر الجاهلي ، وان كانت الكتابة معروفة مستعملة • وقد أثر ذلك في أسلوب هذه النصوص، وفي طبيعة تلقيها• ذلك أن الادباء اضطروا الى تاليف نصوص تتسم بسمتين أسلوبيتين رئيستين ، هما : الايجاز والموسيقى ، وهاتان السمتان واضحتان في أسلوب الاجناس الادبية التي عرفها الادب في العصر الجاهلي وهي : الشعر والخطابة والامثال وسجع الكهان • كما انهما تلائمان « الذاكرة » ،وتساعدانها على حفظ النصوص واستعادتها • ومن ثم كان هناك ضعف في التدوين ، قاد الى تقوية الذاكرة لئلا تضيع النصوص بعد ابداعها •

كما كان هناك تلاؤم أسلوبي مع هذه الحال ، تجلّى في الاعتماد على سمات تلائم الذاكرة وتساعدها على الاحتفاظ بالنصوص • فالايجاز سمة واضحة في الشعر والنثر في العصر الجاهلي ، رسّخها الاعتماد على الذاكرة التي تجافي الاطالة ، وعدّها العرب أساساً من أسس البلاغة • ولا شك في أن الموسيقى تُمين الذاكرة على حفظ القول الأدبي الموجز • ولهذا السبب اهتم بها الشعراء ، وراحوا يعتمدون اعتماداً رئيسياً على البحور الشعرية التي توفّر هذه الموسيقى ، في حين اعتمد النثر على الموسيقى النابعة من السجع غالباً• وكان الأدباء العرب يملكون خصائص أسلوبية أخرى ، توفّر لهم شيئاً

من الموسيقى ، كانتقاء الألفاظ ، والعناية بالتراكيب القصيرة ، إضافة إلى التوازن والترادف والتنميق .

وإذا قصرنا الحديث على النثر وحده لاحظنا أن سمتي الايجاز والموسيقى انتقلنا إلى أدب صدر الاسلام ، لأن التدوين لم يختلف في صدر الاسلام عمّا كان عليه في العصر الجاهلي . يستثنى من ذلك تدوين القرآن الكريم ، وهو التدوين الذي حفظ هذا النص العظيم من التحريف ، وجعله مثلاً أعلى للبلاغة العربية . أما الحديث الشريف الذي استندت بلاغة النبي محمد (ﷺ) فيه إلى الايجاز نفسه ، فقد تأخر تدوينه ، وكان هذا التأخر سبباً من أسباب نشوء علم الحديث . وتهمني الاشارة إلى أن النثر في صدر الاسلام استمر في الاعتماد على الذاكرة وما يتصل بها من إيجاز ، حتى إنه يصعب العثور على نصب نثري طويل منسوب إلى تلك المرحلة . أما الموسيقى فقد ضعف أمرها رويداً رويداً ، لأن النثر مال إلى التخلي عن السجع وتنميق الكلام ، وشرع يصبح مرسلاً . وما إن بدأ التدوين يفشو في العصر الأموي حتى أصبح استعمال النثر المسجوع غير مستحب . وما رسائل عبد الحميد الكاتب التي ضاع أكثرها ، وحفظ القلقشندي في «صبح الأعشى » قليلاً منها ، إلا نموذج لما أقول . فقد دبّ الخلاف حول أسلوب رسائله نتيجة استعماله السجع والتوازن والازدواج ، في حين تخلّص معاصره عبدالله بن المقفّع من ذلك ، وراح يستعمل الأسلوب المرسل الذي لا يتقيد بازدواج وسجع وترادف . وكان الأسلوب المسجوع الذي اختفى بعد ظهور الاسلام ، عاد ثانية في إهاب عبد الحميد الكاتب ، وأصبح النثر الفني العربي يملك نوعين من الأسلوب : نوعاً مرسلاً ونوعاً مسجوعاً ، ويتقدم ابتداءً من العصر العباسي ممثّلين لهما ، وصراعاً بينهما.

المؤثرات العامة والخاصة :

تشير كتب التراجم إلى أمرين أثرا في موهبة الجاحظ الكتابية . أولهما عقله الناضج ، وذكاؤه اللمّاح ، وحافظته العجيبة ، وفضوله العلمي ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها ليقرأ محتوياتها . وثانيهما طبيعة العصر العباسي التي سمحت بالحرية الفكرية ، ونمو الشعوبية ، وتعدّد

الفرق والمذاهب الكلاميـة ، والاتصال بالثقافات الأخرى · أي أن الجاحظ كان يملك استعداداً شخصياً فطرياً لمهنـة الكتابة ، ويعيش في بيئة تسمح بالتعبير والاختلاف في الرأي ، إضافة إلى أنـه نما وتبلورت موهبته في منـاخ اتضحت فيه الهوية الحضارية العربية · وترجمة حياة الجاحظ تشير أيضاً إلى أنـه كان يعتز بعروبته وانتسابه إلى « كنانة » وتلقّيـه الفصـاحة في « المِربَـد » ، وانصرافه إلى استيعاب المعارف والعلوم ، وإيمانه بالعقل ·

ولا شك في أن الاشارات التي قدّمتها ترجمة حياة الجاحظ لا تخـرج عن المؤثرات العامة في أسلوبه · وقد كرّرت كتب التراجم والأدب هذه الاشارات، واحتفت بها ، ولكنها لم تنطلق منها إلى السؤال عن المؤثرات الخاصة التي كان لها تأثير مباشر في أسلوبه الكتابي خصوصاً ، وتنظيره للكتابة عموماً · وإنني ميّال إلى أن آثار الجاحظ تدل على هذه المؤثرات دلالة غير مباشرة، لأنها موصولة الأسباب باعجابه بأسلوب القرآن والحديث الشريف ، ورغبتـه في التعبـير عما يعتمل في عصره بأسلوب يلائم القارىء، ويصلح لأداء المعارف العلمية والأدبية أداءً دقيقاً ·

والظن بان الجاحظ قرأ القـرآن ، ووعى بيانه ، وتاثر بما في اسلوبه من : دقة واحكام ، وجزالة ، وروعة انتقال ، وجمال تمثيل ، وعناية بالتكرار اللفظي · كما قرأ الاحاديث النبوية ، ووعى بلاغتهـا ، وتاثر بما في اسلوبها من : بساطة وايجاز وتلميـح وملاءمة بين الالفاظ وحال المخاطبين · وقد قاده هذا التاثر باسلوب القـرآن والحديث النبوي الى الايمان بثلاثة أسس للبلاغة ، هي: مطابقة العبارة لمقتضى الحال ، والبيان او وضوح الدلالة ، والايجاز وعدم التكلف(١)· او قل انه قـرر هذه الأسـس في « البيـان والتبيين » ، وسعى الى ترسيخها ، تبعـا لتاثره باسلوب القرآن والحديث الشريف الذي يجعل لكل مقام مقالاً ، ويطالب المتكلم بمعرفة اقـدار المعاني والموازنة بينها وبين اقدار المستمعين ، ويعد البيان اسماً جامعاً لكـل شيء كشف للقارىء قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع الى حقيقته، ويهجم على محصوله ·

والثابت أن الجاحظ قـرأ ما كتبه سهل بن هارون وعبد الحميـد الكاتب وعبدالله بن المقفـع ، وكان ميـالاً ، نتيجة تأثره بالبيـان القرآني وبلاغـة الحديث النبوي ، إلى الأسلوب المرسل ، وأكثر إعجاباً بسهـل بن هارون وابن المقفع لأنهما يستعملان هذا الأسلوب ، حتى إن تجاربه الأولى في الكتابة ، وهي

تجارب لم تلق صدى محببا لدى القراء و لارواجا لديهم ، قادته إلى أن ينسب رسائله إلى واحدٍ منهما ، أو من أمثالهما من الكُتّاب المشهورين في عصره ، ليضمن إقبال الناس عليها • وهو آنذاك في بدايات حياته الأدبية ، واثق من نفسه ، مؤمن بأن ما كتبه ونحله المشهورين من الكُتّاب أكثر جودة ودقة من كتابات هؤلاء المشهورين • وقد صرح بذلك في رسالته «فصل ما بين العداوة والحسد» قائلا : « وإني ربما ألّفت الكتاب المحكم المتقن ، في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته • وربما ألّفت الكتاب ، هو دونه في معانيه ولفظه ، فأترجمه باسم غيري ، وأحيله على مَنْ تقدّمني عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتّابي ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلّفي الكتب ، فيأتيني أولئك بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ • »

أخلص من الحديث عن المؤثرات العامة والخاصة إلى أن أسلوب الجاحظ ليس ابتداعاً ، بل هو حصيلة ما استقر عليه الأسلوب العربي في عصر الجاحظ، وما أضافه هو نفسه إلى هذا الأسلوب استناداً إلى موهبته وثقافته الموسوعية وتفاعله مع عصره •

سمات أسلوب الجاحظ :

١ ـ هناك مَنْ يعتقد بأن للجاحظ أسلوبين : أسلوباً مرسلاً ليس فيه شيء من التوازن والترادف ، كما هي حال أسلوبه في « الحيوان » و « البيان والتبيين » • وأسلوبا مترسّلاً أدبيّا ، فيه شيء من التوازن والترادف والازدواج ، كما هي حال أسلوبه في «البخلاء» و «رسالة التربيع والتدوير» التي سخر فيها من أحمد بن عبدالوهاب، و « رسالة الشكر »[٢] التي مدح بها وزير المتوكل ، و « رسالة وصف قريش» و « رسالة وصف الكتاب » • • • والظن بأن المرونة ـ وهي أكثر سمات أسلوب الجاحظ بروزا ـ أوحت بهذا التباين بين

الأسلوبين ، لأنها لوّنت أسلوب الجاحظ، فبدا أدبيًا حينا ، وعلميا أحيانا. فاذا سخر من أحمد بن عبد الوهاب بدا أسلوبه وصفيا قادرا على تقديم صورة تضم نواحي ضعف أحمد وتناقضه وجهله وحمقه وسوء أخلاقه • وإذا تحدّث عن الحيوان بدا أسلوبه مرسلاً قادراً على تقديم النظريات العلمية كالتأقلم والتطور ، والمعارف العلمية الخاصة بالطب وأمراض الحيوان • وهذه المرونة في الانتقال من موضوع إلى أخرلا تخرج عن القدرة على التصرف باللغة العربية ، وهي قدرة تنم على رصيده اللغوي ، أي أنها مرونة لغوية اتسم بها أسلوبه ، بحيث بدا متكثّرا وهو واحد •

٢ ـ اقترنت المرونة بسمة أخرى ، هي الملاءمة بين الألفاظ والمعاني ، أو بين المقال والمقام • فالجاحظ هو القائل في كتاب « الحيوان »(٣) : « لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل » • وقد قادته هذه السمة الى نوع من الواقعية ، فعدّ الأدب صورة من الواقع ، ولا بد له من أن يعبّر عن هذا الواقع وان اضطر الى استعمال بعض الألفاظ العامية والأعجمية ، كما فعل الجاحظ في كتاب « البخلاء » • بل ان رأيه في رواية النوادر بالطريقة اللغوية التي قيلت فيها خضع لتفسيرات متناقضة ، ذهب بعضها الى أنه سمح باستعمال العامية ، وذهب بعض آخر الى أنه قصر هذا السماح على رواية النوادر وحدها لئلا يفسد الامتاع الذي تُقدّمه النادرة • والظن بأن رأيه في رواية النوادر(٤) خاص وليس عاما ، كما أنه نابع من حرص أسلوبه على ملاءمة الألفاظ للمعاني •

٣ ـ ليست هناك إمكانية للملاءمة بين اللفظ والمعنى اذا لم يتسم الأسلوب بالدقة • وقد كان الجاحظ حريصا على الدقة في أسلوبه ، بحيث ينتقي اللفظ الدال على المعنى ، ويلتفت في أثناء الانتقاء الى الجرس والايقاع وقوة الدلالة ، تبعا لحرصه على الجزالة العربية التي تعني عذوبة الكلام في الفم ولذاذته في السمع • وهو ، في الغالب ، ينتقي الألفاظ بمعانيها الحقيقية ، دون أن يميل بها الى المعاني المجازية • وليس هناك تعليل مقبول لمعيار انتقاء الألفاظ عنده غير رغبته في مخاطبة عقل القارىء. ولا يعني ذلك أنه لم يستعمل المعاني

المجازية للألفاظ ، بل يعني أنه ميال الى مخاطبة عقل القارىء وحواسه بما يقبله العقل وتسيغه الحواس دون جهد في التأويل والتفسير .

٤ ـ أعتقد أن تدقيق الجاحظ في الملاءمة بين الألفاظ والمعاني احتاج الى أن يتسنم أسلوبه بدقة الأداء اضافة إلى الدقة اللغوية . والمراد بدقة الأداء استعمال اللفظ في موضعه بحيث لا يصح استعمال غيره في الموضع نفسه ، واستعمال المصطلحات ذات المفهومات المحددة في العلوم والآداب والفنون . وقد أسهمت دقة الأداء في مرونة أسلوبه ، بحيث بدا فيلسوفاً في أثناء استعماله مصطلحات الفلاسفة ، وعالماً في أثناء استعماله مصطلحات العلماء . كما أسهمت الدقة نفسها في الايهام بواقعية أسلوبه ، وخصوصاً المواضع التي استعمل فيها الألفاظ الصريحة التي تجنّب معاصروه استعمالها حرصاً على الذوق والأخلاق ، ولجؤوا الى الكناية في التعبير عنها . بيد أن دقة الأداء لم تكن مقصورة في أسلوب الجاحظ على اللفظ وحده ، لأنه لجأ إليها في صوغ تراكيبه أيضاً ، بحيث تنسجم ألفاظها ولا تتنافر ، ويبرز جرسها ومعناها دون أي خلل أو تقصير . وهذه الدقة في أداء التراكيب مسؤولة عن الوهم الذي أشرت اليه حين قلت ان هناك مَن يعتقد بأن للجاحظ أسلوبين : أسلوباً مرسلاً وأسلوباً مترسّلاً . ذلك أنه استعمل في نثره المترسّل الأدبي التوازن والترادف حفاظاً على جرس الجملة وانسجام الألفاظ وتقرير المعاني في أذهان القراء. وأسلوبه في هذه الحال ميّال الى التكرار اللفظي ، سواء أكان الغرض من هذا التكرار توفير الجرس للتراكيب أم تأكيد المعنى في أذهان القراء .

٥ ـ يخيّل اليّ أن دقة أداء التراكيب لوّنت أسلوب الجاحظ ، بحيث جعلت جمله طويلة حيناً ، وقصيرة أحياناً ، دون أن يكون هناك معيار للطول والقصر فيها غير معيار الدقة في أداء الفكرة . فهو يعبّر عن الفكرة البسيطة بجملة قصيرة ، وعن الفكرة الغامضة أو المجردة أو الدقيقة بجمل طويلة . وليس لهذه الجمل الطويلة نهاية غير اعتقاد الجاحظ بأنه وضّح المعنى المراد من الجملة توضيحاً لا لبس فيه . وهو في هذه الحال حريص على تقسيم الجملة الطويلة الى جمل قصيرة متوازنة أحياناً ، منتهية غالباً بعذر يعلل الاطالة ، كما فعل في خاتمة رسالة التربيع والتدوير .

سمات أخرى :

لا أشك في أن هناك سمات أخرى اشتهر بها أسلوب الجاحظ ، كالاطناب والاستطراد وبروز الشخصية والقدرة على الاضحاك والاكثار من الاستشهاد بالقرآن والحديث الشريف والشعر والأمثال والابتعاد عن التكلف ... لم ار فائدة من تكرارها لاستفاضة شهرتها في الدراسات التي تحدثت عن الجاحظ ، وخصوصا الاستطراد الذي علله الجاحظ بدفع الملل والسآمة عن القارىء ، ولجا في سبيله الى مزج الجد بالهزل ، او الخروج من النثر الى الشعر . غير انه من المفيد دائما تحليل اسلوب امير البيان ، والتدقيق في علاقته باسلوب القرآن والحديث النبوي ، وتاثيره في أساليب الأدباء الذين أتوا بعده ، وخصوصا التوحيدي الذي لقب بالجاحظ الثاني .

☆ ☆ ☆

□ الاحالات :

١ ـ ذكر انيس مقدسي في « تطور الاساليب النثرية في الادب العربي » الأسس الثلاثة ، واورد شواهد عليها ، وعدها المذهب النظري للجاحظ في بلاغة الانشاء ، انظر ص ١٧١ وما بعد

٢ ـ انظر : صبح الاعشى للقلقشندي ١٧٣/١٤ .

٣ ـ انظر : الحيوان ١١٤/٣ .

٤ ـ انظر : البيان والتبيين ٨١/٣ .

☆ ☆ ☆

مسرح الجاحظ

مَشاهِد.. ولقطات!

ممدوح فاخوري

استرعى انتباهي ، وأنا أقرأ بعض رسائل توفيق الحكيم ، رسالة منه الى الدكتور طه حسين ، يحدثه فيها عن الجاحظ المسرحي ، او على التحقيق ، عن « حوار تمثيلي » نقله على شكل « منظر صغير » .. انقلها فيما يلي الى القارىء ، مع المنظر التمثيلي :

« أستاذنا الكبير الدكتور طه

... وبعد ، فقد كنت أقرأ الجاحظ منذ عامين ، فألفيت عنده كلاماً كالحوار التمثيلي لم أر مثله في الأغاني. وقد بدا لي أن أنقل هذا الحوار على شكل « منظر صغير » **دون تغيير في الالفاظ والمعاني** . إنما سمحت لنفسي ببعض الحذف وبعض الملاءمة بين وضع الحوار الأصلي والوضع المسرحي بغير أن أمسّ جوهر الموضوع ، حتى يبقى الفضل للجاحظ وللأدب العربي . والحق انه حوار يذكّر بألفريد دي موسيه في « كوميدياته وأمثاله » . **إن عناصر كل نوع من أنواع الأدب والفكر موجودة عند العرب** ، لكنها مجرد عناصر ؛ فلماذا لا نستخرج هذه العناصر ونفصّلها ونبوبها ؟ لماذا لا نضع مثلاً كل حوار من هذا الطراز **في الشكل التمثيلي** على قدر المستطاع ، ونجمعه على أنه **نماذج تمثيلية في الأدب العربي** ، أو على أنه Rajeunissement للأدب القديم بالباسه حلة جديدة دون تغيير للب ؟ إذا صح هذا فان مجال العمل في الأدب العربي

القديم متسمع ، ولن تفرغ منه أجيال قادمة برمّتها . والدكتور أول من أدخل روح البحث والتنقيب في الجامعة ، والجامعات هي ميدان لمثل هذا العمل .

إذا كان الدكتور لا يوافقني على أن عناصر القصص التمثيلي موجودة عند العرب ، فما تراه يقول في هذا « المنظر » وهو من تأليف الجاحظ ؟ :

الفراق

(المنظر : باب دار كبير . جارية كأنها قضيب يتثنى ، وهي والهة حيرى واقفة في الدهليز ، وجائية تخطر في مشيتها . يدنو منها شيخ ويسلّم عليها فترد السلام بلسان منكسر وقلب حزين :

الشيخ : يا سيدتي ! إني شيخ غريب أصابني عطش ، فتأمري لي بشربة من ماء تؤجري .

الجارية : إليك عني يا شيخ ، فاني مشغولة عن سقي الماء وادخار الأجر !

الشيخ : يا سيدتي ! لأية علة ؟

الجارية : (بعد تردد) : لأني عاشقة من لا ينصفني ، وأريد من لا يريدني!

الشيخ : (يتأملها) ــ يا سيدتي ، هل على بسيط الأرض من تريدينه ولا يريدك ؟

الجارية : ــ إنه لعمري على ذلك الفضل الذي ركّب الله فيه من الجمال والدلال .

الشيخ : يا سيدتي ، فما وقوفك في الدهليز ؟

الجارية : هو طريقه ، وهذا أوان اجتيازه .

الشيخ : يا سيدتي . هل اجتمعتما في خلوة ، في وقت من الأوقات ؟ أم حب مستحدث ؟!

الجارية : (تتنفس الصعداء ، وتسيل دموعها على خديها كطل على ورد ، وتنشيء تقول) :

وكنا كغصنتي بانة وسط روضة ... نشم جنى اللذات في عيشة رغد
فافرد هذا الغصن من ذاك قاطع ... فيا من رأى فردا يحن الى فرد

الشيـــخ : يا هــذه .. ما بَلَـغ مــن عشقك هذا الفتى ؟

الجاريــة : أرى الشمس على حائطــه أحسنَ منها على حائط غيره ! وربمـــا أراه بغتة فأُبْهَتُ وتهرب الروح من جســـدي ، وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل .

الشيـــخ : عزيزٌ عليَّ ، وأنت على ما بك من الضنى وشُغل القلب بالهوى ، وانحلال الجسم ، وضعف القوى ، ما أرى بك من صفاء اللون ورقّة البشرة . فكيف لو لم يكن بك من الهوى شيء ؟ أراكِ كنت مَفتتنة في أرض البصرة !

الجاريــة : كنت والله يا شيخ ، قبــل محبتي لهذا الغلام ، تحفةَ الدلال والجمال والكمال . ولقد فتنت جميع ملوك البصرة ، وفَتَنَنَي هذا الغلام .

الشيـــخ : يا هذه .. ما الذي فرّق بينكما ؟

الجاريــة : نوائب الدهر وأوابد الحدثان. ولحديثي وحديثه شأن من الشأن ..

وأنبئك أمري : إني كنت افتصدت في بعض أيام النيروز ، فأمرت فزُيّن لي وله مجلس بأنواع الفــرش وأواني الــذهب ، ونضدنــا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار . وكنت دعــوت لحبيبي عدة من متظرفــات البصرة فيهن من الجواري جارية شهران وكــان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمئة ألف درهم ، وكانت الجارية قد ولعت بي ، وكانت أول من أجابت الدعــوة وجاءتني منهــن . فلما حصلت عندي رمت بنفسها عليَّ تقطعني عضـًا وقرصـًا ... فبينا نحن كذلك إذ دخــل عليَّ حبيبي ، فلما نظر إلينا اشمأز لذلــك ، وصَدَفَ عنــي صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل اللجم ، وعض على أنامله وولّى خارجاً . فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسَلّ سخيمته ، وأستلطفه فــلا ينظر إلي بعين ، ولا يكتب إلي بحرف ، ولا يكلم لي رسولاً .

الشيـــخ : يا هذه ، أفمن العرب هو أم من العجم ؟

الجاريــة : هو من جلّة ملوك البصرة .

الشيـخ : من أولاد نيابها أم من أولادتجارها ؟

الجاريـة : من عظيم ملوكها •

الشيـخ : أشيخ هو أم شاب ؟

الجاريـة : (تنظر إليه شزرا) ـ إنك لأحمق ! أقول هو مثل القمر ليلة البدر أمردُ أجرد ، وطرّة رقماء كحنك الغراب تعلوه شقرة في بياض • عَطِر اللباس ضارب بالسيف، طاعن بالرمح، لاعب بالنرد والشطرنج، ضارب بالعود والطنبور ، يغني وينقر على أعدل وزن ، لا يَعيبه شيء إلا انحرافه عني لانقصاً لي منه بل حقداً لِما رآني عليه •

الشيـخ : يا هذه • وكيف صبرك عنه؟

الجاريـة : حالي معه كحال القائل :

أمـا النهـارُ فمستهـامٌ والـهٌ ... وجفـونُ عينـي ساجفات تدمعُ
والليلُ قد ارعى النجوم مفكرا ... حتى الصباح ، ومقلتي لا تهجـعُ
كيف اصطباري عن غزال شادنٍ ... في لحظ عينيـه سهـام تصـرعُ

الشيـخ : يا سيدتي ، ما اسمه ؟ وأين يكون ؟

الجاريـة : تصنع به ماذا ؟

الشيـخ : أجهد في لقائه ، وأتعرّف الفضل بينكما في الحال •

الجاريـة : على شريطة •

الشيـخ : وما هي ؟

الجاريـة : تلقانا إذا لقيته ، وتحمل لنا إليه رقعة •

الشيـخ : لا أكره ذاك •

الجاريـة : هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبـي صفـرة • يُكنى بأبـي شجاع ، وقصره في المربد الأعلى ، وهو أشهر من أن يَخفى (تصيح في الدار) أخرجوا إلينـا شرابا من ماء وغير ماء •

(تقبل وصيفتان تحملان الدواة والقرطاس، فتشمر الجارية عن ساعدين كأنهما طومارا فضة ، ثم تحمل القلم وتكتب الرقعة . ثم تقبل ثلاثون وصيفة بأيديهن الكؤوس والجامات والأقداح مملوءة ماء وثلجاً وفقاعاً وشراباً، فيشرب الشيخ ...)

الشيخ : يا سيدتي . مع قدرتك على هذا من استواء الحال ، وكثرة الخدم والعبيد والجواري ، فلم لاتأمرين إحدى الجواري أن تقف مُراعية للغلام ، حتى إذا مرَّ أعلمَتْك فتخرجين إليه .؟.

الجارية : لا تغلط يا شيخ .!.

الشيخ : (يفهم مرادها ويطرق خجلاً من هفوته) ! » .

* * *

انتهى المنظر ، وكان في مقدوري أن أجمل منه فصلاً كبيراً ، لكني آثرت أن أبقيه على أصله ؛ لأن المسألة عندي: هل تظهر هذه العناصر مع بقائها على شكلها ، أو نتصرف بها ونستعملها كما نشاء ؟

سنتكلم في هذا إذا التقينا في الأسبوع القادم » .

(انتهى كلام توفيق الحكيم)

هذا هو نص الجاحظ الذي يكتشف فيه «الحكيم » عناصر القصص التمثيلي، ويرى فيه نموذجاً تمثيلياً في الأدب العربي القديم ، وكأنه يريد أن يقول إن لدى الجاحظ من المواهب القصصية والتمثيلية المستكنّة في صدره ما كان حقيقاً بأن يؤهله لاحتلال مكانة عالية في الكتابة القصصية والمسرحية ، لولا أن العصر كان له قضاؤه بأن تخفى مثل هذه المواهب وتستكنّ ، وتموت بموت أصحابها ، وتطوى كما طويت مواهب كثيرة غيرها لسبب أو لآخر ...

والحق أن من يقرأ قصص الجاحظ، أو حكاياته ، يجد أن لديه روحاً مسرحية مؤهلة لكتابة أروع المسرحيات ، لو كان في عصره مسرح ، وكان في مَن عاصَرَ مسرحيون .. ولكن المسرح لم يكن موجوداً في أيام الجاحظ لأسباب طال فيها الأخذ والرد ، وليس لذكرها هاهنا مجال.. وبطبيعة الحال ليس من ذِكر لمسرح

أو تمثيل و ما شابهَ في كل ما قرأنا من سيرة الجاحظ وآثاره ، ومن الفنون الأدبية التي كتب فيها ، والموضوعات الغريبة المتنوعة التي اقتحمها بقلمه ، و « لم تخطر على بال أديب في عصره » كما يقول أحمد أمين ٠٠ لم نسمع بشيء من ذلك ومن هذه المسميات الجديدة ، إلا في عصرنا هذا الذي نُدلِل فيه بهذه الفنون الحديثة التي نمارسها بكل ثقة واعتداد ، ونحتفل بها أيَّ احتفال ، ونقيم لها موازين ونقداً وناقدين ، ونؤلف فيها المقالات الطوال والكتب والمجلدات الضخام ، بل ونجعل لها قصب السَّبْق على غيرها من فنوننا الأدبية العريقة من غير ما رهان ! ٠٠ خصوصاً بعد أن اقتحمت في حياتنا ميادين باتت تفتقر إليها وإلى ما تنتج لها كل يوم ٠٠ بل كل ساعة ٠٠ وتلتهم كل ما يُلقى إليها منها ، مهما يكن شأنه ٠٠ ووزنه ، لتلبي حاجات الشاشات الكبيرة والصغيرة ، وحاجات عصر الفضاء !

ومع ذلك تظل أعيننا معلّقة بالعنوان الصارخ ، مسرح الجاحظ ، لا تبرحه ٠٠ ما محلّه ؟ وما مسوّغ تجسيمه على هذا النحو الذي لا يدل على شيء إلا نفسه؟. ومع ذلك قد تسمع من يملل فيقول إن مسرح الجاحظ هو الحياة بكل ما فيها ومَن فيها ، وبكل ما تعجّ به من غرائب وطرائف ونماذج من بشر وغير بشر لا تخطر على بال أديب في عصره ، ولم تخطر ببال أديب قبل عصره ، وكل ذلك مؤهّل للمسرح ومؤدٍ إليه : أليست الحياة مسرحاً تتحرك فيه الناس.. كلٌ يسعى في سبيل ، وكلٌ له دور مرسوم حتى ينتهي إلى أجل معلوم ٠٠ فالجاحظ ـ ومَن أجدر من الجاحظ ـ في موضوعاته الغريبة التي ذكرنا ، يؤلف فيما لم يسبقه إليه مؤلف ٠٠ « يؤلف ـ كما يقول أحمد أمين ـ في اللصوص وحيل لصوص النهار ، وحيل سُرّاق الليل ٠ ويؤلف في التجار ، وفي العبيد والاماء ، وما إلى ذلك من مبتكرات الأدب الأوربي الحديث ٠ فاذا قال الأوربيون اليوم إن موضوع الأدب هو نقد الحياة بأشكالها وأنواعها فقد سبقهم الجاحظ فوَسِعت معرفته دقائق عصره ، واتخذها موضوعاً لأدبه ٠٠ **وجعل موضوعه كلَّ شَيء في الحياة** حتى اللص والجارية والتاجر والنبيذ والمعلم ٠٠ وكتب في البخيل ٠٠٠ » و « حلل البخل تحليلاً غريباً أين من يستطيعه؟ لعلك إن طالبت عالماً في النفس الآن كبيراً أن يحلله لك ما استطاع أن يتجاوز في ذلك ورقات ٠٠ ».

ولكـن ، ومـع كل ما يمكـن أن يُكتشف لدى كاتبنا العظيم من مؤهلات مسرحية لا تتأتى إلا لكبار الكتاب المسرحيين ، فان هذا كله لا يغير من حقيقـة الأمـر شيئـاً ، وهـي أن عصـر الجاحـظ لـم يكـن عصـر مسـرح ، وأن كاتبنا العملاق لم يكن كاتب مسـرح ، بالمعنى المصـري الاصطـلاحي لكلمة مسرح .. وإنما الأقـرب أن نسمح لأنفسنا بالحديث عمّا يمكن أن نسميـه « روحاً مسرحية » نافذة بعيدة الغور ، تكمن وراء منظاره الواسع البعيد الذي أقبل به على الحياة من حوله ملاحظاً ومحللاً ، فنفذ إلى أعماقها ، وتَبين من حقائقها ما لم يتبين غيره منه إلا النزراليسير الذي لم يستطيعوا مع ذلـك أن يتعمّقوه كما تَعمّقه، ولا أن يتحقّقوه كما تحقّقه ، وأحسها « نيابـةً » عن كثير ممن عاشوا مثله ، وعانوا مثل ماعانى ، بل ربما أكثر مما عانى ، فلـم يحسوها كما أحسها ، ولم ينفذوا إلى أعماقها كما نفذ ، وظلوا على سطحهـا يلهون ويرتعون ، ويسعون جاهدين وراء ما يتاح لهـم من رزق ، تتقاذفهم مآرب الدنيا وأطماع العيش وشهواته ، ويتسابقون إلى غايـة مهمـا اختلفت وتباينت بين فريق وفريق، وفرد وفرد، فهي لا تختلف عن مصير من سبقوهم إلى هذه الحياة ... وأديبنا العملاق منتصب حيالهم بهامتـه الضخمـة المتوهجـة ، وعينيه الجاحظتين من طـول التأمـل والتبصـر ، ومـن عجيـب ما تريانـه ، كمنظارَي راصد غريب .. يضحك ويضحك ، ولا يجد غير الضحك الساخر والمشفق في أن معاً من سبيـل .. ثـم يصوغ كل ذلك كلاماً مُصفى ، ويعبر عنه بأسلوبـه المتلون الفريد الـذي لاتقف طرافته عند حد، ولا تنتهي أعاجيبه وغرائبه عند غاية ..

وعودة إلى رسالة الكاتب « الحكيم» وكشفه الفريد ، لنتصوره ــ وهـو الكاتب المسرحي ــ فرحاً بنص الجاحظ هذا ، مأخوذاً به إلى أبعـد الحدود .. ويبدو أنه قد أُخذ ــ أول ما أُخـذ ــ بهذا الحـوار الطريف ، فوجده كالـدر الثمين أقبل عليه يتلقّفه ويتلقّطـه ، ثم يسلكه في نظـام ، ليستوي له منـه مشهد ! ونحن نعلم أن الحكيم مشغوف دائماً بالحوار ، وأن مسرحه حوار وفكر في المقام الأول ، ولو على حساب العناصر المسرحية الأخرى ولا سيما الحركة. وقد عـدّ طه حسين ذلـك عيباً « عظيم الخطر ؛ لأنه يجعل القصة المسرحيـة ــ

وهي هنا « أهل الكهف » ـ خليقــة أن تُقرأ لا أن تُمثل » • وأعتقد أن الحكيم لو نقب آنذاك وبحث ، وأمعن في قراءة الجاحظ وفي تحسُّس مزاجه وطبعـه ، وتعمَّق في دراسة مقاصده ومراميه ، مستهدياً في الوقت نفسه بروح المسرح قبل شكله وظاهره ، وبتباشيره الأولى لدى الجاحظ وقلّة من أمثاله ـ لوجد من كنوز الجاحظ في هذا الباب الشيء الكثير ، بل لَوَقَع على ما هو أجدر أن يُنقَّبَ عنه ، وتُلتقــط نفائس الدر منه ؛ فالمسرح ليس حواراً فقط ، بل هو حركة أيضاً تكتمل بها حيويــة العرض قراءة وتمثيلاً • وللجاحظ في هــذا المضمار « لقطات » بارعة قلَّ أن تجد لها مثيلاً إلا عند عبقري مثله يرسم بقلمه ما لا يقدر عليه صاحب ريشة ولا ممارس تمثيل ، كابن الرومي في وصف الخبــاز والأحــدب ، والمتنبي في بعض نماذجه البشرية الحبيبــة إلى مبضعه ! ولكــن الجاحظ يمعن في التفصيل والتدقيــق ، جرياً مع واقعيته الغالبة ، فيمضي معك ـ أو تمضي معه ـ مدىً أطول وشوطاً أبعد ، فلا يترك شاردة ولا واردة إلا قرَّبها إليك ، وبَسَط دقائقها أمام ناظريك ، يُعينه على ذلك أنه يحمــل مصوِّرة الناثــر لا الشاعر ، فيَعرض عليك ما يعرض هَوناً ولطفاً ، لا لمحــاً وخطفــاً ، ويُعينه أيضاً جمعُـه قــوة الملاحظـة ودقــة المعاينـة النفسيــة «البسيكولوجية» وطولها حتى لدى الحيوان ! فهو يتناول في كثير من نصوصــه « نفسيات » الحيوان والطير والحشرات ، ويتحــدث عن طباعهــا وعاداتهــا •• وأخلاقها ! ولا يُغفــل « جزئيــة » من جزئيات حياتها ، فالقط مثلاً لئيم خؤون ، والكلــب نونبل ، والديك مُؤثِر شاباً اثِر " (اناني ") هرماً لا يعرف إلا نفسه .. والعصافــير بــارّة بفراخهــا شديــدة العطف عليها •• وتُمينه ـ كما أسلفنــا ـ واقعيته التي تُقحمه كل سبيل ، وتورده موارد التحليل والتفصيل ، حتى لتذكَر أحياناً بطبَعيّة « أميل زولا » ؛ هذا إلى خلطه الجد بالهزل ، وميله إلى الدعابة والسخر ولــو من نفسه ! ويُفيض في عرض النفسيات الانسانية فيغوص في أعماقها ويسبر أغوارها سبراً عجيباً ؛ وهو في ذلك كله معنيٌّ دائماً بالتفصيل والتطبيق ، لا بالفكر والنظر وحده •• وكلها صفات مؤهلة للمسرح ، لو كان ثمة مسرح ! وقبل هذا وذاك تسترعي انتباهنا لغته البسيطة الطيّعة التي تهبط إلى الواقع حتى تبدو هي وواقعه سواء ، وتوافق الحال أيَّ موافقة ؛ والبلاغة في مراعاة مقتضى الحال ••

خذ مثلاً جَمَع فيه الحوار والحركة: بساطة الحوار وبراعته ، وواقعية الحركة ودقتها ، ووصف المكان بكل مستلزماته وتفاصيله، في تناغم مسرحي نادر المثال ـ قصة الشيخ الخراساني ـ :

التقديم والتعريف :

« حدثني إبراهيم بن السندي قال: كان على ربع الشاذروان شيخ لنا من أهل خراسان ، وكان مصححا ، بعيداً من الفساد ، ومن الرشاء ، ومن الحكم بالهوى ، وكان حفياً جداً . وكذلك كان في إمساكه ، وفي بخله ، وتدنيقه في نفقاته . وكان لا يأكل إلا ما لابد منه ، ولا يشرب إلا ما لا بد له منه . غير أنه إذا كان في غداة كل جمعة ، حمل معه منديلاً فيه جردقتان ، وقطع لحم سكباج مبرّد ، وقطع جبن ، وزيتونات وصرة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان ، وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال . ومضى وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ ، وطلب موضعا تحت شجرة ، وسط خضرة ، وعلى ماء جار ؛ فاذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرة ، ومن هذا مرة ، فان وجد قيّم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا ، أو أعطني بهذا رُطبا ـ إن كان في زمان الرطب ـ أو عنباً ـ إن كان في زمان العنب ـ ، ويقول له : إياك إياك أن تحابيني ، ولكن تجوّد لي ، فانك إن فعلت لم آكله ، ولم أعد إليك . واحذر الغبن، فان المغبون لا محمود ولا مأجور. فان أتاه به أكل كل شيء معه ، وكل شيء أتى به ، ثم تخلل ، وغسل يديه . ثم يمشي مئة خطوة ، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسل ويمضي إلى المسجد . هذا كان دأبه كل جمعة » .

ـ ترى أنه عرض لنا حتى الآن ما يصح أن نسمّيه « التقديم والتعريف » اللذين يشبهان في أيامنا تقديم الكاتب المسرحي وتعريفه بعناصر مسرحيته و «شخصياتها» .. ويشتملان ما هنا على الشخصية الرئيسية (الشيخ الخراساني) ـ وأبرز صفاته الخلقية والنفسية ـ وشيء من عاداته والمتممات من أكل وشراب وأدوات منوّعة لا بد له منها .. ولم يُغفل من هذه العادات حتى مشيه مئة خطوة !.. ثم المكان بأبرز تفاصيله ومحتوياته .. ـ

الحدث : ثم بعد ذلك : الحدث :

« قال ابراهيم : فبينا هو يوماً ـ أي الشيخ الخراساني ـ يأكل في بعض المواضع ، اذ مرّ به رجل فسلّم عليه ، فردّ السلام ثم قال : هلمّ عافاك الله . فلما نظر الى الرجل قد انثنى راجعاً يريد أن يطفر الجدول أو يتعدّى النهر قال له : مكانك ! فان العجلة من عمل الشيطان . فوقف الرجل ، فاقبل عليه الخراساني وقال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن أتغدى (لاحظ البساطة في السؤال والجواب) قال : ولم ذلك ؟ وكيف طمعت في هذا ؟ ومن أباح لك مالي ؟ قال الرجل : أوليس قد دعوتني ؟ قال: ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام ! الأمر فيما نحن فيه أن تكون اذا كنت أنا الجالس ، وأنت المار ، تبدأ أنت فتسلّم ، فاقول أنا حينئذ مجيبا لك : وعليكم السلام . فان كنت لا آكل شيئا سكت أنا، وسكتّ أنت ، ومضيت أنت ، وقعدت أنا على حالي .

وان كنت آكل ، فها هنا بيان آخر : وهو أن أبدأ أنا فاقول : « هلم » وتجيب أنت فتقول : هنيئاً ! فيكون كلام بكلام ! فاما كلام بفعال ، وقول بأكل ، فهذا ليس من الانصاف ! وهذا يُخرج علينا فضلاً كثيراً ... » .

ومثل هذا عند الجاحظ كثير، يَبرز فيه جانبا الحوار والحركة في توازن ملحوظ ؛ حتى اذا جار أحدهما على الآخر ، كان يكون ، بين جمع في مجلس يغلب فيه الحوار والحديث ، عوّض من عنصر بعنصر ، كحاله في هذا النص أو ما نسمح لأنفسنا أن نسميه « لقطة » قصيرة ، فعوّض الجانبُ البسيكولوجي فيه من الجانب المادي ، أو الحركة النفسية من الحركة الجسمية :

« كنا مرة في موضع حشمة ، وفي جماعة كثيرة ، والقوم سكوت ، والمجلس كبير ، وهو ـ الحزامي ـ بعيد المكان مني . وأقبل علي المكيّ وقال ، والقوم يسمعون : يا أبا عثمان ! مَن أبخل أصحابنا ؟ قلت : أبو الهذيل قال : ثم مَن ؟ قلت : صاحبٌ لنا لا أسميه . قال « الحزامي » من بعيد : انما يعنيني ! ثم قال : حسدتم للمقتصدين تدبيرهم ، ونماء أموالهم ، ودوام نعمتهم .. الخ ».

وقد لا يكون مهماً، ونحن نستكشف مجرد ملامح لا فصولاً مسرحية كاملة

لدى الكاتب ، كما قدّمنا ، أن يكون ميزاننا في تقدير قيمة النص طول المشهد أو قصره ، وانما الشأن هو في التماس الملامح الأصيلة في فنه ، والموهبة المسرحية الكامنة التي لم تكن تحتاج إلا إلى قدحة من زناد عصر مسرحي !

وعلى النقيض ، قد يتضاءل الحوار أو ينعدم ، فتعوض منه الحركة ، وتمثيل النفس والطباع ، مثال ذلك النص الآتي : « وهبوا للكناني المغني خابية فارغة .. فلما كان عند انصرافه وضعوها له على الباب ، فلم يكن عنده كراء حمالها ، وأدركه ما يدرك المغنين من التيه ، فلم يحملها ، فكان يركلها ركلة فتدحرج وتدور بمبلغ حميّة الركلة ، ويقوم من ناحية كي لا يراه انسان ، ويرى ما يصنع ! ثم يدنو منها ، ثم يركلها أخرى ، فتدحرج وتدور ، ويقف من ناحية . فلم يزل يفعل ذلك ، الى أن بلغ بها المنزل ! » .

ولاحظ هنا أنه ترك لك ختام القصة وتصوّر مرارة الخيبة !

ومثل هذا ، في انعدام الحوار - والحديث عن الروح المسرحية لا عن المسرح أو السينما - قصة « قاضي البصرة » المعروفة ، وفيها تبدو الذبابة السمجة وكأنها تشرك القاضي في دوره الرئيسي « بحضورها » الثقيل المقلق ، ولجاجتها الدبقة .. وهي في دورها الشعبي تختار بعده أو اختاره لها الجاحظ ، تبدو « حريصة » - بلجاجتها - على أداء دورها على أكمل ما يؤدى في موقف كهذا الموقف ! ومثل هذا لا يتأتى لذبابة ، في مسرح أو شاشة ، كما يتأتى لي في الكتابة والوصف ؛ وهذا ما أمكن الجاحظ فاستطاع أن يجلو لنا بصورته - وهي ها هنا قلمه - ما لا يستطيعه مصوّر غيره إلا إذا كان بمقدرة « والت ديزني » ، في صوره المتحركة !

ولكن الجاحظ - على براعته التي لا تجارى في مثل هذا الضرب من التصوير والسرد - يرى رأيا يزيد في تقريبه من أصالة الكتابة المسرحية وأساليبها ، ويؤكد عزوته الطبيعية إليها ، وذلك في تعليقه على حكاية قصيرة يسردها ، هذا نصها :

« ولم أر مثل أبي جعفر الطرسوسي ... زار قوماً فأكرموه وطيّبوه ، وجعلوا في شاربه وسَبَلته غالية (أخلاطاً من الطيب والمسك) فحكّته شفته العليا ، فأدخل إصبعه فحكّها من باطن الشفة ، مخافة أن تأخذ إصبعهُ من الغالية شيئاً إذا حكّها مِن فوق ! » .

ثم يقول معقباً :

« وهذا وشبهه إنما يَطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك ؛ لأن الكتاب لا يصوّر لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كنهه ، وعلى حدوده وحقائقه » .

ونحن في عصر المسرح ، تفوتنا رؤية العيان لكثير مما يجري حولنا ، ولكن لا تفوتنا في مسرح أو على شاشة ... ترى لو كان الجاحظ في عصر متأخر غير عصره — كعصرنا مثلاً — فيه مسرح وتمثيل وممثلون ، ألم يكن يتمنى لقرائه — على قدرة قلمه الفائقة على تصوير ما يريد تصويره لهم — أن يشاهدوا الحكاية ممثلة ، على خشبة أو شاشة ، إن فاتتهم رؤية العيان في إبّان حدوثها ؟.

هذه بعض امثلة ومشاهد لا ازيد عليها— واعيد بان الحديث عن روح مسرحية لا عن مسرح — .. ولكن استميح القارىء وقفة قصيرة عند لغة الجاحظ — يكون فيها الختام — في نطاق ما تفرض عليه واقعيته ، وما تاخذفيه « شخصياته » المختلفة من احاديث فيها الراقي وفيها العامي السوقي ، فينطلق كلاً بحسب حاله وطبقته والموقف الذي هو فيه ، وهذه اولى خصائص الحوار المسرحي ..وفي هذا يقول الجاحظ نفسه :

« وان وجدتم في هذا الكتاب — كتاب البخلاء — لحنا او كلاما غير معرّب ولفظا معدولاً عن جهته ، فاعلموا انّا انما تركنا ذلك لان الاعراب يبَغّض هذا الباب ويخرجه من حده ، الا أن احكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء ، واشحاء العلماء ، كسهل بن هارون واشباهه » .

★ ★ ★

الفكاهة .. عند الجاحظ

١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م

نصر الدين البحرة

عندما ولي الخلافة المتوكل العباسي ، بادر من فوره الى اعتقال الوزير ابن الزيات(١) ، وامر بتعذيبه حتى قضى نحبه في « تنور »(٢) ، وكان ذلك على يد قاض من أكثر الناس بغضا لابن الزيات هو « ابن ابي دؤاد » . وعندئذ هرب الجاحظ . فلما جيء به الى ابن ابي دؤاد سأله :

ـ لم هربت ؟

قال الجاحظ :

ـ خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور[٣] .

فقال ابن أبي دؤاد :

والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، كفوراً .

فقال الجاحظ :

ـ خفض عليك ! فوالله ليكون لك الأمر علي ، خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن ، خير من أن أحسن وتسيء ، وأن تعفو عني في حال قدرتك لأجمل من الانتقام .

فقال ابن أبي دؤاد :

ـ قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، جيئوا بحداد .

فقال الجاحظ :

ـ أعزّ الله القاضي ، ليفكّ عني.. أو ليزيدني ؟

قال :

ـ بل .. ليفك عنك .

وأتى الحداد ، فغمزه أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، فما كان من الجاحظ إلا أن لطمه وقال :

ـ اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فان الضرر بساقي .

وضحك ابن أبي دؤاد وقال :

ـ إني أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه(٤) .

هذا هو الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، سيد الفكاهة العربية والظرف والنكتة والسخرية والتهكم ، لم يغب عنه حسّ الفكاهة ، حتى وهو في أقسى الظروف وأكثرها حلكة . وكان قادراً في الآن ذاته ، من خلال الظرف والنكتة، على تحويل الموقف الصعب الحرج ، إلى جانبه ، واستطاع أن يُضحك حتى .. هذا الخصم اللدود .

الجاحظ .. سيد الضاحكين

لم يكن الجاحظ أول الضاحكين المضحكين في التاريخ ، وإن يكن من سادتهم في الشرق والغرب . لقد لفتت ظاهرة الضحك هذه أنظار المفكرين والفلاسفة ، منذ أقدم الأزمنة ابتداء بالفراعنة المصريين ، ومروراً بالاغريق ولا سيما أفلاطون في محاورته «فيليبوس Philebus وأرسطو وانتهاءً ببرغسون وبكوستلر .

وكانوا يختلفون دائماً في تفسير ظاهرة الضحك والاتفاق على سبب أو أسباب في تأويلها « فالظاهر أن عدم التوصل إلى تفسير مقنع للفكاهة والضحك يرجع إلى حد ما على الأقل ،إلى شدة تنوع وتعقد المواقف التي تثير

الضحك بحيث يصعب رده إلى عدد محدود من الأسباب أو المواقف أو العوامل»[٥].

.. إذا صح هذا الكلام ، فما ثمة فكاهة كفكاهة الجاحظ يمكن أن ينطبق عليها .. وما أكثر الأسباب والمواقف والعوامل المؤدية إلى الضحك عند الجاحظ، في مختلف مؤلفاته وأعماله ، سواء منها العلمية الخالصة ككتاب « الحيوان » أو الضاحكة مثل « البخلاء » أو الكتب الأخرى مثل « البيان والتبيين » .

مجريّان يناقشان الضحك

لقد لاحظ الكاتب المجري « جورج مايكيش » وهو يناقش آرثر كوستلر في مقالة عنوانها « أهمية الترويح عن النفس بالفكاهة والدعابة » أن الأمر « الذي يستوقف النظر في أي موقف من المواقف هو الشيء الغريب المتناقض الذي يثير الضحك ، في حين يراه الآخرون مدعاة إلى الأسى »[٦] .

ويتابع مايكيش قائلاً :

« منذ نحو ١٥ عاما كنت أكتب أول رواية لي ، فسألني آرثر كوستلر عن موضوعها فقلت له : إنها تدور حول رجل أكول له ولع شديد بالطعام كولع غيره بالشراب ، فهز رأسه معقباً : موضوع جيد يناسب كافكا أكثر مما يناسبك ، ولكنه جيد على كل حال » .

ويستطرد ما يكيش فيقول :

« من هذا التعقيب يتضح أن كوستلر لم ير في الموضوع سوى الجانب الذي يدعو إلى الأسى ، في حين أنني رأيت فيه الجانب الذي يبعث على الضحك »[٧] .

.. ولعل هذا ما دعا الباحث الدكتور أحمد أبو زيد إلى التوقف عند هذه الناحية الهامة في الفكاهة ، ذاك أن الفكاهة لا تتوقف عند الموقف وحده ، وإنما تتوقف أيضاً عند نظرة الانسان إلى الأمور وفهمه وتقويمه لها[٨] .

وهذا عنوان عريض ، يمكن أن يوضع فوق كثير من فكاهات الجاحظ ونوادره ، مما كتبه أو عاشه .. أو قاله شفهياً فأثر عنه ، ورردده عدد من كتب التراث .

بيرغسون وفلسفته في الضحك

على أننا لا نقدر ونحن نتحدث عن الفكاهة ، إلا أن نتوقف عند رأي واحد من الفلاسفة المعاصرين لنرى فكاهات الجاحظ، في ضوء تفسيره للضحك وفهمه لهذه الظاهرة الانسانية ، وإن يكن مثله كمثل الكثيرين من المفكرين والفلاسفة، الذين حاولوا رد هذه الظاهرة أو تلك لسبب واحد ، على نحو [illegible] في جانب من تأويلهم ، وجانبهم الحقيقة في جوانب اخرى .

لقد شرح هنري بيرغسون Henri Bergson نظريته في الفكاهة في كتابه « الضحك Le Rire » الذي نقله إلى العربية الدكتور سامي الدروبي .

إن بيرغسون يرد الضحك ، على نحو جوهري إلى الجمود أو الآلية التي تتعارض مع تلقائية الحياة وبساطتها وعفويتها .

ما الذي يجري عندما يدعو إنسان آخر للمبيت عنده في منزله ؟ أليس الطبيعي أن يقدم له العشاء بصدق ؟ أليس هذا هو الموقف العفوي التلقائي الذي يمكن أن يتخذه أي إنسان عادي ؟!

غير أن الجاحظ اختار في « البخلاء » انموذجا إنسانيا جسّد البخل روحه وقلبه ، وجعل سلوكه يدخل في آلية لا تتعارض مع تلقائية الحياة وبساطتها فحسب ، بل إنها لتناقضها تناقضاً تاما .

نموذج .. من عند الجاحظ

يقول الجاحظ(٩) :

صحبني « محفوظ النقاش » من مسجد الجامع ليلاً ، فلما صرت قرب منزله ـ وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي ـ سألني أن أبيت عنده وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة ، وليس معك نار ، وعندي لِبأ"(١٠) لم ير الناس مثله ، وتمر" ناهيك به جودة ، لا تصلح إلا له . فملت معه ، فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر . فلما مددت يدي قال : « يا أبا عثمان ، إنه لبأ وغِلَظه(١١) ، وهو والليل وركوده ، ثم

ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت في السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفا ، ومازال الغليل[12] يسرع إليك، وأنت في الأصل لست صاحب عشاء ، فان أكلت اللبأ ولم تبالغ كنت لا آكلا ولا تاركا ، وحرشت[13] طباعك ، ثم تعلمت أشهى ما كان إليك ، وإن بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بأمرك ، ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلاً ، وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً : كان وكان ، والله قد وقعت بين نابي أسد ، لأني لو لم أجئك به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به ، وبدا له فيه ، وإن جئت به ، ولم أحذرك منه ، ولم أذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق عليّ ولم ينصح ، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً ، فان شئت فأكلة وموتة ، وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة ،

.. فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ، وقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور في ما أظن ، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به ، لأتى عليّ الضحك ، أو لقضي عليّ ، ولكن ضحك من كان وحده ، لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب ،

لقد كان صفوظ النقاش في حديثه ودعوته وتصرفاته جيما تلك الليلة مع أبي عثمان، شخصية سيطرت عليها الشكلية والنمطية إلى أبعد الحدود، وحينما تسيطر الشكلية والنمطية على جوهر الأشياء ينشأ الضحك .. كما يرى بيرغسون ،

ونضحك من عيوب غيرنا

ويلاحظ الفيلسوف الفرنسي أننا نضحك أيضا من عيوب غيرنا ، وفي الآن ذاته « يجب أن نحتفظ باستقلالنا تجاه الآخر، إذ أن أي اتحاد به أو إسقاط عليه يفسد علينا إحساسنا بالتفوق والتميز ، وينتهي بالتالي إلى تنغيصنا والقضاء على متعتنا »[14] .

حكي عن الجاحظ أنه قال :[15] ألّفت كتاباً في نوادر المعلمين ، وما هم عليه من التغفل ، ثم رجعت عن ذلك ، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب ، فدخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد علي أحسن رد ، ورحب بي ، فجلست عنده وباحثته في القرآن فاذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته

في الفقه والنحو وعلم المنقول وأشعار العرب ، فاذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب . قال : فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فاذابالكتّاب مغلق ولم أجده ، فسألت عنه فقيل : مات له ميت فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء . فذهبت إلى بيته وطرقت الباب فخرجت إليّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك ، فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله . فدخلت إليه ، وإذا به جالس . فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر . ثم قلت له : هذا الذي توفي .. ولدك ؟قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . قلت : فما هو منك ؟ قال : حبيبتي ، فقلت في نفسي : هذهأولى المناحس . وقلت : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها . فقال :أتظن أني رأيتها ؟ قلت : وهذه منحسة ثانية . ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟! فقال : اعلم أني كنت جالساً في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق ، إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول :

يا أم عمرو جـزاك الله مغفـرة ... ردي علي فـؤادي مثلمـا كـانـا
الست املح من يمشي على قـدم ... يا أملح الناس كل الناس إنسانا(١٦)

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقـد ذهب الحمـار بـأم عمـرو ... فـلا رجعت ولا رجـع الحمـار

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت وأغلقت المكتب وجلست في الدار . فقلت : ياهذا إني ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إبقائه ، وأول ما أبدأ بك ، إن شاء الله تعالى .

أسـاس الفكاهـة ..

إن بيرغسون يرى أنه لما كانت الآلية المعارضة للحياة هي أساس الحركة المثيرة للضحك ، فهي أيضاً أساس الفكاهة الشخصية واللغوية(١٧) . ومن هنا ،

ذلك المورد الذي لا ينضب للسخرية والهزء والتهكم عند الجاحظ ، من ذلك مثلاً هذه النادرة التي أوردها في « البيان والتبيين »[18] :

« بينما معاوية بن مروان واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحان ، وحمار له يدور بالرحى ، في عنقه جلجل، إذ قال للطحان : لم جعلت في عنق هذا الحمار هذا الجلجل ؟ قال : ربما أدركتني سآمة أو نعْسَة ، فاذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه قد قام ـ أي : وقف عن الدوران ـ فصحت به . قال معاوية : أفرأيت إن قام ثم مال برأسه هكذا هكذا وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة ؟ وما يدريك أنه قائم (أي واقف) ؟ قال الطحان : ومن لي بحمار بعقل مثل عقل الأمير ؟! » .

الضحك .. في « البخلاء »

وينتبه برغسون إلى أن هذا التعارض ـ المثير للضحك في أغلب الأوقات ـ مع القواعد والأعراف الاجتماعية ، لايعني بالضرورة الرذائل الأخلاقية . طبيعي ان البخل هو من الرذائل لكنها الرذائل الانسانية..لا.. الأخلاقية. فاذا نجم عن ذلك رذيلة أخلاقية فهذا شأن آخر . وقد أورد الجاحظ في « البخلاء » مثالين عن هذه المسألة فهو يقول :

« زعموا أنهم ربما ترافقوا وتزاملوا[19] ، فتناهدوا[20] وتلازقوا[21] في شراء اللحم ، فاذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكه بخوصة أو بخيط ، ثم أرسله في خلّ القدر والتوابل . فاذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه وقد علمه بعلامة ، ثم اقتسموا المرق . ثم لايزال أحدهم يسلّ من الخيط القطعة بعد القطعة حتى يبقى الحبل لا شيء فيه ، ثم يجمعون خيوطهم ، فان أعادوا الملازقة ، أعادوا تلك الخيوط لأنها تشربت الدسم فقد رويت وليس تناهدهم عن طريق الرغبة في المشاركة ، ولكن .. لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يحتمل أن يطبخ وحده ، ولأن المؤونة تخفّ أيضاً ، والحطب والخل والثوم والتوابل ، ولأن القدر الواحدة أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر »[22] .

ومن هذا القبيل قصة الخراسانية التي يرويها أبو عثمان فقد ترافقوا في منزل وصبروا عن الارتفاق[٢٣] بالمصباح ما أمكن الصبر ، ثم إنهم تناهدوا وتخارجوا[٢٤] ، وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل في الغرم[٢٥] معهم · فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ، ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح ، فاذا أطفؤوه أطلقوا عينيه[٢٦] ·

··· وكما يبدو فان في هاتين النادرتين اللتين رواهما الجاحظ في «البخلاء» إغراقاً وإغراباً في البعد عن الأعراف الاجتماعية والروح العامة السائدة في المجتمع ، يكاد يفوق الخيال ·· لكنه ·· على كل حال ، ليس من الرذائل الأخلاقية ، اللهم ·· إذا لم نعدّ البخل في ذاته رذيلة أخلاقية ·

أي خيال ، هذا الذي يستطيع أن يتفتق ، عن تعليم كل خيط لحم بعلامة ، وعن تشبعه بالدسم ، من المرة الأولى ، كي يحتفظ الطعام بكامل دسمه في المرات التالية فلا يذهب شيء منه إلى الخيط؟!

·· ومثل هذا شدّ عيني من لم يدخل في غرم المصباح وكلفة زيته ·· !

الفكاهة ·· واللغة ··

لقد حدد برغسون نمطين من الفكاهة التي تكون فيها اللغة مجرد أداة توصيل ·

آ ـ فكاهة الأحداث والمواقف والأفعال عن طريق الرواية ·

ب ـ الفكاهة اللغوية الصرف التي نقع بسببها في حبائل اللغة[٢٧] ·

وينطبق النمط الأول على حكاية «معاذة العنبرية » · يقول الجاحظ[٢٨] :

« ثم اندفع شيخ منهم ـ أي : من أهل مرو ـ فقال : لم أر في وضع الأمور مواضعها ، وفي توفيتها غاية حقوقها ، كمعاذة العنبرية · قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال :

أهدى إليها العامَ ابن عم لها أضحية ، فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة ، فقلت لها : ما لك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة ، وليس لي قيّم ، ولا عهد لي

بتدبير لحم الأضاحي ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه . وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه . ولكن المرء يعجز لا محالة ولست أخاف من تضييع القليل ، إلا أنه يجر تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل منه كالخطاف ، ويسمر في جذع من أجذاع السقف ، فيعلق عليه الزُّبل[29] والكيران[30] ، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان[31] والحيّات وغير ذلك . وأما المصران فانه لأوتار المندفة ، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس[32] واللحيان[33] وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق[34] ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللادام وللعصيدة ولغير ذلك . ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم ير الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لهباً منه . وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر لقلة ما يخالطها من الدخان . وأمّا الاهاب، فالجلد نفسه جراب ، وللصوف وجوه لا تعدّ . وأما الفرث[35] والبعر فحطب إذا جفف عجيب . .

ثم قالت : بقي علينا الانتفاع بالدم، وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وأنّ له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كيّة في قلبي وقذى في عيني ، وهماً لا يزال يعودني .

قال : فلم ألبث أن رأيتها قد تطلّقت[36] وتبسّمت ، فقلت : ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الراي في الدم . قالت :أجل ذكرت أن عندي قدوراً شامية جددا ، وقد زعموا أنه لا شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن ، إذ وقع كل شيء موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ،فقلت لها : كيف كان قديد تلك ؟ قالت: بأبي أنت . لم يجيء وقت القديد بعد .لنا في الشحم والالية والجنوب والعظم المعرّق وفي غير ذلك معاش ، ولكل شيء إبّان .

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصا ، ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين . » .

اللغة ليست مجرد أداة

•• لقد استطاعت اللغة أن توصل ما أراد أبو عثمان إخبارنا به من حكاية معاذة العنبرية ، غير أن اللغة لم تكن هنا مجرد أداة توصيل على حد تعبير برغسون ، ذاك أن كل مفردة من مفرداتها ، سوى أن لها دوراً مرسوماً في إيقاع الفكاهة ، وفي تكوين اللحن العام ، تؤدي وظيفتها في تشكيل الفكاهة ، عن طريق الرواية ، والتصورات الضاحكة التي تصاحب ظلال الألفاظ وأطيافها الواسعة بلغة الكيميائيين •

قاضي البصرة

••• أما النمط الثاني من الفكاهة التي تبدو اللغة فيها عنصراً أساسياً ، فانما تصوره حكاية (قاضي البصرة والذباب) وإنما تتراءى هذه الحكاية ، في فنيتها وحبكتها ، والتركيز فيها على دينامية الكلمات والعبارات ، وما خالطها من تلاعب بالألفاظ ، وفنون البلاغة ، من بديع ومعان وبيان ، قصة قصيرة أولى كتبها الجاحظ في ذلك الزمن المبكر ، مثلما فعل بديع الزمان الهمذاني الذي ولد بعد وفاة الجاحظ بثلاث سنوات : « عام ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٩ م » في بعض مقاماته ، ولا سيما « المقامة المضيرية » •

قال الجاحظ : (ثم رجع بنا القول إلى الحاح الذبّان • كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط زمّيتاً ولا ركيناً ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك • كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكىء فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يحل حبوته ، ولا يحل رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقّيه حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة • فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه • فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر • ثم يرجع إلى مجلسه • فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله • بل كثيرا ما يكون ذلك ، إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي

المشاء وينصرف • فالحق يقال : لم يقم في طوال تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب • كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها • وكان مع ذلك لايحرك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم • فبينا هو كذلك ذات يوم، وأصحابه حواليه ، وفي السماطين[٣٨] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث • ثم تحول إلى مؤق عينه فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضّ وجهه أو يذب باصبعه • فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لايحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض • فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الاطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه ـ المقصود بالتنحّي هو الذباب ـ ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقل ، فحرّك أجفانه وزاد في شدة الحركة وألح في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والاطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته • ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدأ من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل وعيون القوم إليه ترمقه ، وكأنهم لا يريدونه • فتنحى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطرف كمّه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك • وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه • فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب[٣٩] •

كلام في كلام

•• ويتجلى سلطان اللغة في الفكاهة عند أبي عثمان ، على نحو خاص ، في تلك النادرة التي رواها في « البخلاء » فهي قائمة أصلاً على الكلام ، حتى إن عنوانها يمكن أن يكون « سرور الكلام » أو « كلام في كلام » • وسوى هذه اللعبة اللفظية فثمة فيها ، معرفة عميقة لدى الجاحظ بخفايا السلوك ونوازعه •• وما يمكن أن ينطوي عليه من كفّ وإقدام •

يقول الجاحظ :

« ومثل هذا الحديث ما حدثني بـه محمد بن يسـير[٤٠] ، عن والٍ كـان بفارس إما أن يكون خالداً خومهرويه أوغيره قال :

بينما هو يوماً في مجلس ، وهـو مشغـول بحسابه وأمره ، وقد احتجب بجهده ، إذ نجم شاعر بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّظه ومجّده . فلما فرغ قال : قد أحسنت . ثم أقبل على كاتبه فقال : اعطه عشرة آلاف درهم . ففرح الشاعر فرحاً قد يستطار له . فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول ، قد وقع منك هذا الوقع . اجعلها عشرين ألف درهم ، فكاد الشاعر يخرج من جلده. فلما رأى فرحه قد أضعف قـال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول. اعطه يا فلان أربعين ألفاً ، فكاد الفرح يقتله .

فلما رجعت نفسه إليه قال له : أنت ، جعلت فداك ، رجل كريم وأنا أعلـم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً زدتني في الجائزة ، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر ، ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقـال : سبحـان الله ! هـذا كان يرضى منـك بأربعين درهماً تأمر له بأربعين ألف درهم؟! قال : ويلك ، وتريد أن تعطيه شيئاً؟

قال : أو من إنفاذ أمرك بدّ ؟ قال: يا أحمق ، إنما هذا رجل سرّنـا بكلام وسررناه بكلام . هو حين زعم أني أحسن من القمر ، وأشـد من الأسـد ، وأن لساني أقطع من السيف ، وأن أمري أنفذ من السـنان ، جعـل في يدي هـذا شيئاً أرجع به إلى بيتي ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ! ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا، فنحن أيضاً نسرّه بالقول ، ونأمر لـه بالجوائز . وإن كان كذباً فيكون كذب بكذب وقول بقول ، فأما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل ، فهذا هو الخسران المبين الذي سمعت به[٤١] .

حالتان لغويتان .. أم إنسانيتـان ؟

إننا هنا بإزاء حالتين لغويتين ، أقام أبو عثمـان بينهما توازناً واتساقـاً مدهشين : فهما كذابان قوّالان . غـير أن السـؤال هو التـالي : أكان كـذب

الثاني نتيجة ومحصلة لكذب الأول ؟ أم إن الثاني القادر الثري ، هو في الأصل كذاب في ذاته ، والأول الشاعر الضعيف، ليس كاذباً ولا صادقاً ، وإنما هو شاعر محترف صنعته المبالغة ٠٠ لكسب عيشه ، على طريقة الشعراء المرتزقة في ذلك الزمن ؟!

٠٠ ان الضحك هنا ، يأتي بالفعل من الفكاهة اللفظية ، ولكن هذا هو الظاهر ، أو الشكل ٠ أما المضمون فهو هذا الضرب من البخل الذي يحط من قيمة صاحبه ويجعله كذاباً ، وهو القوي ، يتوازى ويتساوى ، مع إنسان ضعيف فقير هو الشاعر ٠

البيان والتبيين

على أن ثمة ضرباً من الفكاهة اللفظية ، يكاد يكون مقتصراً على اللغة العربية ، لأن أياً من حالات الاعراب ، في اللغات الأخرى ، لا تشبه الاعراب فيها ٠ وقد كان انتباه الجاحظ إلى ذلك ، في وقت مبكر ـ بين أواخر القرن الهجري الثاني ومطلع القرن الثالث ـ أمراً جديراً بالوقوف عنده ٠ بلى ، إن الاعراب يوضح المستغلق من المعاني ويحدده ، إلا أن تعديلاً طفيفاً في حركة الاعراب ، يؤدي إلى تغيير المعنى ، ويعبر عن حالة جديدة ٠ قال الجاحظ(٤٢) :

« من اللحّانين الأشراف ابن ضحيان الأزدي ٠ وكان يقرأ « قل يا أيها الكافرين »(٤٣) ٠ فقيل له في ذلك، فقال: قد عرفت القراءة في ذلك، ولكني لا أجلّ أمر الكفرة »(٤٤) ٠

هذا اللون من الفكاهة الذي تشبه الحركة الضاحكة فيه إيماءة الضوء Flash نلمحه كثيراً في كتاب الجاحظ « البيان والتبيين » وتقترب الفكاهة هنا كثيراً من عالم النكتة الحديثة ، بل المعاصرة ، حيث تُختزل الألفاظ وتشحن وتكثف إلى أقصى درجة ممكنة ، سواء كانت النكتة تعتمد على الألفاظ والتلاعب بها ، أو تقوم على إظهار التناقض أو تبيان المفارقة ٠ ويظل للأحوال الانسانية ، المزاجية والنفسية والعقلية دور هام في النكتة هنا ، كما هو الحال في جميع كتابات أبي عثمان ٠

« قيل لوازع اليشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم • فلما رأى جمع الناس قال: لولا أن امرأتي ، لعنها الله ، حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، فأنا اشهدكم أنها مني طالق ثلاثا »[٤٥] •

« ألهذا •• دعوناك » ؟!

ووجد مصعب بن حيان نفسه حرجاً في مثل هذا الموقف إذ دعي إلى خطبة نكاح فحصر ـ أي : أرتج عليه ـ فقال: لقّنوا موتاكم قول لا إله إلا الله • فقالت أم الجارية (العروس) : عجّل الله موتك •• ألهذا دعوناك[٤٦] ؟!

••• ودون شعور بالحرج تصرف خالد بن صفوان تصرفاً مشابهاً ، فان مولى له قال : زوّجني أمتك فلانة • قال : زوجتكها • قال : أفأدخل الحي حتى يحضروا الخطبة ؟ فقال : أدخلهم • فلما دخلوا ابتدأ خالد فقال :

أما بعد ، فان الله أجل وأعز من أن يذكر في نكاح هذين الكلبين ، وقد زوجنا هذه الفاعلة ، مِن هذا ابن الفاعلة[٤٧] •

وأبو عثمان من خلال النكتة الساخرة ، يطلعنا على ضروب من السلوك البشري • ان هبنقة، من مشاهير الحمقى أو المجانين العرب ، ولكن الساخر العظيم ، وضع يده وهو يورد أحد أخباره ، على حالة نفسية حقيقية •

الضحكة •• من قلب المأساة

لقد شرد بعير لهبنقة فقال : من جاء به ، فله بعيران • فقيل له : أتجعل في بعير بعيرين ؟ فقال : إنكم لا تعرفون فرحة الوجدان[٤٨] •

ويستل أبو عثمان الضحكة الساخرة من صميم المأساة المروعة، ليطلعنا على نموذج عجيب من البشر ، فقد « دعا بعض السلاطين مجنونين ليحركهما فيضحك مما يجيء منهما ، فلما أسمعاه غضب ودعا بالسيف ، فقال أحدهما لصاحبه : كنا مجنونين فصرنا ثلاثة »[٤٩] •

ومن المفارقات التي تضحك الثكلى في « البيان والتبيين » هذه الواقعة فقد

« قال هشام بن عبد الملك ذات يوم بجلسائه : أي شيء ألذ ؟ قال له الأبرش ابن حسان : أأصابك جرب٠٠فحككته ؟قال هشام : أجرب الله جلدك ، ولا فرج الله عنك »[٥٠] ٠

الفكاهة ٠٠ والعدد عند الجاحظ

وثمة فكاهة ، يخيل الينا ونحن نقرؤها أن هذا الركام من السنين لا يفصل بيننا وبين الجاحظ ، فكأنه من هذا الزمان ٠ فقد « قال رجل لرجل : بكم تبيع الشاة ؟ قال : أخذتها بستة ، وهي خيرمن سبعة ، وقد أعطيت بها ثمانية ، فان كانت من حاجتك بتسعة ، فزن عشرة[٥١] ٠

٠٠ وكما يبدو فان للعدد دوراً في الفكاهة عند أبي عثمان ٠ من ذلك أيضاً ما قاله طارق بن المبارك : مرض فتى عندنا ٠ فقال له عمه : أي شيء تشتهي؟ قال : رأس كبشين ٠٠ قال لا يكون ٠قال : فرأس كبش[٥٢] ٠

٠٠ ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه الجاحظ عن عبدالملك بن هلال الهنائي فقد كان عنده زنبيل ملآن بالحصا ،فكان يسبّح واحدة واحدة ، فاذا ملّ شيئاً طرح ثنتين ثنتين ، ثم ثلاثاً ثلاثاً ،فاذا ملّ قبض قبضة وقال : سبحان الله بعدد هذا ٠ واذا مل شيئاً قبض قبضتين وقال : سبحان الله بعدد هذا ٠ فاذا ضجر أخذ بعروتي الزنبيل وقلبه وقال :الحمد لله بعدد هذا ٠ واذا بكّر لحاجة لحظ الزنبيل وقال : الحمد لله بعددما فيه[٥٣] ٠

ثمة في هذه النادرة شيء سوى العدد ٠ انه هذا المزاج الحاد ، وتلك الارادة الممتازة في امتلاك ناصية النفس.فان الرجل يريد أن يظل رابط الجاش متماسكاً صلباً من الداخل ، وهكذا فانه يفثأ انحباسه الداخلي من خلال الحصا ، فهو هنا يشبه حبات السُّبحة في يد بعض الناس من ذوي المزاج الصعب ٠

٠٠ وهذا نموذج آخر من ذوي المزاج الحاد يضعه عمرو بن بحر تحت أنظارنا ، الا أنه يختلف عن صاحب الحصا ، بأنه انسان فعال ، أي أنه قادر على نقل انفعاله من الحيز الجوّاني لجمله فعلاً مضارعاً ان لم يكن ماضياً.

نمـوذج حـاد آخـر ..

قال الجاحظ :

كان شيخ يأتي ابن المقفع ، فألح عليه يسأله الغداء عنده ، وفي ذلك يقول: انك تظن أني أتكلف لك شيئاً ؟! لا والله . اني لا أقدم لك الا ما عندي . فلما أتاه اذ ليس في منزله الا كسرة يابسة وملح جريش ! ووقف سائل بالباب فقال له : بورك فيك. فلما لم يذهب قال: والله لو خرجتُ اليك لأدقنّ ساقيك . فقال ابن المقفع للسائل : انك لو عرفت مِن صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده ، لم تُراده كلمة ولم تقف طرفة عين(٥٤) .

الفكاهة في كتاب « الحيوان »

أشك في ان الجاحظ وضع خطة محددة وهو ينوي تاليف كتابه العظيم (الحيوان) فاذا كان متنه علمياً هو دراسة الحيوان ، الا أن حواشيه الكثيرة من خلال استطرادات الجاحظ الغزيرة ،حملت فيه بحوثاً دينية واجتماعية وأدبية وتاريخية وفلسفية ، لكن لا يفوت الكاتب الكبير وهو ينتقل من غصن الى غصن في شجرة أخرى أن يورد الحكاية الظريفة والنادرة الضاحكة والمفارقة العجيبة .

من موقف يبعث على الابتسام الى آخر يدفع الى الضحك . وأي ضحك ؟! انه الضحك الذي يبلغ أحياناً حد القهقهة ، ولو كان المرء وحيداً وهو يقرأ ، فكيف اذا كان في جماعة . ومعلوم ان الانسان يضحك بين الآخرين أكثر مما يفعل وهو منفرد ، كما يرى « برغسون » ، كما أن الضحك في جماعة يتخذ معنى أعمق من الضحك الفردي ، وان يكن للعدوى دور في ذلك .

أسلوب الجاحظ في « الحيوان »

يقول أبو عثمان في مقدمة « الحيوان » متحدثاً عن قارىء هذا الكتاب :

« ومتى خرج من آي القرآن ، صار الى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر . ثم يخرج من الخبر الى شعر ،ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر

الى حكم عقلية ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ، ولعله أن يكون أثقل والملال اليه أسرع حتى يفضي به الى مزح وفكاهة ، والى سخف وخرافة ولست أراه سخفاً . »[٥٥]

كثير من فكاهات الجاحظ ونوادره في هذا الكتاب يتصل بالحيوان ، في ذاته، أو بالانسان من خلال علاقته بالحيوان . وربما كان الأمر بين حيوان وآخر . ولكن يظل للانسان ذاته دور في هذا المجال .

وفي الامكان تصنيف فكاهات الجاحظ في كتاب « الحيوان » كما يلي :

١ ـ الهجاء :

لقد كان أبو عثمان يتحدث عن الكلب وكل ما يمكن أن تكون له علاقة به ، حتى انتهى الأمر به الى الشعر ، وقول عوف بن الأحوص :

فاني وقيسا كالمسمّن كلبه　　　تخدّشه انيابه واظافره

وأنشد ابن الأعرابي لبعضهم :

وهم سمّنوا كلبا لياكل بعضهم　　　ولو ظفروا بالحزم ما سمن الكلب

وفي الأثر : سمّن كلبك ياكلك . ويتابع أبو عثمان قائلاً : وكان رجل من أهل الشام مع الحجاج بن يوسف ، وكان يحضر طعامه ، فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من الخصب، وأنه تدسمن ، فكتبت إليه امرأته :

اتهدي لي القرطاس والخبز حاجتي　　　وانت على باب الامير بطين
اذا غبت لم تذكر صديقا ولم تقم　　　فانت على ما في يديك ضنين
فانت ككلب السوء في جوع اهله　　　فيهزل اهل الكلب وهو سمين(٥٦)

٢ ـ النهم والجشع :

قد يوحي العنوان للوهلة الأولى بالبطنة والبلادة والخمول ، لكن الجاحظ انتقى انسانا خبيثا ، يتجلى ذكاؤه في هذا الخبث . وهو في الآن ذاته ظريف خفيف الظل ، وإن يكن تلاعبه غير قادر على تغطية جشعه ، قال الجاحظ :

« قال أبو الحسن : حدثني أعرابي كان ينزل بالبصرة ، قال : قدم أعرابي من البادية فأنزلته ، وكان عندي دجاج كثير ، ولي امرأة وابنان وبنتان منها ، فقلت لامرأتي : بادري واشوي لنا دجاجة وقدميها إلينا نتغداها . فلما حضر الغداء جلسنا جميعا أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي . قال : فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا له : اقسمها بيننا ، نريد أن نضحك منه . فقال : لا أحسن القسمة ، فان رضيتم بقسمتي قسمتها بينكم ؟ قلنا : فانا نرضى . فأخذ رأس الدجاجة ، فقطعه فناولنيه وقال : الرأس للرأس . وقطع الجناحين وقال : الجناحان للابنين . ثم قطع الساقين فقال : الساقان للابنتين . ثم قطع الزِّمِكَّى، وقال: العجز للعجوز ، وقال : الزَّوْر للزائر . قال : فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا . قال : فلما كان من الغد قلت لامرأتي اشوي لنا خمس دجاجات . فلما حضر الغداء ، قلت : اقسم بيننا ! قال: إني أظن أنكم وجدتم في أنفسكم . قلنا: لا ، لم نجد في أنفسنا ، فاقسم . قال : أقسم شفعا ـ أي : قسمة زوجية ـ أو وترا ـ أي قسمة فردية ـ قلنا : اقسم وترا . قال : أنت وامرأتك ودجاجة ، ثلاثة . ثم رمى إلينا بدجاجة ، ثم قال: وابناك ودجاجة ثلاثة ، ثم رمى اليهما بدجاجة . ثم قال : وابنتاك ودجاجة ثلاثة ، ثم رمى إليهما بدجاجة . ثم قال : أنا ودجاجتان ثلاثة. وأخذ دجاجتين وسخر بنا . قال : فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه ، فقال : ماتنظرون ؟ لعلكم كرهتم قسمة الوتر ، لا يجيء إلا هكذا ، فهل لكم في قسمة الشفع ؟ قلنا : نعم ، فضمهن إليه ثم قال : أنت وابناك ودجاجة ، أربعة ، ورمى الينا بدجاجة . ثم قال : والعجوز وابنتاها ودجاجة ، أربعة ، ورمى إليهن بدجاجة . ثم قال : أنا وثلاث دجاجات أربعة . وضم إليه الثلاث ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد أنت فهمتنيها »(٥٧) .

٣ ـ الموقف الحرج :

وهذا كثير عند عمرو بن بحر ، لكن خير مثال عليه النادرة التالية : فقد ذكر أهل بغداد أنه كانت لابنة من بنات محمد بن راشد الخناق لحية" وافرة ، وانها

دخلت مع نساء متنقبات إلى بعض الأعراس لترى العُرس وجلوة العروس ، ففطنت لها امرأة ، فصاحت : رجل والله! وأحال الخدم والنساء عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلة إلا الكشف عن فرجها، فنزعن عنها وقد كادت تموت[٥٨] ٠

٤ ـ المفارقة :

وهي عنده تمتزج بالأسطورة والمبالغة والشعر ٠ لقد كان أبو عثمان يتحدث عن الخصاء حديث العلم ، ثم انتقل الى السفاد بين أنواع حيوانية مختلفة ، وها هو ذا يقول :

((وزعم يحيى بن عليم أن الثعلب يسفد الهرة الوحشية فيخرج بينهما ولد وأنشد قول حسان بن ثابت (رضي الله تعالى عنه) :

أبوك أبوك وأنت ابنه ... فبئس البُنيُّ وبئس الأب
وأمك سوداء ما دونه ... كأن أناملها العُنظُب[٥٩]
يبيت أبوك بها معرسا ... كما ساور الهرة الثعلب

وأنشد أبو عبيدة قول عبدالرحمن بن الحكم :

الا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفٌ ... وترضى أن يقال أبوك زانِ
فاشهد أن آلك من قريش ... كرحم الفيل من ولد الأتان

قال كيسان : ولأي شيء قال : كرحم الفيل من ولد الأتان ؟ إنما كان ينبغي أن يقول كرحم الفيل من الخنزير. قال أبو عبيدة : أراد هو التبعيد بعينه وأنت تريد ما هو أقرب ٠ ويستطرد الجاحظ قائلاً : وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه زوج سنانير ، فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد ٠ وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل ، قال كيسان ، فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنّورة حواءها ٠ وضحك القوم[٦٠])) ٠

٥ً ـ الاغـراب :

كان الجاحظ ، على عادته ، ينتقل من عالم الحيوان ، إلى دنيا الانسان ، منقباً عن عاداته ومسالكه وغرائزه وطباعه ، فاذا هو يقع في المبالغة إلى حد الاغراب ، بينما هو يزعم أنه يقرر قاعدة عامة في الحياة والأخلاق والسنن الاجتماعية . فممّا يدعو إلى الفساد « طول وقوع البصر على الانسان » و «طول التداني وكثرة الرؤية هما أصل البلاء ، كما قيل لابنة الخس : لِمَ زنيت بعبدك ، ولِمَ تزني بحرّ ، وما أغراك به ؟ قالت : طول السواد وقرب الوساد » . ويتابع أبو عثمان : « ولو أن أقبح الناس وجها وأنتنهم ريحا واظهرهم فقراً وأسقطهم نفساً وأوضعهم حسباً قال لامرأة قد تمكن من كلامها ومكنته من سمعها : والله يا مولاتي وسيدتي ، لقد أسهرت ليلي وأرقت عيني ، وشغلتني عن مهمّ أمري ، فماأعقل أهلاً ولا مالاً ولا ولداً ، لنقض طباعها ولفسخ عقدها ، ولو كانت أبرع الخلق جمالاً وأكملهم كمالاً وأملحهم مِلْحاً . فان تهيأ ، مع ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ومعاذة العدوية ورابعة القيسية والشجا الخارجية(٦١) » .

٦ً ـ الغرابة والغفلة :

وهنا يمزج الجاحظ بين الشعر والأثر والنفس العلمي، وهو يخبرنا بحمق النعامة : « ويقولون : أحمق من نعامة . كما يقولون أشرد من نعامة . قالوا ذلك لأنها تدع الحضن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم ، فان هي في خروجها ذلك، رأت بيض أخرى قد خرجت للطعم حضنت بيضها ونسيت بيض نفسها ولعل تلك أن تصاد فلا ترجع إلى بيضها في العراء حتى تهلك . قالوا : ولذلك قال ابن هرمة :

فاني وتركي ندى الاكرمين وقدحي بكفيّ زندا شحاحا
كتاركة بيضها بالعراء وملبسةٍ بيض اخرى جناحا(٦٢)

٧ ـ الجنس :

وللجنس وشؤونه دور كبير في مختلف أجزاء كتاب الحيوان • على أنه لا يعرضه مجانيا هكذا ، كما هو الحال في بعض المؤلفات القديمة ، إذ ينحط الجنس إلى أدنى المراتب • فالجاحظ يريد أن يبحث هذه المسألة بحث العالم المستقصي المدقق، المنقب عن الحقيقة قبل أي شيء آخر ، يستوي لديه هنا الانسان والحيوان ••• إلا أنه في هذه الأثناء لا يتوانى حتى عن توظيف الفكاهة • فان لها دورين ، الأول هو شرح جانب من الموضوع الذي يدرسه أبو عثمان • والثاني هو الترويح عن نفس القارىء دفعاً للملل ، مما كان الجاحظ قد أوضحه في مقدمة الكتاب •

لقد كان يتحدث عن المرأة والجنس، فامرأة مات زوجها فتحريك طباعها خطر • وأخرى مغيَّبة في مثل هذا المعنى • وثالثة طال لبثها مع زوجها ، فذهب الاستطراف وماتت الشهوة • ثم انتقل إلى الكلام على طريقة لصرف الشهوة ، في منحى آخر ، في ما نسميه نحن اليوم :التصميد ، حتى لا تسمع المرأة من أحاديث الغزل والباه قليلاً ولا كثيراً ••

وبينا الجاحظ مستغرق في هذا الموضوع ، إذ به يقفز كعادته ، نحو نادرة لها صلة وثيقة بالموقف • قال أبو عثمان :

« ركبت عجوز سندية ظهر بعير ،فلما أقبل بها البعير وأدبر وطمر[٦٣] فمخضها مرة مخض السقاء ، وجملها مرة كانها ترهز ، فقالت بلسانها وهي سندية أعجمية : أخزى الله هذا (الزّمّل) ـ تعني : الجمل ـ فانه يذكّر بالشر!

•• ويتابع عمرو بن بحر : « وحدثنا ربعي الأنصاري أن عجوزاً من الأعراب ، جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذاً فسقوها قدحاً فطابت نفسها وتبسمت • ثم سقوها قدحاً آخر فاحمرّ وجهها وضحكت • فسقوها قدحاً ثالثاً ، فقالت : خبروني عن نسائكم بالعراق ، أيشربن من هذا الشراب؟فقالوا نعم • فقالت : زنين ورب الكعبة[٦٤] •

كلمة أخيرة ..

وماذا بعد ؟

في ما أعلم ، فما من أديب أو باحث في التراث العربي كله ، كان له ظرف الجاحظ وخفة ظله . وما من أحد كأبي عثمان كانت الفكاهة ، أمراً جوهرياً في حياته ، حتى ليُظن أن البحث عنها وروايتها كانا شغله الشاغل .

« قال المرزباني ، وحدث أبو الحسن الأنصاري ، حدثني الجاحظ قال: كان رجل من أهل السواد تشيّع وكان ظريفاً . فقال ابن عم له : بلغني أنك تبغض علياً عليه السلام، والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك . قال : والحوض في يده يوم القيامة؟! قال : نعم . قال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالعطش ؟! فقيل له: أتقول هذا مع تشيعك ودينك؟ قال: والله لاتركت النادرة ، ولو قتلتني في الدنيا ، وأدخلتني النار في الآخرة»[٦٥].

.. ويلاحظ الدكتور عبد الكريم اليافي في تعليقه على « رسالة التربيع والتدوير » للجاحظ وكان أبو عثمان قد كتبها في هجاء رجل مفرط في الادعاء شكلاً ومضموناً يدعى أحمد عبد الوهاب ، أننا على الرغم من مرور أكثر من أحد عشر قرناً على كتابة هذه الرسالة ، فاننا ما نزال نتندر وننبسط عند تلاوتها ، ونعجب لتفنن الجاحظ في ضحكه المتهكم[٦٦] .

وربما كان هذا وراء هروب (أبي هِفّان)[٦٧] من الرد على الجاحظ وقد عرّض به وندّد .

قيل لأبي هفان : لِمَ لا تهجو الجاحظ ، وقد ندّد بك وأخذ بمُخَنَّقك؟ فقال : أمثلي يخدع عن عقله ؟! والله ،لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة . ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت في ألف سنة[٦٨] .

لقد كان (أبو الميناء)[٦٩] من الذين عاصروا الجاحظ ، وروى أخباراً كثيرة عنه وكان معجباً به ، وقد قيل له يوماً:ليت شعري، أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعري ، أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟![٧٠] .

الهوامش :

١ ـ ابن الزيات (١٧٣ ـ ٢٣٣ هـ = ٧٨٩ ـ ٨٤٧ م) محمد بن عبدالملك بن أبان بن حمزة أبو جعفر ، عالم باللغة والأدب ، من بلغاء الكتاب والشعراء ، وله ديوان شعر . وزير المعتصم والواثق العباسيين . نشأ في بيت تجارة قرب بغداد ونبغ ، فتقدم حتى بلغ مرتبة الوزارة . وعول عليه المعتصم في مهام دولته وكذلك ابنه الواثق . ولما مرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل فلم يفلح . وولي المتوكل فنكبه وعذبه الى ان مات ببغداد .
ـ الأعلام : للزركلي ـ

٢ ـ التنور : صندوق خشبي بيضاوي الشكل يشبه البرميل، وجدرانه قد كسيت بمسامير حادة متقاربة ، ويدخلون المحكوم عليه بالاعدام على هذه الصورة ، ثم يأخذون في دحرجة الصندوق جيئة وذهابا حتى يقضي المحكوم عليه نحبه وسط عذاب يفوق كل وصف .
ـ رحلة مع الظرفاء : أحمد عبدالمجيد ـ
دار المعارف ـ القاهرة : ١٩٧٦

٣ ـ اقتبس الجاحظ العبارة من سورة « التوبة » الآية ٤٠ وفيها قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .

٤ ـ رحلة مع الظرفاء ـ ص ٢٩ .

٥ ـ عالم الفكر ـ المجلد ١٣ ـ العدد ٣ ـ الكويت ـ دكتور احمد ابو زيد : الفكاهة والضحك ـ ص ٦ .

٦ ـ المصدر نفسه ـ ص ٧ .

٧ ـ المصدر السابق ـ ص ٧ .

٨ ـ المصدر نفسه ـ ص ٧ .

٩ ـ البخلاء . دار كرم ـ دمشق ـ ص ١٥١ .

١٠ـ لبأ : أول الحليب عند الولادة .

١١ـ خلفه : ثقله على المعدة .

١٢ـ الغليل : شدة العطش .

١٣ـ حرشت طباعك : هيجت شهوة الاكل .

١٤ـ عالم الفكر ـ المجلد ١٣ ـ العدد ٣ ـ ص ٢٠٥ .

١٥ـ المستطرف في كل فن مستظرف ـ شهاب الدين الابشيهي ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٨٧ ـ المجلد الثاني ـ ص ٣٢١ .

١٦ـ اورد الابشيهي هذين البيتين على نحو آخر ، والصواب ما اثبتناه .

١٧ـ عالم الفكر ـ ص ٢٠٥ .

١٨ـ البيان والتبيين ـ ج ٢ ـ ص ٢٠٥ .

١٩ـ المقصود : اهل مرو .

٢٠ـ ترافقوا .

٢١ـ لزم كل منهم الآخر .

٢٢ـ البخلاء ـ ص ٢٨ .

٢٣ـ الارتفاق : الانتفاع .

٢٤ـ اتفقوا على الاشتراك في النفقة .

٢٥ـ الغرم : النفقة .

٢٦ـ البخلاء ـ ص ٢٣ .

٢٧ـ عالم الفكر ـ المجلد ١٣ ـ العدد ٣ ـ مفاهيم الفكاهة الفرنسية : محمد علي الكردي ـ ص ٢٠٥ .

٢٨ـ البخلاء ـ ص ٤٠ـ٤١ـ٤٢ .

٢٩ـ الزبل واحدها زبيل : السل .

٣٠ـ الكيران ج. كور : المجمرة .

٣١ـ بنات وردان : الصراصير .

٣٢ـ العظم الذي فوق الدماغ .

٣٣ـ اللحيان : عظما الحنك .

٣٤ـ يعرّق : يعرّى من اللحم .

٣٥ـ الفرث : ما يوجد في كرش الشاة .

٣٦ـ تطلقت : انبسطت أسارير وجهها .

٣٧ـ احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها عوضا عن الاستناد الى جدار .

٣٨ـ السماط : الصف ، النسق .

٣٩ـ الحيوان : طبعة مطبعة التقدم ـ القاهرة ١٩٠٧ ـ الجزء ٣ ـ ص ١٠٦ـ١٠٧ .

٤٠ـ ابو جعفر محمد بن يسير الرياشي ـ شاعر عاصر الجاحظ في البصرة ، والجاحظ يكثر من ذكره ورواية شعره .

٤١ـ البخلاء ـ ص ٣٢ـ٣٣ .

٤٢ـ البيان والتبيين ـ ج ٢ ـ ص ٣٣٢ .

٤٣ـ صوابها : يا ايها الكافرون .

٤٤ـ اي انه لا يريد ان (يرفع) لفظ الكافرين لئلا (يرفع) من شانهم .

٤٥ـ البيان والتبيين ـ ج ٢ ـ ص ١٩٧ .

٤٦ـ المصدر نفسه ـ ج ٢ ـ ص ١٩٥ .

٤٧ـ المصدر نفسه ـ ج ٢ ـ ص ١٩٥ .

٤٨ـ البيان والتبيين ـ ج ٢ ـ ص ١٩٠ .

٤٩ـ المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ١٨٢ .

٥٠ـ المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ١٨٨ .

٥١ـ المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ١٨٩ .

٥٢ـ المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ١٩٠ .

٥٣ـ البيان والتبيين ـ ج ٣ ـ ص ١٧٣ .

٥٤ـ البيان والتبيين ـ ج ٣ ـ ص ١٩٠ .

٥٥ـ الحيوان ـ ج ١ ـ المقدمة .

٥٦ـ الحيوان ـ الجزء ١ ـ مطبعة السعادة : ١٩٠٧ ـ ص ٤٦ .

٥٧ـ الحيوان ـ الجزء ٢ ـ ص ١٣٠ـ١٣١ .

٥٨ـ الحيوان ـ ج ١ ـ ص ٥٢ .

٥٩ـ العنظب ـ الجراد الضخم . وقيل : الأصفر .

٦٠ـ الحيوان ـ ج ١ ـ ص ٦٦ـ٦٧ .

٦١ـ المصدر السابق ـ ج ١ ـ ص ٧٨ .

٦٢ـ الحيوان ـ ج ١ ـ ص ٩٢ .

٦٣ـ طمر : اتجه الى الاسفل ، اي هبط .

٦٤ـ الحيوان ـ ج ٣ ـ ص ٩٠ .

٦٥ـ معجم الادباء ـ ياقوت الحموي ـ ج ١٦ ـ ص ٨٧ .

٦٦ـ دراسات فنية في الادب العربي ـ د. عبدالكريم اليافي ـ دمشق ١٩٧٢ ـ ص ٥٦٢ .

٦٧ـ ابو عثمان (٠٠٠ ـ ٢٥٧ هـ = ٠٠٠ ـ ٨٧١ م) : عبدالله بن احمد . راوية عالم بالشعر من اهل البصرة ، سكن بغداد واخذ عن الاصمعي ، وكان فتىً متهتكا . له: اخبار الشعراء . صناعة الشعر . اخبار ابي نواس.

٦٨ـ دراسات فنية في الادب العربي ـ د. عبدالكريم اليافي ـ ص ٥٦٨ .

٦٩ـ ابو العيناء (١٩١ ـ ٢٨٣ هـ = ٨٠٧ ـ ٨٩٦ م) : محمد بن القاسم ، إخباري ، اديب ، شاعر من الظرفاء عاصر الجاحظ وروى عنه .

٧٠ـ دراسات فنية في الادب العربي ـ د. ع. اليافي .

نزهة في كتاب «البخلاء»

د. سام عمار*

الجاحظ ، حياته ومؤلفاته :

ولد الجاحظ بالبصرة عام ١٥٠ هجرية كما ذكر ياقوت في معجمه نقلا' من الجاحظ ، ويرجح بعض الباحثين ان ولادته كانت سنة ١٥٩ هجرية(١) • وقد توفي عام ٢٥٥ هجرية• وهو عمرو بن بحر الكناني بالولاء ، لقب بالجاحظ وكني بابي عثمان • نشا فقيرا ، فخالط المسجديين من أهل العلم والادب فاخذ عنهم • اكترى حوانيت الوراقين وبات فيها للمطالعة ، وانصرف يجلس الى علماء البصرة ، ويستمع من العرب الخلص في المربد •

وفي خلافة المأمون تصدّر ديوان الرسائل ، ثم استعفى منه بعد ثلاثة أيام • واتصل بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وقدم له كتاب الحيوان ، وأمضى بصحبته أمتع أيام حياته • ومع خلافة المتوكل وظهور القاضي أبي دُوادٍ علي بن الزيات هرب الجاحظ ، وقد خاف على نفسه ، ولكنّ القاضي عفا عنه • وبعد انقطاع عام كامل عاد إليه الجاحظ وقدم له كتاب البيان والتبيين(٢)• أما كتاب البخلاء فالمرجح ، تبعاً لطه الحاجري ، أنه كُتب في أواخر عهد ابن الزيات وأوائل إصابة الجاحظ بالشلل، في الوقت الذي كتب فيه

(*) باحث من سوريا ، رئيس قسم المناهج واصول التدريس في كلية التربية بجامعة دمشق •

رسالة الجد والهزل[٣] . وعلى ذلك يكون الجاحظ كتب كتبه الثلاثة وهو يعاني من الشلل الذي دام ، على تقدير عبد السلام هارون ، أكثر من اثنتين وعشرين سنة سبقت وفاته[٤] .

وقد ترك الجاحظ مؤلفات غزيرة متنوعة الموضوعات ، أثبت له منها ياقوت في معجم البلدان مئة وثمانية وعشرين مصنفاً[٥] . وذكر ابن حجر في لسان الميزان : أن ابن النديم سرد كتبه التي بلغت مئة ونيفاً وسبعين كتاباً[٦] . ولكن من مفارقات القدر أن الكتب التي أحبها الجاحظ وأفنى عمره في سبيلها لم ترأف به في نهاية عمره ، فكان موته بسقوطها عليه[٧] .

٢ ـ عصره وثقافته :

عاش الجاحظ في العصر الذهبي للثقافة العربية: عصر الرشيد والمأمون، حين كان التأليف والترجمة في شتى أنواع المعرفة على أشده . فازدهرت العلوم والآداب والفنون ، إذ هيئت لها السبل،وسخر في سبيلها المال ، فاتسعت وانتشرت ، وكان الجاحظ أحد أعلامها البارزين .

وقد تمثل الجاحظ ثقافة عصره على تعدد مشاربها ، فقد أخذ اللغة عن الأعراب الذين لا تشوب لغتهم شائبة ،فملك ما لم يملكه غيره من الكتّاب ، واتصل بشيوخ العلم وأئمة الأدب فأخذ عنهم وقرأ لهم ، وتتلمذ عليهم ، قال عنه أبو هفّان : « لم أرَ قطُّ ولا سمعت من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قطُّ إلا استوفى قراءته ، كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ،ويثبت فيها للنظر »[٨] . وللجاحظ صفحات رائعة في نعت الكتاب[٩] وفضل الكتاب[١٠] تدل على عمق تعلقه به وإيمانه بوظيفته . ولعل مما ساعد في تفتح هذه الشخصية الفذة أن عصر المأمون كان عصر انفتاح ثقافي وحرية فكرية ، «احتدمت فيه الفتنة بين أصحاب الفقه والحديث من جانب ، والمعتزلة وأصحاب الفكر الحر من جانب ، وكلٌّ يؤدي مذهبه ، ويجهر برأيه دون أن يخشى بأساً أو رهقاً »[١١] . والجاحظ، بعدُ ، أحدُ أئمة المعتزلة ، وسيدٌ من سادات الجدل، و «زعيم البيان العربي في

قوته وأسره ، وفي دقته وصحته ، وحلاوته وجماله وفنه » على حد قول عبد السلام هارون[١٢] .

٣ ـ منهجه في التاليف :

الجاحظ أديب قبل كل شيء ، والأدب متعدد الألوان ، متنوع الموارد ، غزير المادة ، فيه القصص والنوادر والأخبار ، وفيه الشعر والخطابة ، وفيه الهزل والمزاح ، وفيه الجِدّ والوقار .والجمع الممتع بين هذه الأمور جميعها هو المنهج الذي عبر عنه الجاحظ في غيرموضع من كتاب الحيوان . يقول في الجزء الثالث :[١٣] « على أني عزمتـ والله الموفق ـ أني أوشح هذا الكتاب ، وأفصّل أبوابه ، بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث:ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل . فاني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة . وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لمّا طال وكثر أصلح . وما غايتنا من ذلك كله إلا أن يستفيدوا خيراً » .

إنه إذاً كالنحلة ينتقل من زهرة إلى زهرة ، وما غايته من ذلك إلا دفع السأم والملل عن القارىء ، وشده إلى الكتاب دائماً، فالرتابه أياً كان موضوعها تورث الغفلة . وإن كان أحمد أمين قدحمّل الجاحظ. وحده تبعة هذا التشتت أو هذه الفوضى التي سادت التاليف في كتب الأدب ، فلعلّ في حُكمه شيئاً من الجَوْرِ ، لأن الجاحظ أشار صراحة إلى أن هذا المنهج قد ساد قبله في صغار الكتب .

والجاحظ يمزج في كتبه الجد بالهزل ، والمزاح بالوقار ، ولكن كلّ شيء بمقدار ، ولغاية محسوبه . يقول في الجزء الأول من كتاب الحيوان[١٤] :

« وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في الثانه من مزح لم تعرف معناه ، ومن بطالة لم تطلع على غورها ، ولم تدر لِمَ اجتلبت ،ولاي علة تكلفت ، واي شيء أريغ فيها ، ولاي جدٍ احتمل ذلك الهزل ، ولاي رياضة تجشمت تلك البطالة . ولم تدر أن المزاح جِدٌ اذا اجتلب ليكون علة للجد ، وأن البطالة وقار ورزانة اذا تكلفت لتلك العاقبة » .

والجاحظ يكرر بعض الملح والأخبار والنوادر في عدد من كتبه فنجد بعض نوادر البخلاء مبثوثة في كتابي **الحيوان** ، **والبيان والتبيين** ، وبعض الأخبار والطرف المذكورة في كتاب **الحيوان** معادة في كتاب **البيان والتبيين** .

أما المجون فسمة بارزة في التاليف لدى الجاحظ . فالأحاديث الكثيرة عن الخصاء والخصيان ، والجواري والغلمان ، والغريب في سلوك الانسان والحيوان ، تشغل حيزاً غير صغير من كتابي **البيان والتبيين والحيوان** .

٤ ـ الفكاهة في ادب الجاحظ :

سنتناول هذا الموضوع من خلال كتاب **البخلاء** الذي خصصه الجاحظ، كما يدل على ذلك عنوانه ، لأخبارهم وطرفهم ونوادرهم وحكاياتهم . سنتحدث عن الكتاب : مضمونه وأسلوبه ومنهجه وصلته بعصره ، وعن السمات الفنية لأسلوب الفكاهة ، وسنعرض نماذج منها .

٤/١ ـ الجاحظ وكتاب البخلاء :

حسبنا ، قبل أن نتناول الفكاهة في كتاب البخلاء ، أن نذكر أمرين :

أولهما : أن الجاحظ كان بارعاً في السخرية في **رسالة التربيع والتدوير** أيضاً ، وقد بدا أسلوبه فيها مشابهاً لأسلوب إيفانوس الباروسي الذي كان، كما يقول العلامة « إيجيه »[١٥] : « موهوباً في ابتداعه المدائح والأهاجي غير المباشرة ، وهما صورتان من صور السخرية التي تقوم على الهجاء الذي يشبه أن يكون مديحاً ، والمدح الذي يشبه أن يكون هجاء » .

وثانيهما : أنه جعل من رسالته في أحمد بن عبد الوهاب « بدعاً في التهكم والسخرية » ، لأن غناه بالمادة المعنوية التي هيأتها له نزعته الأدبية وروحه العلمية ، مكناه من أن يمتح منها كيفما شاء[١٦] .

إن أدب الجاحظ يعكس إذاً نزعته الكلامية والجدالية فيما يخص الأسلوب : ونزعته الواقعية والعلمية فيما يخص الوصف . ويعزز ذلك كله معرفة عميقة بالحياة الاجتماعية ومكوناتها المختلفة .

فان عدنا إلى موضوع البخلاء وطرحنا السؤال التالي : هل ابتدع الجاحظ الكتابة فيه ابتداعاً أو سبقه إلى ذلك آخرون ؟ كان الجواب بالنفي ؛ فقد سبقه إلى ذلك الأصمعي وأبو الحسن المدائني وأبو عبيدة . ولكن الجاحظ في تناوله لموضوع البخل اختلف مع سابقيه الذين دفعتهم إلى ذلك «غاية سياسية[١٧] لا تمت إلى الأدب أو الفن بصلة أو غاية من غايات المعرفة المجردة ، ولذلك كانت بعيدة عن تصوير الحياة الاجتماعية ، وتحليل البخل والحركات النفسية التي تداخله »[١٨] . لقد تناول الجاحظ الموضوع بتأثير من النزعة الفنية التي كانت وحدها حافزة إليه وصاحبة الأمر في تصريفه وتلوينه ، فجاء على يديه « موضوعاً أدبياً خالصاً ، ومتعة فنية رائعة . وكان رهيناً بالأغراض الموقوتة التي أثير من أجلها ، فصار خالداً خلود النفس الانسانية : يمتح منها ، ويصدر عنها ولها »[١٩] .

وقد صور الجاحظ في كتاب البخلاء الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره ، فلم تعد الحياة في الدولة الاسلامية بسيطة كما كانت في صدرها وبداياتها ، لقد تطور المجتمع وتشعبت مناحي الحياة وتنوعت مطالبها ، وبذلك غدا المال هدفاً وغاية بذاته ، بدلاً من أن يكون وسيلة . ويذكر طه الحاجري أن أحد الأمثال التي كانت سائرة في مدينة كبغداد هو : « المال المال وما سواه محال »[٢٠] .

ثم إن التجارة التي ازدهرت في بغداد والبصرة أدت إلى نشوء طبقة من التجار الأثرياء في هاتين المدينتين ، ولاسيما البصرة التي كانت ثغراً بحرياً . وقد كان هؤلاء بطبعهم أكثر حرصاً على المال وعلى تكديسه ، حتى لقد قرن الثعالبي صفة البخل بمهنة التجارة فقال : « ومعلوم أن البخل والنظر الطفيف مقرون بالتجارة ، والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق »[٢١] .

وإذا كان الجاحظ ولد في البصرة ونشأ فيها وخالط تجارها فمن الطبيعي أن يكون صور شخصيات أغنيائها وبخلائها وألوان حياتهم . إن أبطال نوادره وقصصه واقعيون وحقيقيون ، ولكنه كان يذكر بعضهم صراحة ويمعن في كتمان أدنى التفاصيل التي تتعلق ببعضهم الآخر ، لأسباب يذكرها في المقدمة فيقول :

« هذا كتاب لا افرك منه ولا استر عنك عيبه ، لانه لا يجوز ان يكمل لما تريده ولا يجوز أن يوفى حقه كما ينبغي له . لانههنا احاديث كثيرة متى اطلعنا منها حرفا عُرف أصحابها ، وان لم نسمهم ولم نـرد ذلك بهم ، وسواء سميناهم او ذكرنا ما يدل على أسمائهم ، منهم الصديق والولي والمستور والمتجمّل ، وليس يفي حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم ؛ فهذا باب يسقط البتة،ويختل به الكتاب لا محالة (...)(٢٢) .

أما موضوعات الكتاب فقد ذكرها الجاحظ في مقدمته حين قال : « وقلت : اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحاً والراحة جماماً ، فان للجد كداً يمنع من معاودته ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته (...) »(٢٣) .

إن كتابه يتناول نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، ولكنه يختمه بحديث عن « أطراف من علم العرب في الطعام »ويدخل تحته ما ذكره من حديث القِرى عند العرب ، ومن دلائل الكرم لديهم . وهو يعرض مذهب معاصريه أمثال سهل ابن هارون والحزامي والحارثي والكندي والثوري وابن أبي المؤمل وابن التوأم والأصمعي ، في الاقتصاد والنفقة وتثمير المال ، فيورد حججهم في طرائق شتى تأخذ تارة مظهر الجد والرزانة ، وتأخذ تارة أخرى صورة الهزء والسخرية والتهكم . ويقدم ذلك في شكل رسالة مطولة أو حوار مستفيض أو حديث مسهب . ويتخلل ذلك بين الفينة والفينة حوادث قصار وطرف صغيرة ونوادر موجزة. وغرضه من ذلك ـ كدأبه في التاليف ـ أن يحتفظ بانتباه القارىء مشدوداً إليه ، وأن يدفع الملل والسأم عنه . ولكن كل شيء بمقدار ؛ فاذا كان الجاحظ حدد فوائد كتابه بقوله: « ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تَبَيُّنُ حجة طريفة ، أو تعرّف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مَلَلْتَ الجد »(٢٤) فانه بيّن كذلك حدود الهزل في كتابه بقوله :

« وللضحك موضع ومقدار وللمزح موضع ومقدار ، متى جاوزهما احد وقصّر عنهما احد ، صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصا . فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر، ولم يعيبوا المزح الا بقدر ، ومتى اريد بالمزح النفعُ ، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جداً والضحك وقاراً»(٢٥) .

ثم إن بعض ما جاء في الكتاب موضوع أو مولّد ، ولا سيما تلك الأحاديث المستطيلة والرسائل المستفيضة والقصص المفتنّة التي ضمنها كتابه هذا ونسبها إلى هذا وذاك من رجال عصره، فان أسلوبها وطريقة وضعها ومنحى الاستدلال فيها ، كل ذلك شاهد قوي الحجة واضح الدلالة على أن الجاحظ هو صاحبها[٢٦] .

والجاحظ نفسه تحدث عن التوليد في مقدمته فقال[٢٧] : « ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جُمّيْن والهيثم بن مطهر وبمزبّد وابن أحمر ، ثم كانت باردة ، لجرت على أحسن ما يكون، ولو ولّد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النوّاء وإلى بعض البُغَضاء لعادت باردة ولصارت فاترة، فان الفاتر شر من البارد » .

٤/٢ ـ السمات الفنية للفكاهة في كتاب البخلاء :

كان الجاحظ ، كما ذكرنا ، أميراً من أمراء البيان العربي ، وكان واسع الثقافة غزير المعارف ، وكان إماماً معتزلياً متقناً لفن الجدل بارعاً فيه ، وكان واقعياً في أدبه مولعاً بابراز أدق التفاصيل فيما يصفه ، وكان ملماً إلماماً كبيراً بجوانب الحياة الاجتماعية في عصره ، وكان بطبعه « رجلاً مرحاً ضاحكاً متطلق النفس ، يحب الحياة والاستمتاع بها »[٢٨] . كما كان ، إلى ذلك ، «رجلاً سهل الجانب لين الحاشية محباً للناس عطوفاً عليهم ، لا يضيق بهم ، ولا يتبرم بعيوبهم ، ولا يسخط عليهم »[٢٩] . وهذه الصفات الرائعة كلها جعلت منه رجلاً فذاً ، يميزه أسلوب فريد في الكتابة والتاليف ، إذ « لم يكن همه هم غيره من المؤلفين ، في الجمع والرواية والحفظ ، وإنما كان وُكْدُه أن يبتكر ، وأن يُطرِف ، وأن يخلق للناس بديعاً، يمسح على جميعها بالدعابة والهزل ، ويشيع الفَكاهة في أثناء الكلام . فجمع بذلك قلوب القارئين إليه ، واستولى منهم بذلك على شتى ميولهم إلى مايكتب(...) وطرق الجاحظ في كتابته أبواباً عجيبة ، وتقرّب إلى العامة ، وحرص أشد الحرص على استرضائهم . ولم ينسَ في ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة في المعارف المالية والسياسات الرفيعة»[٣٠] .

ولقد تمثلت في كتاب البخلاء هذه الخصائص الرائعة لفن الكتابة الجاحظية • على أن الجاحظ كان يحس، في بعض الأحيان ، أن القلم ، مهما برع صاحبه وأبدع ، غير قادر على الوصول إلى كُنْه الشيء ، وعلى بلوغ حدوده وحقائقه • مثال ذلك قصة أبي جعفر ، التي ابتدأها بقوله : « ولم أرَ مثل أبي جعفر الطَّرسوسي » ، ثم سرد الحادثة ، فقال : « زار قوما فأكرموه وطيّبوه ، وجعلوا في شاربه وسَبَلته غالية (أخلاط من الطيب والمسك) ، فحكّته شفته العليا ، فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفة ، مخافة أن تأخذ إصبعُه من الغالية شيئاً إذا حكها من فوق » • وعلّق على الوصف بقوله : « وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك • لأن الكتاب لا يصوّر لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كُنْهه ، وعلى حدوده وحقائقه »[٣١] •

ولكن أبرز السمات الفنية لتناول الفكاهة في كتاب البخلاء اثنتان : البراعة في الوصف والدقة في التصوير ، ثم السخرية والتهكم •

٤/٢/١ ـ البراعة في الوصف والدقة في التصوير :

كان الجاحظ بارعاً في وصفه ، دقيقاً في تصويره ، فهو لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا صغيرة ولا كبيرة ، ولا همسة ولا لمسة ، ولا حركة عابرة ولا مستشفّة ، مهما دقّت أو شفّت ، إلا التقطها ودوّنها أو عبّر عنها ، يسعفه في ذلك أسلوب طيع العبارة رشيقها ، غزير المعنى دقيقه ؛ ومنهج علمي يقوم على الدقة في الملاحظة ، والعمق في الاستقصاء ، والتتبع الرصين المتأمل • ولذلك لم يكن بحاجة إلى أن يزين أسلوبه بأنواع التشابيه والاستعارات إلا بالقدر الذي يبدو فيه التزيين طبيعياً بعيداً عن التكلّف •

ثم إنه كان مبدعاً في البحث عن الدواعي النفسية التي تقود شخوصه إلى التعبير بالطريقة التي بها يعبّرون ، ويحاولون عبرها أن يخفوا معالم بخلهم بالحديث عن الكرم أو اصطناعه أو بذله • فكان بذلك سالكاً ـ في القرنين الثاني والثالث الهجريين ـ مسلك المحلّلين النفسيين الذين ركزوا جهودهم في مطلع القرن العشرين على استبطان اللاشعور وتجلياته في النفس البشرية عبر الهفوات

والسقطات وزلات القلم واللسان • والجاحظ بذاته يعبر عن ذلك في مقدمته بقوله : « ولا بد من أن تعرفني على الهنات التي نَمَّت على المتكلفين ودلت على حقائق المتموهين ، وهتكت عزّ أستار الأدعياء وفرّقت بين الحقيقة والرياء ••• »(٣٢) ، بعد أن قدم عرضاً رائعاً لنفسياتهم وتسويغهم لبخلهم وشحهم بشتى المذاهب والأساليب •

يقول الجاحظ في مقدمة الكتاب :(٣٣) « (...) ولِمَ سمّوا البخل إصلاحاً والشح اقتصاداً ، ولِمَ حاموا عن المنع ونسبوه إلى الحزم ، ولِمَ نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ، ولِمَ جعلوا الجود سرفاً والأثرة جهلاً ، ولِمَ زهدوا في الحمد وقلّ احتفالهم بالذم ، ولِمَ استضعفوا من هش للذكر وارتاح للبذل ، ولِمَ حكموا بالقوة لمن لا يميل إلى ثناء ولا ينحرف عن هجاء ، ولِمَ احتجوا لغليظ العيش على لينه ولمرّه على حلوه (...) ولِمَ رغبوا في الكسب مع زهدهم في الانفاق ، ولِمَ عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ولم يعملوا مع الغنى عمل الراجي لدوام الغنى ، ولِمَ وفّروا نصيب الخوف وبخسوا نصيب الرجاء ••• »(٣٤) •

كان الجاحظ إذاً فناناً مبدعاً في وصفه الحسي لحركات البخلاء وسكناتهم، والوصف النفسي لهناتهم وهفواتهم • فانك واجد في كتابه أمثلة كثيرة رائعة لكل ما ذكرناه • وإن كنا لا نستطيع في هذه الأسطر القليلة أن نحشد أكثرها، فانا موردون بعض الأمثلة لها •

إن من أدق الوصف الواقعي لدى الجاحظ ما ذكره عن علي الأسواري ، على لسان الحارثي ، وكلاهما بخيل •قال الحارثي :

« والله اني لو لم اترك مؤاكلة الناس واطعامهم ، الا لسوء رعة علي الاسواري لتركته • وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقا ، فبلع ضرسه وهو لا يعلم • فعل ذلك عند ابراهيم بن الخطاب ، مولى سُليم •وكان اذا اكل ذهب عقله ، وجحظت عيناه ، وسكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ،وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رايت ما يعتريه وما يعتري الطعام منه ،صرت لا آذن له الا ونحن ناكل التمر والجوز والباقلي • ولم يفجاني قط وانا آكل تمرا الا استفه سفا ، وحساه حسوا ، وزدا به زدوا • ولا وجده كثيزا الا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم ياخذ بحضنيها ، ويقلتها

من الارض • ثم لايزال ينهشها طولا وعرضا، ورفعا وخفضا ، حتى ياتي عليها جميعا • ثم لا يقع عضبه الا على الانصاف والاثلاث•ولم يفصل تمرة قطّ من تمرة • وكان صاحب جنمّل ولم يكن يرضى بالتفاريق ،ولا رمى بنواة قطّ ، ولانزع قمعا ، ولانفى عنه قشرا ، ولا فتشه مخافة السوس والدود•ثم ما رايته قط الا وكانه طالب ثار ، وشعنشعان صاحب طائلة • وكانه عاشق مغتلم ، او جائع مقرور »(٣٥) •

أية لوحة فنية رائعة هذه التي رسمها الجاحظ بقلمه لعلي الأسواري ، فتجلت فيها أدق التفاصيل ، وأغرب الحركات ، وأمتع التعليقات ، وأعذب التصويرات !

وإن من أجمل الوصف النفسي ماذكره الجاحظ عن محمد بن أبي المؤمّل، قال : « واشترى مرة شبوطة وهو ببغداد • وأخذها فائقة عظيمة ، وغالى بها وارتفع في ثمنها ، وكان قد بَمْدَ عهده بأكل السمك • وهو بصْري لا يصبر عنه • فكان قد أكبر أمر هذه السمكة ،لكثرة ثمنها ولسِمَنها وعِظَمها ولشدة شهوته لها • فحين ظن عند نفسه أنه خلا بها ، وتفرّد بأطايبها ، وحسر عن ذراعيه وصَمَدَ صَمْدَها ، هجمتُ عليه ومعي السَّدْريّ • فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف ورأى الحتم المقضيّ ، ورأى قاصمة الظهر ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلي بالتنين •

فلم يلبثه السدريّ حتى قوّر السرّة بالمبال ، فأقبل عليّ فقال : يا أبا عثمان ، السدريّ يعجبه السُرّر، فما فصلت الكلمه من فيه ، حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعاً ، فأقبل عليّ فقال : والسدري يعجبه الأقفاء ، فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كلّه ، فقال : يا أبا عثمان والسدري يعجبه المتون ، ولم يظنّ أن السدري يعرف فضيلة ذَنَبِ الشبوط وعذوبة لحمه ، وظن أنه سيسلم له،وظن معرفة ذلك من الغامض، فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ماعلى الوجهين جميعا • ولولا أن السدري أبطره وأثقله وأكمده وملأ صدره غيظا لكان أدرك معه طرفا ؛ لأنه كان من الأكلة • ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه •

فلما أكل السدري جميع أطايبها•وبقي هو في النظارة ، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ، ظن أن في

سائر السمكة ما يشبعه ويشفي من قرمه . فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه . فلما رأى السدري يَفري الفَرِيّ ويلتهم التهاماً قال : يا أباعثمان السدري يعجبه كل شيء . فتولد الغيظ في جوفه ، وأقلقته الرّعدة . فَخَبُثَت نفسه ، فما زال يقيء ويسلح . ثم ركبته الحمى . »[٣٦] .

أرأيت إلى دقة تصويره للحالة النفسية لمحمد بن المؤمّل وتطوّرها ، وهو الذي كان يمني نفسه بسمكة الشبوط المذنبة ، فنُكب بخسارتها ؟فهو ما إن وقع نظره على السّدري حتى رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف و.. الخ . وما إن رآه يُطبِق عليها حتى أُكمِدوامتلأ صدرُه غيظاً ، فمنعه الغيظ من أن يأكل ، فخبُثَت نفسه ، فقاء ، فسلح ، فركبته الحمى .

وابن المؤمل هذا سيكون أيضاً شاهدً ا على الهنات التي تنمّ على المتكلفين والمتموهين . ففي الحوار الذي دار بينه وبين الجاحظ ، ولام فيه الجاحظ صديقه على قلة عدد الخبز على طبقه ، وكان ردابن المؤمل عليه فيه أن كثرة الخبز تورث الصدود في النفس ، وهو يريد أن يُقبل الناس على مائدته بشهية ليشبعوا ... الخ ، تَسقَّط الجاحظ هفوة من هفوات ابن المؤمل كشفت عن تستره على البخل بالكرم ، وعلى الحرص بالبذل ، وعلى التقتير بحسن التنظيم والنظافة ، حين قال : « فان الخبز إذا كثر على الخوان فالفاضل مما لا يأكلون لا يسلم من التلطيخ والتغمير . » ثم استطرد كاشفاً عن حقيقة طبعه ، وخبيئة نفسه دون أن يدري ، فقال : « والجردقة الغَمِرة والرقاقة المتلطخة ، لا أقدر أن أنظر إليها ، وأستحيي أيضاً من إعادتها . فيذهب ذلك الفضل باطلاً ، والله لايحب الباطل . »[٣٧] .

٤/٢/٢ ــ السخرية والتهكم :

السخرية صفة تلازم أعمال الجاحظ بمجملها ، والمتصفح لآثاره يلمح ذلك بوضوح شديد ، ولكنها أبرزفي كتاب البخلاء وأقوى ، فهو مبني في جانب منه عليها ، لأن السخرية صفة تلازم الهزل والمزح والضحك عموماً .

ثم إن قصص الجاحظ ونوادره في البخلاء تقتضي هذه الصفة التضاد، وتتطلبها تطلبًا • أفليس كتابه قائماً على التناقضات والمفارقات ؟ تناقضات الكذب والصدق، والبخل والكرم، والنسيان والتذكر، والأثرة والايثار ، والغباء والفطنة، والفقر والغنى ، والحرص والبذل ،والبكاء والضحك ، والهجاء والثناء ، والمر والحلو ، والكسب والانفاق ،والشقوة والسعادة •• الخ ؛ومفارقات التطبع والطبع ، والتغابي والغباء ، والتناسي والنسيان ، والتستر والستر ، والتكلف والكلف ، والتغافل والغفلة ، والتحامق والحمق ، والتظاهر والظهور ، والتكسب والكسب ، ••• الخ • إن المتأمل في مقدمة الكتاب يجد أن معظمها مسخر لاظهار هذه التناقضات والمفارقات وتتبعها لدى بخلاء الجاحظ • وليس أدعى إلى السخرية من وصف الجاحظ في المقدمة لمذهب صحصح في تفضيل النسيان على كثير من التذكر ، وتشبيهه المغفلين والأغبياء بالبهائم • يقول :

وسألت أن أكتب لك «مذهب صحصح في تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة ، وأن عيش البهائم أحسن موقعاً في النفوس من عيش العقلاء : وانك لو أسمنت بهيمة ورجلاً ذا مروءة ، أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غباء وغفلة ، لكان الشحم إلى البهيمة أسرع، وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، لأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام ، ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمة تقنو شحماً في الأيام اليسيرة ، ولا تجد ذلك لذي الهمة البعيدة • ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلم منه ، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء• »(٣٨) •

ولكن سخرية الجاحظ لطيفة مستظرفة وليست لاذعة مستهجنة ؛ فقد كان يشير الى العيوب ويظهرها بظرف ومرح مستحسنين ،ولا عجب في ذلك ، فالجاحظ كما ذكرنا كان رقيق الحاشية محبا للناس عطوفا عليهم ، كما كان بطبعه مرحا منطلق الوجه نزاعا الى الضحك والمزاح • وجملته التي اثرت عنه تفسر ما ذهبنا اليه ، وهي قوله : « الجد مبغضة والمزاح محبة »(٣٩) • لقد كان اذا يصدر في مزاحه وفكاهته عن محبته للناس ووده لهم وعطفه عليهم •

أما عوامل هذه النزعة الساخرة لدى الجاحظ فتعود في رأي طه الحاجري إلى : طبيعة حياة الجاحظ الذي صحب الدنيا طويلاً وتقلبت على عينيه ،

« ولابس صنوف الجماعات والوان الناس ملابسة استطاع بها أن ينفذ إلى بواطنهم ، ويظهر على ما يخالج نفوسهم ويوجههم في حياتهم ، ومارس ألوان الحياة ممارسة جعلته أدنى إلى فهمها وأبعد عن الافتتان بظواهرها » • يضاف إلى ذلك « دراسته المفتنّة أفانين مختلفة، الذاهبة مع شتى المعارف والآراء والمذاهب (•••) ثم روح الاعتزال التي كانت تتجه بأصحابها إلى التغلغل في النواحي المختلفة للمعرفة » ، وكذلك «نزعة الجدل والمناظرة التي كانت غالبة عليه ، ثم هذه المرونة والألفة العقلية التي امتاز بها » • وهذه العوامل بمجموعها مضافاً إليها الطبع المرح ومحبة الناس ومحبة الحياة والاستمتاع بها مكنته من أن يظهر على نحو فريد متميز ، يثير سخرية رشيقة لطيفة مستحبة ، « تقصد إلى الأذواق المترفة والمدارك المرهفة ، حتى لقد يرى بعض القراء هذه الصورة أو تلك من صوره الساخرة فلا يكاد ينتبه إلى مواطن السخرية فيها ، إذ كانت سخرية الذهن الدقيق والذوق الرفيع المهذب والفن الخالص المتمكن • »(٤٠) •

وفيما يلي بعض النماذج لهذه السخرية الشائعة في كتاب البخلاء : روى الجاحظ ما قاله المكيّ عن سليمان الذي كان يقلل من الضحك حتى لا تنفرج أساريره ، وتنطلق نفسه فيبذل ، قال :

« قال حين عوتب في قلة الضحك وشدة القطوب : ان الذي يمنعني من الضحك ان الانسان اقرب ما يكون الى البذل اذا ضحك وطابت نفسه »(٤١) •

إنه يقتصد في الضحك ، بل يضن به على نفسه خشية أن يقوده على غفلة ، إلى شيء من البذل ، وهو لا يريده بطبعه •

وقصته مع محفوظ النقاش خفيفة الظل عذبة : قال الجاحظ :

« صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً • فلما صرت قرب منزله ، وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي، سألني أن أبيت عنده، وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة وليس معك نار ، وعندي لبأ لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة ، لا تصلح إلا له • فملت معه • فابطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر ، فلما مددت

قال : يا أبا عثمان إنه لَبَأ وغلَظه ، وهو الليل وركوده ، ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعَنت في السِّن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل يسرع إليك ، وأنت في الأصل لست صاحب عشاء . فان أكلت اللبأ ولم تبالغ ، كنت لا آكلاً ولا تاركا ، وحرشت طباعك ، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك . وإن بالغت بِتنا في ليلة سوء ، من الاهتمام بأمرك . ولم نُعِدَّ لك نبيذاً ولا عسلاً . وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً : كان وكان . والله قد وقعت بين نابَيْ أسد . لأني لو لم أجئك به ، وقد ذكرته لك ، قلتَ : بَخِلَ به وبدا له فيه ؛ وإن جئت به ، ولم أحذِّرك منه ، ولم أذكِّرك كل ما عليك فيه ، قلتَ : لم يُشفق عليَّ ولم ينصح . فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً . فان شئت أكلت فأكلة وموتة ، وإن شئت فبعض الاحتمال ، ونوم على سلامة .

فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة . ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن . ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به لأتى عليَّ الضحك ، أو لقضى عليَّ . ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب . »(٤٢)

لقد قدم له صاحبه الطعام ، ولكنه ظل يحاوره ويداوره ، ويحذره ويذكِّره ، وينبِّهه ويروِّعه إلى أن سَقِطَ في يده ، فأتى الجاحظ على كل شيء ، وأمعن في الضحك .

وكان الجاحظ يكره الافراط وتجاوز الحد في كل شيء . ولذلك علَّق على حكاية ابن البخيل الذي غطى بخل أبيه وأخمل ذكره ، كما سنرى ، على شدة بخله ، بما يبين المعقول والمقبول من سواه . وابتدأ الحكاية بكلمة : « زعموا » ، التي تؤكد صفة الوضع والابتداع فيها . قال الجاحظ : « وحديث سمعناه على وجه الدهر . زعموا أن رجلاً بلغ في البخل غايته ، وصار إماما ، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم ، خاطبه وناجاه وفدَّاه واستبطأه . وكان مما يقول له : كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم من خامل رفعت ، ومن رفيع قد أخملت . لك عندي ان تَعْرى ولا تَضْحى . ثم يلقيه في كيسه

ويقول له : اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه . وإنه لم يُدْخِل فيه درهماً قطّ فأخرجه .

وأن أهله ألحوا عليه في شهوة ، وأكثروا عليه في إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك . فبينا هو ذاهب إذ رأى حواءً قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه ، فقال في نفسه : أُتلِفُ شيئاً تبذل فيه النفس ، بأكلة وشربة ؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله . فرجع إلى أهله ، ورد الدرهم إلى كيسه . فكان أهله منه في بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه بالموت ، والحياة بدونه .

فلما مات وظنوا أنهم استراحوا منه، قدِم ابنه ، فاستولى على ماله وداره، ثم قال : ما كان أدم أبي ؟ فان أكثر الفساد إنما يكون في الادام ، قالوا :كان يتادم بجبنةٍ عنده ، قال : أرونيها . فاذا فيها حَزّ كالجدول من أثر مسح اللقمة . قال : ما هذه الحفرة ؟ قالوا :كان لا يقطع الجبن ، وإنما كان يمسح على ظهره ، فيحفر كما ترى ، قال :فهذا أهلكني،وبهذا أقعدني هذا المقعد. لو علمت ذلك ما صليت عليه . قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ قال : أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة . »[٤٣] .

ويعلق الجاحظ على هذه الحكاية المزعومة بقوله :

« ولا يعجبني هذا الحرف الأخير ، لأن الافراط لا غاية له . وانما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز ان يكون فيهم ، مثلهاو حجة او طريقة. فامامثل هذا الحرف فليس مما نذكره . وأما سائر حديث هذا الرجلفمن هذا الباب . »[٤٤] .

ويستبعد الجاحظ من نوادره ماينسب من بخل إلى قوم لا يُعرفون بالبخل وإنما يتصرفون لقلة ذات اليد . فهؤلاء ليسوا ممن يقصدهم بالبخل . قال الجاحظ : « وقد عاب ناس أهل المازح والمديبر بأمور : منها أن خشكنانهم من دقيق شعير ، وحشوه ، الذي يكون فيه من الجوز والسكر ، من دقيق خشكار . وأهل المازح لا يعرفون بالبخل، ولكنهم أسوأ الناس حالاً ، فتقديرهم على قدر عيشهم . وإنما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر ، وبين خصب البلاد وعيش أهل الجدب . فأما من يضيّق على نفسه لأنه لايعرف إلا الضيق فليس سبيله سبيل القوم . »[٤٥] .

٥ ـ خاتمة :

عرضنا في السطور السابقة للفكاهة في أدب الجاحظ ، بعد إطلالة على حياته وظروفها ، وعصره وثقافته ، ومنهجه في التاليف والكتابة ، ورأينا أن مزج الجد بالهزل والوقار بالضحك والرصانة بالدعابة خاصية تمتاز بها كتب الجاحظ ومؤلفاته • ثم تتبعنا بعد ذلك بشيء من التقصي الفكاهة في كتاب البخلاء ، فتحدثنا عن مضمونه ومنهجه وأسلوبه ، وتوقفنا عند أبرز الصفات الفنية فيه • فتحدثنا عن البراعة في الوصف والدقة في التعبير وذكرنا نماذج من الوصف المادي ، ونماذج من الوصف النفسي ، وعالجنا خاصية السخرية التي وسمت أسلوب الجاحظ في كتاب البخلاء، وبينا عواملها ومثلنا عليها •

وفي ختام ذلك كله يتبدى لنا الجاحظ إمام عصره وأمير نثره ، ونسيج وحده ، لوى عنق البيان فكان رهن بنانه، وأمسك بناصية المعاني فذلّت له ، وخبِر ثنايا الحياة الاجتماعية فأمدته بأسرارها وكنوزها ، وولّد القصص فبدت على يديه واقعية ، ووضع الأحاديث فما ملتها الأسماع ، بل على النقيض ألِفتها ، واستأنست بها ، وطربت لها ، واستبطن النفوس ففتحت أعماقها ، وكشفت له عن خفاياها وخبيئاتها ، ومَزَحَ وهَزِلَ وفكِهَ ، وجَدَّ ووَقُر ورَصُنَ فكان في كل أولئك عبقرياً مبدعاً متفرداً •

☆ ☆ ☆

□ الهوامش والمراجع :

١ ـ الكيالي ، طاهر : الجاحظ ، الناشر : عبدالودود الكيالي ، بلا تاريخ ، ص ص ٢ـ٣ •

٢ ـ الطرابلسي، امجد (١٩٧٠): حركة التاليف عند العرب، مكتبة الفتح بدمشق ، ص ١٣٢ • وقد ذكر الطرابلسي ان كتاب الحيوان سابق في التاليف على كتاب البيان والتبيين ، بدليل ان الجاحظ اشار في كتاب البيان والتبيين الى كتاب الحيوان غير مرة •

٣ ـ الحاجري ، طه (١٩٩٠) البخلاء للجاحظ ، تحقيق وتعليق ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ص ٣٨ من مقدمة المحقق• وقد عمد الحاجري الى التقديم للكتاب بدراسة بلغت ستا وخمسين صفحة ، ثم تلاها ترقيم للكتاب يبدا من الصفحة الاولى • وعلى ذلك سنشير في استشهادنا الى ان الهامش او النص ماخوذ من المقدمة التي وضعها الحاجري ، او ماخوذ من الكتاب الذي وضعه الجاحظ بخط يده بما في ذلك مقدمته هو ، بالقول : مقدمة المحقق او مقدمة المؤلف ، او كتاب البخلاء •

٤ ـ هارون ، عبدالسلام (١٩٣٨) : كتاب الحيوان للجاحظ، تحقيق وشرح ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده ، الجزء الاول ، ص ٣٦ •

٥ - المرجع رقم ٤ ، ص ٦ •
٦ - المرجع رقم ٤ ، ص ٦ •
٧ - المرجع رقم ٤ ، ص ٥ •
٨ - المرجع رقم ٤ ، ص ٥ •
٩ - المرجع رقم ٤ ، صص ٣٨-٤٢ •
١٠- المرجع رقم ٤ ، صص ٥٠-٥٢ •
١١- الهنداوي ، خليل (١٩٥٢) : نصوص مدروسة في الأدب العربي ، ص ٤٢٣ •
١٢- المرجع رقم ٤ ، ص ٣ •
١٣- هارون عبدالسلام (١٩٣٨) : كتاب الحيوان للجاحظ... الجزء الثالث ، ص ٧ •
١٤- المرجع رقم ٤ ، ص ٣٧ •
١٥- نقلاً عن المرجع رقم ٣ ، ص ٢٤ • وإيفانوس هذا كاتب يوناني •
١٦- المرجع رقم ٣ ، ص ٢٦ •
١٧- المرجع رقم ٣ ، ص ٢٨ • ويذكر الحاجري أن اسلوب من سبقوا الجاحظ في الحديث عن البخلاء اسلوب اخباري يفتقر الى النزعة الفنية التي تميز بها الجاحظ عن سواه • فهؤلاء كانوا يتحدثون عن البخل والبخلاء ضمن اطار الدفاع عن الدولة العربية العباسية ضد خصومها الشعوبيين فجاءت كتاباتهم ، لذلك ، اخبارية ، تكمن وراءها غاية سياسية •

١٨- المرجع رقم ٣ ، ص ٣٣ •
١٩- المرجع رقم ٣ ، ص ٣٣ •
٢٠- المرجع رقم ٣ ، ص ٣٥ •
٢١- الثعالبي مذكورا في المرجع رقم ٣ ، ص ٣٦ •
٢٢- المرجع رقم ٣ ، ص ٧ من كتاب البخلاء للجاحظ •
٢٣- المرجع رقم ٣ ، ص ١ من كتاب البخلاء للجاحظ •
٢٤- المرجع رقم ٣ ، ص ٥ من كتاب البخلاء للجاحظ •
٢٥- المرجع رقم ٣ ، ص ٢٥ من كتاب البخلاء للجاحظ •
٢٦- المرجع رقم ٣ ، ص ٤٠ من كتاب البخلاء للجاحظ •
٢٧- المرجع رقم ٣ ، ص ٧ من كتاب البخلاء للجاحظ •
٢٨- المرجع رقم ٣ ، ص ٥٥ من مقدمة المحقق •
٢٩- المرجع رقم ٣ ، ص ٥٤ من مقدمة المحقق •
٣٠- المرجع رقم ٤ ، صص ٧-٨ •
٣١- المرجع رقم ٣ ، ص ٥٨ من كتاب البخلاء للجاحظ •
٣٢- المرجع رقم ٣ ، ص ٣ من مقدمة الجاحظ لكتابه •
٣٣- المرجع رقم ٣ ، ص ١ من مقدمة الجاحظ لكتابه •
٣٤- المرجع رقم ٣ ، ص ٢ من مقدمة الجاحظ لكتابه •
٣٥- المرجع رقم ٣ ، صص ٧٩-٨٠ من كتاب البخلاء •
٣٦- المرجع رقم ٣ ، صص ١٠٠-١٠١ من كتاب البخلاء •
٣٧- المرجع رقم ٣ ، ص ٩٥ من كتاب البخلاء •
٣٨- المرجع رقم ٣ ، صص ٤-٥ من مقدمة الجاحظ لكتابه •
٣٩- نقلاً عن المرجع ٣ ، ص ٥٤ من مقدمة المحقق •
٤٠- نقلاً عن المرجع ٣ ، ص ٥٩ من مقدمة المحقق •
٤١- المرجع رقم ٣ ، ص ١٢٣ من كتاب البخلاء •
٤٢- المرجع رقم ٣ ، صص ١٢٣-١٢٤ من كتاب البخلاء •
٤٣- المرجع رقم ٣ ، ص ١٣٢ من كتاب البخلاء •
٤٤- المرجع رقم ٣ ، ص ١٣٢ من كتاب البخلاء •
٤٥- المرجع رقم ٣ ، ص ١٢٢ من كتاب البخلاء •

☆ ☆ ☆

عبير من التراث العربي

ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ*

عرض : سعاد رمزي

صدر في المدة الأخيرة كتاب للدكتورة رشيدة اللقاني بعنوان [ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ] وهو دراسة قيمة للتصور اللغوي في العصر العباسي من خلال نصوص الجاحظ ، بهدف تمثل حياة الألفاظ الدلالية ، والكشف عن الابعاد الحقيقية للتطور الاجتماعي، والتفاعل الانساني في ذلك العصر من خلال التراث اللغوي الأصيل الذي خلقه ذلك الانسان الكبير ، واللغوي المبدع، المحيط بالتراث اللغوي العربي، والعالم الذي يستنبط من ملاحظاته ومشاهداته قوانين لغوية لم يفطن اليها الا اللسانيون في عصرنا .

والباحثة « رشيدة اللقاني » لم تنزلق إلى مخاطر المنهج اللغوي كما تشير في المقدمة ، حتى لا تقع في متاهات التحليل الأدبي أو الجدولة الاحصائية ، وإنما سعت إلى « توظيف نصوص الجاحظ لخدمة الدرس اللغوي الحديث دون تعسف » .

والجاحظ ظاهرة فريدة في تراثنا اللغوي ، فهو لم يجمد عند حدود اللغة التي خلفتها لنا المعاجم ، وإنما فهم اللغة بالمعنى الواسع كما يفهمها الدلاليون المعاصرون ، فهي إمكانية قابلة للتوليد تتحقق باللسان كما يشير الباحث

(*) ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ .. تأليف : الدكتورة رشيدة عبدالحميد احمد اللقاني . صدر عن : جامعة الملك سعود ـ عمادة شؤون المكتبات . (٤٤٦) صفحة .. من القطع الكبير .. الطبعة الأولى (١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م) .

« دوسوسير » . وهذا التحقق اللغوي اللساني في العصر العباسي اتسمت مصادره اللغوية وينابيعه بحكم التمازج الثقافي بين العرب والشعوب الأخرى . على أن المؤلفة « رشيدة » تلفت انتباهنا إلى أن اللغة العربية كانت منذ زمن سحيق في القدم تُعطي وتأخذ إلى حدّ أصبح فيه بعض ما أخذته أو أعطته جزءاً منها ، أو جزءاً من اللغات التي اقتبست منها ، حتى غدا التحقق من الأصول اللغوية للألفاظ ، وردّها إلى جذورها أمراً عسيراً، يضاف إلى ذلك أن حركة الألفاظ التي تنقلها وتعاورها بين اللغات جعل من العسير معرفة الآخذ من المعطي .

ومن هنا يفسر الاضطراب الذي وقع فيه المؤثلون اللغويون والتناقض في رد الكلمات الأعجمية إلى أصولها ، وهو اضطراب لا يعدو أن يكون في بعض الأحيان اجتهاداً يمليه بعض التشابه في اللفظ بين الكلمة العربية وما يماثلها معنى ولفظاً من الكلمات الأخرى .. من ذلك مثلاً كلمة (دينار) فقد عرضت المؤلفة آراء اللغويين (ص ٣٧٨) في أصلها اللغوي الذي اختلفت الآراء فيه، فذهب « الجواليقي » في « المعرب » إلى أن أصلها « دنار » ، وهو ان كان معرباً فليس تعرف له العرب اسماً غير الدينار، فقد صار كالعربي . وورد ذكره في القرآن الكريم **(ومنهم من إن تأمنه بدينار)** .

وأيد « السيوطي » كونها معربة في كتابه « الاتقان » . أما « الثعالبي » فرأى أن تجمع بين الصيغتين العربية والفارسية ، وذهب «جفري» إلى أنها بهلوية « دينار » وهي العملة المتداولة في الدولة الساسانية . وثمة علاقة بين لفظها الفارسي والكلمة السنسكرتية التي تدل على العملة الذهبية ، ويبدو أنها في البهلوية أخذت من اليونانية « ديناروں »، واليونانية اقتبستها من اللاتينية « ديناريوس » . ونجدها في الأرمنية والآرامية والسريانية . ويرجع «فرانكل» أنها أخذت من الآرامية (السريانية) لأنها دخلت المنطقة العربية والشرق في فترة انتشار اللغة السريانية .

والجاحظ حين يدّون بعض ما كان شائعاً من المفردات المتداولة في العصر العباسي ، يقدم خدمة جليلة لتراثنا اللغوي ، إنما يطلعنا على منحى التطور اللغوي الذي مرت به لغة الحياة ، لا لغة المعجمات ، خلال العصور منذ الجاهلية ،

مروراً بصدر الاسلام وعهد بني أمية ،تحت تأثيرعوامل مختلفة،منها السياسي، والتجاري ، والاجتماعي ، والحضاري ٠

وتدرك الباحثة « رشيدة » أن دراسة التطور اللغوي من خلال ما ذكره الجاحظ في كتبه من الفاظ العصر العباسي ليس بالأمر اليسير ، لأنه يعتمد المنهج في تفسير اللغة بالعوامل المؤثرة فيها لا في عصر الجاحظ فحسب ، بل في العصور السابقة ، او يلتزم منهج البحث نقيض هذه الفرضية ، فينطلق من اللغة ليستخلص منها العوامل المؤثرة في حياة المجتمعات ٠

ويبدو أن المؤلفة جمعت بين المنهجين اللغوي والتاريخي مقدّرة أنها لن تصل إلى نتائج حاسمة ، بل مقاربة ، لأن ماجُمع من اللغة في بطون المعجمات لم يرصد التطور الدلالي للكلمة عبر العصور ، ولم يبيّن متى وقع ذلك التطور وكيف تمّ ٠ والمعجمات لا تحدد الزمن الذي دخلت فيه الكلمة إلى العربية ، أو استعيرت منها إلى لغات أخرى ، ولا أحد يستطيع أن يجزم مثلاً بالأصل اللغوي لكلمة (سكر) وما اللغة التي ابتدعتها ٠ ؟؟ ومتى استعيرت من اللغات الأخرى، وكيف تمت هذه الاستعارة ٠؟ وفي أي زمن حصلت ٠؟

تجاه هذه الصعوبة اكتفت المؤلفة الباحثة ، بنقل آراء اللغويين في تتبع جذور الكلمات واجتهاداتهم التي لا تخلو من تضارب ، إلا أنها أثبتت لنا مسلّمة لا تقبل النقاش ، فان شيوع الكلمات ذات الأصل الفارسي وتسربها إلى العربية زمن الجاحظ ، وفي العصر العباسي بعامة ، يثبت أثر هذه الحضارة في حياة المجتمعات العربية من النواحي الحياتية تحت تأثير التواصل التجاري، والاجتماعي ، والثقافي ، فقد تطورت حياة العرب ، وتعددت حاجات الانسان مع هذا التطور ، فكان لا بدّ من تطور اللغة في ظلّ ذلك ، عن طريق الاقتباس، أو إحياء مفردات عربية قديمة ، أو إماتة مفردات عربية ثقيلة اللفظ واعتماد كلمات معربة بدلاً منها ٠

ومن الثابت أن ما أورده الجاحظ من مفردات مستخدمة في العصر العباسي لا يعني كما تقول ـ المؤلفة ـ أنها لم تكن مستخدمة قبل ذلك عند العرب في حياتهم العامة في عصر بني امية وما قبله٠ ذلك أن معجمات اللغة لم تعن إلا بالعربية السليمة ، فلم تلتفت إلى لهجات القبائل المشكوك بمروبة لغتها ، كذلك فان علماء اللغة لم يجمعوا اللغة كلها ، بسبب قصور وسائل البحث ، أو

بسبب ظنهم أن بعض ما هو متداول ليس من العربية ، في حين أن الجاحظ لم يلتزم تلك الشروط ، فجمع ما هو متداول مما هو عربي أو معرب أو أعجمي ، ويأتي بحث المؤلفة إغناءً واستكمالاً لجهود اللغويين المعاصرين الذين سبقوها في هذا المجال ، معتمدين على ما ورد من شروح لمفردات العصر العباسي في بطون المؤلفات ·· وبذلت ـ المؤلفة ـ جهداً رائعاً في تتبع آراء الباحثين ودراساتهم من عرب ومستشرقين ·

* * *

١ ـ ألفاظ الأطعمة :

تناولت المؤلفة في الفصل الأول مفردات الأطعمة كما وردت في آثار الجاحظ، فأشارت إلى تطور الذوق العربي في الطعام بعد العرب بالشعوب الأخرى ، ولا سيما « الفرس » وارتفاع مستوى الدخل ، وأورد الجاحظ مفردات كثيرة تتصل بالطعام والشراب ، وآداب المنادمة على المائدة ، منها ما ورد في رسالته « المعاش والمعاد » التي كتبها للوليد محمد بن أحمد · وذكر مفردات تتعلق بأصول الدعوة للولائم ·

وكانت العرب في العصر العباسي تفضل اللحم على اللبن والتمر ، وهما طعام البداة ، ويؤثرون من اللحوم لحم الدجاج ، وكان لحم الجدي مفضلاً على لحم الضأن أو البقر · وكانت الملوك تفضل لحم الحملان ، وكانوا يأكلون اللحم مشرحاً وهو نيء ، مع الشراب ·

وجمعت المؤلفة ألفاظاً عديدة للأطعمة أوردها الجاحظ في كتبه وتأليفه.. من الصعب إيرادها وشرحها في هذه الدراسة ·

* * *

٢ ـ ألفاظ الأشربة :

وفي الفصل الثاني تنتقل الباحثة الى ألفاظ الأشربة .. ويذكرها الجاحظ لا ترغيباً فيها ، وإنما دراسة للمتداول منها ، فمن الأشربة : النبيذ : ويصنع من التمر أو العسل أو المشمش ، ونبيذ المشمش أخضر اللون · ثم يسمي

الجاحظ ألقاب بائعي الخمور ومنهم :الشهريار والمازيار · ويتناول مفعول الأشربة في الانسان ، ثم يعدد أصنافها ·

وتخلص المؤلفة الى ملاحظة مدى تطور الأطعمة والأشربة عند العرب زمن الجاحظ ، وأثر الفرس في ذلك · والجاحظ حريص على إثبات أن العرب منذ القدم عرفوا كثيراً من أصناف الطعام الراقية ، وهو يبرهن أنه كانت لهم عادات راقية في الجلوس على الموائد، فكانوا يتحرجون في اصطفاء الطعام المتميز على المائدة ، ويعيبون الشره ، ويراعون المراتب في الجلوس حول المائدة ، ومن آدابهم خدمة صاحب البيت ضيفه ، ومراعاتهم بتجنب الأطعمة التي تربك المعدة وتشلّ الذهن ، ليظل تفكيرهم صافياً في فترة المنادمة ·

* * *

٣ ـ ألفاظ الملابس :

تشير الباحثة في الفصل الثالث الى صلة اللباس بمستوى الشعب الحضاري، والاقتصادي ، ويفهم مما أورده الجاحظ ، وصاحب كتاب « الموشي »[1] أن لباس الرجال غير لباس النساء ، وأن لأهل الذمة في ذلك العصر لباساً مميزاً ، بل كان لكل طبقة ملابس مخصوصة ، ولكل مناسبة لباسها ، وكان للموالي اسهام في ابتكار الأزياء وتطويرها · ومع اهتمام أصحاب المعاجم باللباس الا أن أكثر أسمائه لم تشرح بدقة ، فضاعت مدلولاتها ، واهتمت بلباس العرب دون لباس طبقة الموالي والطبقات الأخرى · وقد أفاض الجاحظ في ذكر ملابس الطبقات الشعبية وتسميتها ووصفها ·

ويستخلص من واقع اللباس في العصر العباسي ، أنه كان من دلائل الثراء، واتخذ شعاراً سياسياً، كالسواد لبني العباس ، وقد تباين تبايناً يعكس مستوى الطبقات الاجتماعية ، وتنوّع بتنوع المناسبات (لباس السفر ، لباس الزواج ، لباس الحزن ، ···) وقد خرج به العرب عن موروثهم بسبب التواصل والاحتكاك بالفرس وسواهم من الشعوب ، مثلما عبّر عن الحضارة وصورها من خلال سيادة ألوان من العلامات ، كالتزين بالريش والعمائم ، وهو

١ ـ الموشى في الظرف والظرفاء : تأليف : أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء ·

مظهر من مظاهر التطور ، ومن ذلك الاكثار من الملابس وتنويعها ، ولا سيما لدى النساء ٠

* * *

٤ ـ ألفاظ الموسيقا والغناء :

وتستعرض المؤلفة في الفصل الرابع ألفاظ الموسيقا والغناء التي وردت في كتب الجاحظ ، فتشير الى أن الغناء في العصر العباسي أصبح فناً قائماً بذاته ٠ ويبدو أنه كان للمغنين طبقات ، وقد عني الجاحظ بمن عاصرهم من المغنين ، وكان أبرزهم « اسحق بن ابراهيم الموصلي » الذي مدحه بعضهم فأطلق عليه لقب الملوك :

يا أيها الملك المأمول نائله ... وجوده لمراعي جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وكان التنافس بين المغنين شديداً ، وكانت الجواري يخضعن لتدريب طويل على الغناء ، وقد أورد الجاحظ أسماء الآلات الشائعة في الغناء ٠

ويتضح أن أكثر الآلات مقتبسة من مصادر غير عربية بحسب أسمائها كالفارسية ، أو متوارثة من حضارات سابقة كالسامرية والبابلية ، وكان للمغنين مكانة مرموقة في عصر الجاحظ ، لاهتمام رجال العصر بالطرب واللهو ، وارتقاء الذوق الفني ، ويبدو ذلك الاهتمام في تأليف كتب الأغاني أو ترجمتها ٠

* * *

٥ ـ ألفاظ المجون :

تتناول المؤلفة في الفصل الخامس ألفاظ المجون في العصر العباسي ، وهي تشير الى تحلل العصر وانحدار المستوى الخلقي ، فيتحدث الجاحظ عن ازدهار تجارة الرقيق في عصره ، وحيل الجواري في امتلاك قلوب أوليائهن ، وسلبهم الهدايا والأموال ، وكان يطلق على بيوت القيان اسم « الكشاخنة » ٠ وذكر من أصناف المغنين والمغنيات أصحاب الستارات الذين يغنون خلف ستارة ،

والخصيان ويمتازون بنعومة أصواتهم، واقتراب طباعهم من طباع النساء ، والزفّان : أي الراقصون على الايقاع ، والصنّاجة : وهم الضاربون بالصنج • والغلمان وهم الفتيان المرد المخنثون ، والغلاميات : وهن اللواتي يتشبهن بالغلمان فيلبسن مثلهم ، ويقصصن شعورهن كالغلمان ، والقلاّس : وهم المغنون والراقصون ، وضاربو الدفوف، والمقلاس : مرقص القردة أو الذين يلعبون بالسيوف والحراب ويضربون بالطبول، والقينة : وهي المغنية الجميلة، أو الماشطة التي تزين النساء • والمربوط : هو الواسطة بين الجارية ومشتريها ، أو رسول العشق بينها وبين من يهواها • والمقين : هو الذي يؤجر القيان ويتكسب من غنائهن ، وكان للمقينين دور في بغداد للاتجار بالقيان ، والمومس : هي تاجرة الهوى أو البغي ، والكلمة من أصل يوناني (ميمس) بمعنى الراقصة أو محترفة الدعارة • والنخاس : هو بائع الدواب في الأصل ثم أطلق على بائع الرقيق •

وتخلص المؤلفة الى أن ظاهرة المجون التي سادت في العصر العباسي ، قد بدلت صورة المجتمع العربي ، وأغنت اللغة العربية بألفاظ تتعلق بهذه الظاهرة ، وقد أدّت الى التردي الخلقي ، وهي تعكس أثر المجتمع الساساني في الحياة العربية مثلما تعكس دور الشعوبية في هذا المجال ، لأن أكثر شعراء المجون ، والمشجعين عليه كانوا من الموالي •

* * *

٦ ـ ألفاظ اللعب :

تعالج المؤلفة جانباً شعبياً طريفاً هو ظاهرة اللعب وألفاظه في العصر العباسي، كما وردت في كتب الجاحظ ، وكان اللعب من مظاهر الترفيه في ذلك العصر • وتحدث الجاحظ عن الصيد على أنه مظهر من مظاهر الفسحة ، فذكر أنواع الطرائد ، وطرائق الصيد المتبعة وحيله، فمن آلاته الملتقف ، والتدبيق وهو الاصطياد بالدبق ، والبندق وهي كرات من طين يرمى بها •• وذكر من لعب الصبيان الأرجوحة ، أو الدوداة : وهي خشبة كالميزان يلعب بها الصبيان ، فيرتفع الطرف الذي يجلس فوقه الأخف منهما • ومن ألعاب الكبار البرجاس :

وهو غرض يُرمى في الهواء على رأس رمح أو هدف يسدد له الرماة . واليقبري : لعبة للصبيان يُخبأ فيها شيء في كومات من التراب ، ويبحث عنه بالاشارة إلى الكومة . والبايكيه : هو مصيدة تحبك بالحبال عيوناً وتجعل على باب الطريدة . والجلاهق: وهو بندق من طين مدور يرمى به الصيد. والدشاخ : آلة لها شعبان يُصاد بها السمك . والدارة : من ألعاب الصبيان ، يجلسون فيها القرفصاء، ويدور الآخرون حولهم، فان أمسك بأحدهم أحد الجالسين أجلسه مكانه ودار ، والمحراك : لعبة يحرك بها المنديل تدويراً باليد ، ويضرب به . والزدو : أي لعبة الشفع والوتر . والشحمة : وهي لعبة يُقال لها بالفارسية (نجو) وتشبه لعبة «النوبار» الفرنسية، ينقسم فيها اللاعبون فريقين ، فاذا أمسك فريق بأحد أفراد الفريق الآخر امتطوا ظهره . والشطرنج : وهو غني عن التعريف . والصولجان : وهو العصا التي تضرب بها الكرة على ظهور الخيل . ولعبة الضب : وهي أن يصوّر الضب على الأرض ، ويسأل أحدهم ووجهه الى الخلف عن الموضع الذي وضع فيه اللاعب يده من جسم الضب ، فان خسر ركب هو وأصحابه .. وان أصاب حول وجهه فيصير هو السائل . والنرد : لعبة فارسية يلعب بها على رقعة مقسمة الى أربع وعشرين حجرة ، وكانوا يقامرون به .

ومن الواضح أن بعض هذه الألعاب عربي الأصول ، وبعضه مستورد كمهارشة الديكة ، والصراع بين الجرذان وسواهما . ويعد بعض اللعب مظهراً من مظاهر الرقي الاجتماعي والفكري كالشطرنج ، وقد استغل الجاحظ بعض هذه الألعاب ليدافع عن العرب في مواجهة الشعوبية التي زعمت أن العرب تحتقر الصيد واللعب ، كما يظهر اهتمام الجاحظ باللعب ودقة ملاحظته ، فقد وصف انتشار ظاهرة التقليد ، وخيال الظل في عصره ، ولا سيما تقليد اللهجات اللغوية التي تعددت بسبب التمازج في عصره .

* * *

٧ ـ اللهجات الخاصة :

وفي الفصل السابع تحدثنا المؤلفة عن اللهجات الخاصة التي عني بها الجاحظ ، وهو حديث ذو قيمة علمية كبيرة ، رصد فيه الجاحظ دقائق اللهجات

السائدة ، وتنوعها في عصره، فلقد أسهب في متابعة الفروق اللغوية بين طبقات الناس وفئاتهم ، كأصحاب الحرف ،وحلل دواعي استخدام العامة أضعف اللغات وأقلها استعمالاً ، وأشار الى الانزياح اللغوي في دلالة اللفظ عند الطبقات العامية ، وما في كلامها من ركاكة وسماجة وسوقية ، وأغلاط لغوية ، وحرص على الواقعية في سرد كلام الشخصيات بحسب انتمائها اللغوي ، فرصد لغة الملاّحين وجالس صائدي العصافير والنخاسين والسجانين والنجارين ، وأبرز أثر أعمالهم في تعبيرهم اللغوي ، مما سمح لنا بالاطلاع على اللغات الخاصة لكل فئة ،كالخبازين ، وأصحاب الحمامات والزرّاع وصانعي الأشربة والكناسين والفراشين •

* * *

٨ ـ ألفاظ المكدين واللصوص :

تقدم الباحثة دراسة عن ألفاظ المكدين واللصوص في الفصل الثامن • وقد برهنت أن الجاحظ لغوي أصيل ،اذ كان ينظر الى اللسان على أنه ظاهرة اجتماعية قابلة للرصد والتحليل ، دون أن يحتقر لغة العامة ، كما فعل من سبقه من اللغويين فكان يسرد اللفظة متحرراً من كل قيد اجتماعي أو خلقي ، مثلما تجلى عطفه على العامة ، وأصحاب المهن • ومن هذه الفئات (المكدون) الذين يلتمسون رزقهم بالمكر والحيلة، والعواء : وهو الذي يسأل بين المغرب والعشاء ، وربما كان له صوت مطرب ،والقرّسي : وهو الذي يعصب ساقه أو ذراعه مدعياً أن فيه علّة،والكاغان: وهو الكاجار أو الفجري ، والكاغاني : مدعي البلاهة أو الجنون • والخليدية :وهم المساجين الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد ، وينسبهم « الحاجري » الى ضاحية الخلد في بغداد • والخرّبية : وهي طائفة لا تحقر السرقة والنهب •والمخطراني : الذي يدعي أن لسانه مقطوع فيثير شفقة الناس في تسوله ،والمزيدي : الذي يدور ومعه دريهمات يتسول بها ويطلب المزيد، والمستعرض، الذي يرتدي ثياباً فخمة ويتسول مدعيا أنه انقطع في سفر أو تعرض لمحنة معترضا الناس • والمشعّب : الذي يتسول بالأولاد • والمقدّس : الذي يدعي كاذبا أن الحاجة له ، ويحرج صاحبها • وتتبع الجاحظ لغة هؤلاء المكدين ومكائدهم ، وأورد كثيراً من

ألفاظهم حتى يمكن أن تصنف في معجم ، مثلما تابع أنواع اللصوص منهم الخياط (زعيم اللصوص) والشاغل : الذي يشغل الناس عن اللص ليسرق ، والطرار : الذي يقطع الهميان ليسرق ما فيه . والعين : الذي يرصد «الحاجات» ويخبر اللصوص عن امكانية سرقتها ، والمؤنسي : الذي يشتري الحاجات المسروقة ويبيعها ، ويتضح من دراسة الجاحظ أن أكثر المكدين لم يكونوا عربا ، مثلما يظهر منها الانحدار الخلقي لبعض الطبقات البائسة في المجتمع ، وتطور أساليب الاحتيال مع تطور المدنية ، ومشاركة بعض رجال الأمن المكدين في الكسب والتستر عليهم .

★ ★ ★

٩ ـ ألفاظ الأدوات :

وفي الفصل التاسع ، تتحدث المؤلفة عن اهتمام الجاحظ بأسماء الأدوات المستخدمة ، وأورد كثيراً من أسمائها في كتاباته ، وجلّها مما هو مستخدم في الحياة اليومية أو الحياة البحرية ، من ذلك : الأنك : وهو الرصاص والكلمة فارسية معربة . والأسطرلاب : آلة الرصد وهو لفظ لاتيني معرب . والاسفيداج : من أدوات البناء (فارسي معرب) . والشنان : نبات قلوي يضاف اليه الرماد وتغسل به الأيدي والملابس . والبارجين : أداة للأكل تشبه الشوكة ، والبوصي : نوع من السفن (فارسي معرب) والتبليا : لون من السلالم مصنوعة من الحبال يصعد بها الى النخلة العالية . والتنور : موقد معروف والكلمة فارسية على الأرجح ، وقد وردت في العبرية والحبشية والآرامية والسريانية والأكادية ، والجرار : عود يوضع في فم الفصيل لكي لا يرضع حليب أمه .

ويورد الجاحظ أصناف العملة المتداولة كالدراهم البغلية ، نسبة إلى ضاربها لعمر بن الخطاب ويدعى رأس البغل ، والدينار ..

ومن الأسلحة : السيوف القلعية نسبة إلى معدن القلع أو إلى القلعة .. وهي سيوف هندية مشهورة .

ومن الأدوات ، يذكر الجاحظ الصيصية : وهي شوكة الحائك . والطومار : وهو القطع الكامل من الورق ، والفرعوني : نوع من الزجاج المصري ..

والقرسطون: نوع من الموازين الرومية • والكاز وهو المقص بالفارسية • والكاغد : وهو الورق المجلوب من سمرقند • والمزمّلة : إناء الماء يحتفظ بالماء بارداً ويصنع من الجلد • والمطمورة :وهي حفرة يحفظ فيها المال أو الحَبّ • والمقراع : وهو الفاس ، والمكسحة : أي المكنسة • والمنحاز : الهاون • والنافجة: وعاء المسك •

وتخلص الباحثة إلى دلالات الفاظ الأدوات عند الجاحظ، فترى فيها تصويراً هاماً لجانب إنساني من جوانب الحياة في العصر العباسي تتعلق بمستوى الصناعة وأدوات العمل، وتضخم الحاجات اللغوية مثلما يستغل الجاحظ حديثه •

* * *

تلخص الدكتورة رشيدة عبدالحميد اللقاني بحثها القيم بخاتمة تجمل فيها النتائج التي توصلت إليها ، فتبرز عبقرية الجاحظ في بحثه اللغوي الجديد والمبتكر ، وشجاعته في الدفاع عن العربية التي اتسمت للحضارة الوافدة ، وقدرتها على استيعاب أي حضارة وافدة •

إن لكتاب [الفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ] قيمة علمية كبيرة ، لأنه خلاصة دراسات لغوية كثيرة ، وجهود بذلتها المؤلفة الدكتورة رشيدة اللقاني في تتبع دلالات الالفاظ في المظان المختلفة ، وهو بحث يجمع بين الدراسات اللغوية العربية القديمة والاتجاهات اللسانية الحديثة •• ونخلص منه بنتائج متعددة ومتشعبة ، ففيه فوائد لغوية تتعلق بردّ الكلمات الى أصولها ، ودراسة دقيقة للأوضاع الاجتماعية في العصر العباسي، وقدرة العربية على استيعاب كل جديد ،وفيه التفات الى أثر التمازج الحضاري في حياة الأمة ولغتها ، كما نلحظ سيادة النزعة الاستهلاكية،وتخلي الشخصية العربية بسبب هذه النزعة عن كثير من قيمها وعاداتها وتقاليدها الى حدّ ينذر بالخطر والتردّي ، ويوحي بالعبرة لنا نحن أبناء العربية والناطقين بلغة الضاد ، ففي ذلك درس لنا يعلمنا ما يمكن أن نأخذ وما ينبغي ان نمتنع عن اخذه لنحافظ على هويتنا ولغتنا •

* * *